د. مصطفى الفقى

الأقباط
في السياسة المصرية

مكرم عبيد ودوره في الحركة الوطنية

دار الشروق

الأقباط

في السياسة المصرية

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

© دار الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقياً: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - ٨١٧٧٦٥ - برقياً: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE

SHOROUK INTERNATIONAL: [illegible] STREET, [illegible] UK, TEL: [illegible], TELEX: [illegible]

د. مصطفى الفقى

الأقباط
فى السياسة المصرية

مكرم عبيد ودوره فى الحركة الوطنية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

منذ عدة سنوات . كنت أتحدث إلى سياسي بارز من ساسة ماقبل ٢٣ يوليه ١٩٥٢ ـ وهو قبطي كان من كبار الوفديين مع مصطفى النحاس ـ كنت استوضحه بعض الوقائع التي عايشها وشارك فيها ومنها مدى المساواة بين المسلمين والأقباط في تولي بعض الوظائف الخاصة . وكنت في حديثي أقتبس المواقف بمعيار مطلق للمساواة . فكان الرجل يهدئ من حماسي عن وجوب الالتزام العملي الصارم بالمبادئ المطلقة ، ويتكلم عن الأوضاع التاريخية . والصياغات الفكرية والنفسية للجماعات . ووجوب الرعاية والتفهم الودود لكل هذه المكونات والملاءمه بينها . وكان يلفت نظري الى أنه ان كان ثمة نقص في مساواة القبط في بعض الوظائف . فثمة زيادة لحسابهم في وظائف أخرى لاتقل أهمية . وثمة أسباب يتعين فحصها ومراعاتها .

وضرب لي مثلاً بالشافعية ، وهم أصحاب المذهب الغالب بين المسلمين في مصر ، وقد إختص الحنفية بوظائف القضاء الشرعي كلها دونهم . ومع ذلك لم نسمع شكاة من الشافعية . ولا وصفوا أنفسهم أنهم يعانون إضهادًا وتفرقة . ولا يكون من الانصاف وصف مصر بأنها تضطهد الشافعية لو أن الحنفيين يمتازون عليهم . وحسب الشافعية وغيرهم الكثير من وظائف الوعظ والارشاد والتعليم .

وأدركت من حديث الرجل الكريم ، كيف يكون الموقف الفكري والأنساني لمن أسهم في قيادة شعب كامل بمجموعه كلها ، على كثرة التصنيفات الأجتماعية والفكرية لهذه الجموع ، وكيف تكون النظرة الشاملة والمعالجة الودود البناءه لمشاكل أمة بأسرها ، وكيف تمكن المداواة دون استئصال ، ويمكن العلاج دون البتر ، حفاظًا على الجسم كله ، كاملاً وحيًا ومعافى .

هذا الموقف يظهر فى شخصية مكرم عبيد ، الذى خصه الدكتور مصطفى الفقى بهذه الدراسة . والقارئ فى التاريخ المصرى ، يلحظ قلة الدراسات المتعلقة بالوحدة الوطنية ، حتى أن كتابًا ككتاب « جاك تاجر » ظل منفردًا بالساحة أكثر من عشرين سنة ، على ما فى هذا الكتاب من عوار . كما يلحظ القارئ للتاريخ قلة الدراسات المتعلقة بسير القادة الزعماء وخاصة رجال السياسة . ومن هنا تظهر الأهمية المزدوجة لدراسة الدكتور الفقى ، إذ جاءت تحتل مكانها فى هذين المجالين معا . وهى دراسة علمية وموثقة أعدها عقل مستقيم وقلب شغوف بوطنه ، وتناول فيها سيرة زعيم مصرى تبوأ مكانًا بارزًا فى صدارة الحركة الوطنية المصرية ضد الأستعمار سنوات طويلة فى مرحلة هامة . ومكرم عبيد أسماه المصريون المجاهد الكبير ، وكان سياسيًا داعية ومنظمًا ومحاميًا ، وكان سكرتيرًا لحزب الوفد ووزيرًا للمالية ، وكان ينتخب عضوا بمجلس النواب ونقيبًا للمحامين كلما رشح نفسه .

ودراسة الدكتور الفقى ، فيها من الرصانة العلمية ما فيها من الاستقامة المنهجية ما فيها من التواضع الجم لباحث يكدح فى جمع مادته واختبارها وتركيبها فى سياقها التاريخى . ثم لا يشير ولو بالتلمح لما اقتضته هذه السلاسة من كد وعناء . ويجد القارئ نفسه مع مكرم عبيد فى خضم السياسة المصرية على مدى ثلاثين عامًا . فيرى زعيمًا يتعامل مع الأحداث والجموع بوصفه المصرى دون غيره . وتتعامل معه الأحداث ويتصدى له الرجال بهذا الوصف الغلاب دون غيره غالبًا والقارئ قد ينسى فى بعض فصول الكتاب ان مكرم قبطى ، أو قد يتذكر ذلك ثم يتنبه الى ان قبطية مكرم لم تكن عنصرًا مؤثرًا فى سلسلة الأفعال السياسية وردودها ، المثبتة فى هذا الكتاب . هكذا كان مكرم . وهكذا كانت استقامة المؤلف فى إثبات وقائع الشخصية المدروسة ، دون اعتساف فى التفسير ولا فى الاستدلال .

وليسمح لى الباحث المحترم ، أن أستغل إستضافته لى فى تقديم هذا الكتاب لأشير الى بعض النقاط . فمن أخطر ما واجه مكرم فى حياته الحزبية . خلافه مع أحمد ماهر والنقراشى فى سنة ١٩٣٧ ، الذى أسفر عن انتصار النحاس ومكرم وخروج من سموا « بالسعديين » من الوفد . ويبدو لى أن واحدًا من أهم أسباب الخلاف ، كان يتعلق بالخط السياسى الذى رأى كل من الطرفين اتباعه بعد ابرام معاهدة ١٩٣٦ . يلحظ ذلك على وجه الخصوص فى أقوال أحمد ماهر وخطبه .

اذ بدأ ماهر يروج لموقف سياسى مؤداه أن إبرام المعاهدة من شأنه أن ينهى سبب الخصومة السياسية التى كانت قد قامت بين فريق سعد زغلول وفريق عدلى يكن فى سنة ١٩٢٢ ، والتى أفضت إلى انشقاق من كونوا حزب الأحرار الدستوريين وقتها . وفى المقابل يظهر من مسلك مصطفى النحاس ومكرم عبيد فيما تلا ذلك من أعوام ، أن معاهدة ١٩٣٦ ، رغم دفاعهما الكبير عنها ، لم يكن لها من التداعيات السياسية لديهما ، مثل ماكان لها لدى أحمد ماهر ، لأن الوفد كان يتوقع من ابرام المعاهدة لا أن يخفض جناحه ازاء خصومه المحليين كالملك والأحرار ، ولكن أن يشد عليهم النكير ، اذ تضمن له المعاهدة تهدئة مع الانجليز لفترة يتفرغ فيها لما يسميه معركته الدستورية التى يسعى فيها لاستيعاب سلطات الملك لصالح المؤسسة النيابية المنتخبة . كما كان يتوقع خلافًا بينه وبين الأحرار حول طريقة تنفيذ المعاهدة وادارة السياسات فى هذه الفترة .

وفضلاً عن هذا السبب السياسى الذى انتصر به النحاس ومكرم على ماهر والنقراشى فى ١٩٣٧ ، فى معركتهم الحزبية فلم يستطع ماهر والنقراشى تحقيق هدفهما الأصلى وهو السيطرة على الوفد من دون مكرم والنحاس ، فضلاً عن ذلك ، فقد كان لدى مكرم سبب خاص يتعزز به فى حزب الوفد أكثر من ماهر إذ كان الأول يفوق الأخير فى قوة روابطه التنظيمية، ووثوق اتصالاته بالحزب رئاسة ورجالاً . وكان بيت مكرم أشبه ما يكون واحدًا من مقار حزب الوفد يؤمه الاعضاء نهارًا وليلاً . وذلك على خلاف ماهر ، الذى كان رغم ذكائه السياسى غير المعتاد ورغم سابقة ممارسته أعمال الفدائيين ، كان قد صار أميل للاهتمام بحياته الخاصة وبمنتديات الصفوة ومجالسهم .

والأخطر فيما واجه مكرم فى حياته الحزبية ، هو خلافه مع مصطفى النحاس وانفصاله عن الوفد فى سنة ١٩٤٢ . وعلى عادة الدكتور الفقى فى هذا الكتاب ، يحتفل للحدث الهام ويوليه مايستحقه من رعاية فى تقصى الأسباب والإحاطة بالعناصر ، ومن ذلك ماهو معروف وصحيح عن دور الملك وأحمد حسنين وغيرهما . ولكن الباحث يضيف إضافتين دلتا على ذكاء المعايشة لوقائع الموضوع واختبار مادته . إذ كان خروج ماهر والنقراشى من الوفد مما اختل به التوازن العضوى فى قيادة الوفد وتحت زعامة النحاس . وقامت الزعامة بتغذية ظهور توازن

جديد بين مكرم وأبي علم والطويل . وهذه ملاحظة دقيقة تتعلق بآليات العمل الزعامى والرئاسى وما يدرج عليه عادة من كفالة قدر من التوازن فى المستوى الأدنى ، وألا يكون لجهة واحدة أو فرد واحد من شمول النفوذ ما يستوعب الدور الزعامى أو الرئاسى . ثم يشير الباحث إلى دور أمين عثمان فى توسيع شقة الخلاف بين النحاس ومكرم . وإذا كانت صلة امين عثمان بالسفير البريطانى معروفة . فان هذه الأشارة تثير فى اذهاننا مدى الاسهام البريطانى فى توسيع شقة الخلاف إضعافًا للوفد الذى حالفه البريطانيون أنفسهم فى ٤ فبراير ١٩٤٢ ضد الملك .

على أنه رغم غواية الملك لمكرم فى هذا الانشقاق ، حتى صار صنيع مكرم فى السنين القليلة التالية أحد معاول هدم الوفد كله . فالذى يذكر لهذا السياسى الكبير ، أنه فيما عدا هذا الصنيع ، لم يحد عن جوهر مواقفه الوطنية ولا عن الخط الوطنى السياسى الذى كان يلتزمه إبان توليه أمانة الوفد . لقد شارك السعديين والأحرار فى وزارة ١٩٤٤ ، ولكنه مالبث فى ١٩٤٦ أن خرج من الوزارة ومن الوفد الرسمى الذى كان قد شكل لمفاوضة الإنجليز . رافضا ما رضى به آخرون من مساومات تتعلق بالجلاء والدفاع المشترك . كما يذكر لمكرم ، وهو السياسى المصرى القبطى ، أنه كان من أكثر قيادات الوفد تفهما « للوضع العربى » لمصر منذ الثلاثينات . ومع التسليم طبعا بالصبغة العلمانية للوفد ولمكرم . فلعل مكرم كان يبذ آخرين فى قيادة الوفد مثل أحمد ماهر . فى إدراك أهمية المكون الإسلامى فى الوطنية المصرية .

نقطة أخرى وأخيرة ، إذ يبدو لى من هذه الدراسة أن العلمانية هى الوعاء اللازم لتقرير المساواة بين المسلمين والأقباط فى المواطنة . وأن التناسب طردى فى هذا المجال . وهى نظرة مستفادة مما جرى عليه جيل الوطنية المصرية لثورة ١٩١٩ . ولكن ثمة جانب آخر أرجو ألا نغفل عنه . وهو أن هذه التجربة قد أفادت ومن شأنها أن تفيد فى ضرب نطاق من العزلة على التيار السياسى الأسلامى ، الذى يرى فى العلمانية ما يتنافى مع مبادئه وعقيدته . وهى نظرة تضع هذا التيار فى حرج بين الهدف المنشود من تقرير المساوة بين المواطنين وإن اختلفت أديانهم . وبين إسلاميته السياسية . التى يستمد منها بعضًا من معانى الهوية والانتماء للجماعة وتاريخها . معنى يتغذى بها انتماؤه لمصريته وعروبته .

وإن العلمانية التى توضع كجامع للمسلمين والأقباط تفصم جامعًا آخرًا بين تيار

الوطنية المصرية والعربية ، وبين التيار الأسلامى . وبها نكون فصمنا جاعتنا من حيث اردنا توحيدها . وتجربة الثلاثينات وما بعدها شاهد على ذلك . وأتصور من جهة اخرى أن تحقيق المساواة والمشاركة بين المسلمين والأقباط ، يكون أوضح وأجمع عليه من الكافة عندما يرد مدعوما باجتهادات المجتهدين فى الفكر الأسلامى وفقهه . لا أن يأتى فى ثوب العلمانية المجحود من هذا الفكر وتياره السياسى وعلى حسابه . وأن تنوع مدارس الفقه الاسلامى وغزارة تجاربه وتراثه ، لهو أرحب من أن يضيق عن استيعاب هذه المنافع .

اهنئ الصديق الباحث على جهده القيم النافع . ونتوقع منه بإذن الله دوام التوفيق والعمل المثمر الخصب لأمته .

طارق البشرى

كلمة

تحتل الدراسات المتصلة بالوحدة الوطنية والاندماج القومى أهمية متزايدة على خريطة البحث فى العلوم الاجتماعية لأسباب تتصل بالاستقرار السياسى لعدد كبير من دول العالم الثالث ، ولدينا فى مصر درجة عالية من الانصهار القومى وتاريخ متميز فى الوحدة الوطنية ، ولقد أغرانى ذلك التصور بأن أتقدم برسالتى للدكتوراة إلى جامعة لندن (والتى حصلت عليها عام ١٩٧٧) عن الأقباط فى السياسة المصرية متخذا من السياسى المصرى مكرم عبيد نموذجا تمضى من خلاله الدراسة عبر مرحلة هامة من تاريخ مصر السياسى فى فترة ما بين الثورتين ١٩ ـ ١٩٥٢ .

ولقد رأيت أن أترجم الرسالة إلى اللغة العربية حتى تصل إلى يد القارئ المصرى الذى يهمه ذلك الموضوع بالدرجة الأولى ، وقد حذفت من الترجمة العربية للرسالة بعض اجزائها لأنها مرتبطة بالجانب الأكاديمى للبحث الجامعى ، وقد لا تكون لها ذات الأهمية عند نشرها فى كتاب ، كما رأيت أيضا ألا ضرورة لنشر قائمة المراجع والمصادر التى استعنت بها فى أعداد الرسالة مكتفيا بذكر بعضها فى هوامش الكتاب .

ولا يفوتنى أن أذكر أن الرسالة التى أعددتها والتى يحوى هذا الكتاب معظم أجزائها قد اكتملت بأشراف البروفسور فاتيكيوتس, أستاذ العلوم السياسية الشهير فى جامعة لندن واحد كبار المتخصصين فى شئون الشرق الأوسط مع إهتمام خاص بما يتصل بالتاريخ السياسى المصرى المعاصر . كما أننى أشيد بالجهود التى بذلها الاستاذ طارق البشرى فى اعطاء دراسات الوحدة الوطنية المصرية دفعة واضحة فى السنوات الأخيرة على نحو أثرت به المكتبة العربية التى نقدم لها هذا الكتاب فى تواضع ليكون اضافة محدودة إلى جانب دراسات متعمقة سبقت إلى البحث فى هذا الموضوع المتميز ، وقد تفضل المستشار طارق البشرى فقدم لهذا الكتاب فى سطور تعطيه قيمة أكثر لأنها جاءت من مؤرخ باحث اقتحم ميدان التاريخ السياسى من باب الشغف والهواية فتفوق على كثيرين ممن تخصصوا فيه وتفرغوا له .

د . مصطفى الفقى

مقدمة

تبلورت أهداف الحركة الوطنية المصرية الحديثة ـ على الرغم من الإختلافات بين الأحزاب السياسية والقوى الأجتماعية قبل عام ١٩٥٢ ـ فى هدفين رئيسيين هما الاستقلال والدستور .

ونظرًا للتباين الشديد فى وجهات نظر أولئك الذين تناولوا فترة ما بين الثورتين ١٩ ـ ١٩٥٢ بالدراسة فإننا سوف نتخذ تلك الفترة لتكون بمثابة الوعاء التاريخى الذى يتحرك فى إطاره موضوع هذا الكتاب . إذ كانت الأحزاب السياسية نشطة وفعالة فى مسعاها من أجل الاستقلال والدستور وكذلك كانت ظروف الحياة السياسية فى مصر خلال تلك الفترة خاضعة للتأثير المتبادل والنفوذ المختلف للمحاور الرئيسية على مسرح الحياة السياسية فى مصر حينذاك وهى القصر الملكى وسلطة الاحتلال البريطانى والأحزاب السياسية وإن أختلفت أحجام شعبيتها وفعالية سياساتها .

وتميز بين *المواقف الوطنية للحركة الشعبية المصرية* فى ١٩١٩ وما بعدها دور الأقباط فيها واستمرار ذلك الدور من خلال موقعهم فى حزب الأغلبية . حزب الوفد . كتعبير عن إسهامهم الذى لم ينقطع فى الحركة الوطنية المصرية . ويمثل بالنسبة لنا الدور السياسى لمكرم عبيد ـ من بين الزعماء الآخرين سواء الأقباط منهم أو المسلمين ـ جاذبية خاصة ومدعاة لإهتمام متميز إذ كان مكرم عبيد نموذجًا يمكن التركيز عليه لدراسة دور الأقباط فى الحركة الوطنية المصرية ومتابعة ذلك الدور من خلال المسيرة السياسية لمكرم عبيد الذى أستمر نشاطه السياسى دون توقف على امتداد الفترة من ١٩١٩ إلى ١٩٥٢ كما كان مكرم عبيد هو السكرتير العام لحزب الأغلبية لفترة أمتدت قرابة خمسة عشر عامًا . فقد بدأ دوره المرموق فى الحركة الوطنية كواحد من مؤيدى زعيم الثورة الشعبية فى ١٩١٩ . سعد زغلول . وقد اعتمد مكرم عبيد فى الوصول إلى مكانة خاصة ولون متميز بين السياسيين فى تلك الفترة على تمتعه بمعظم المؤهلات والمواهب التقليدية التى اتصف بها السياسيون المصريون فى وقته . فكانت لديه القدرة ـ وهو الخطيب البارع والكاتب المجيد على التأثير فى الرأى العام وتحريك مشاعر الجماهير كما أبدى حذقا وبراعة عظميين فى مناورات الحياة السياسية .

ويعتبر مكرم عبيد ـ فى تكوين شخصيته ومسارحياته السياسية ـ تجسيدا حقيقيًا لفكر ومشاعر وطموحات فرد ينتمى إلى أقلية دينية هى جزء لا يتجزء من وطن ينتمى إليه بالدرجة الأولى ولعل ذلك يفسر اندفاعه وتطلعه للقيام بدور سياسى مؤثر على المستوى الوطنى كله . كذلك فأن حياة مكرم عبيد السياسية تعد انعكاسًا حقيقيًا لواحد من افرازات الفترة التى تمتعت فيها مصر بنصيب كبير من الأفكار الليبرالية والعلمانية والتى أعطت للحركة الوطنية ـ خاصة فى سنواتها الأولى ـ شخصية متميزة باحتوائها للمسلمين والأقباط معا وتقديمها حلا عمليا وتجربة تاريخية فيما يتصل بقضية الأقليات عمومًا . لذلك فإن مكرم عبيد يمثل أحد الظواهر التى نشأت فى ظل المناخ الليبرالى العلمانى الذى عرفته مصر الحديثه .

وليس من شك فى أن التغييرات الكبيرة والتطور الراديكالى الذى طرأ على النظام السياسى وانعكس على الجو الأجتماعى منذ ولاية محمد على الكبير وربما قبل ذلك ببضع سنين وبالتحديد منذ وصول الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت . إن هذه التطورات قد صنعت مناخًا سياسيا واجتماعيًا هو بمثابة الميلاد الحقيقى لمصر الحديثة ولولا ذلك ما كان يمكن أن ينطلق التيار الوطنى الليبرالى الذى يعتبر مكرم عبيد واحدا من نتائج وجوده. كذلك فإن مكرم عبيد أيضا هو انعكاس صادق للروح القومية والحيوية التى دبت فى الحركة الوطنية بزعامة سعد زغلول . ولقد تميزت روح تلك الفترة بوضوح فكر سياسى مصرى خالص متحرر من أية مؤثرات دينية وغير مرتبط بأية قوى خارجية وملتزم باستقلال مصر الكامل. وعلى ذلك فإنه يمكن القول أن سعد زغلول قد سعى إلى إيجاد حشد ضخم من أبناء مصر المؤهلين لقيادة الحركة الوطنية ـ بغض النظر عن جذورهم الأجتماعية أو انتماءاتهم الطائفية ـ مكتفيا بأيمانهم بأمة مصرية واحدة تسعى إلى تحقيق الاستقلال والوصول إلى حكم الدستور. وبذلك تختلف الروح الزغلولية فى جوهرها عن فكر الحزب الوطنى وحزب الأمة اللذين سبقاه. لأن الأول قام على أساس التسليم بالارتباط بين مصر المستقلة والخليفة أمير المؤمنين لذلك لقى فى الاساس تشجيعًا من عاصمة الخلافة العثمانية بينما كان الثانى تعبيرًا سياسيًا عن صفوة من المصريين وملاك الأراضى ذوى الملكيات الزراعية المتوسطة بالأضافة إلى بعض المثقفين والذين حصلوا درجات علمية من الخارج من أبناء العائلات الريفية وأعيان البلاد .

وقد جذبت التوجهات الوطنية الخالصة التى انتهجها سعد زغلول الأقلية القبطية إليه ومكنتها ـ ربما لأول مرة ـ من أن تصبح عنصرا فعالا فى الحياة العامة المصرية والمشاركة فى صنع الأحداث السياسية لتلك الفترة .

ويهمنى أن أوضح أن الأهتمام بالجانب الدينى فى هذا الكتاب لا ينصرف إلى المعتقدات الروحية ولكنه يهتم بها فقط من حيث هى أسلوب حياة ونموذج ثقافه يؤدى إلى تركيب فكرى معين وخلفية بذاتها تبدو واضحة فى تفاعلها واستجابتها وردود فعلها للآراء المختلفة والأحداث المتعددة ، كما أنها تتدخل فى تحديد شكل العلاقة بين الفرد ومجتمعه فى مواجهة السلطة القائمة .

وهكذا فأن هذه الدراسة سوف تبحث فى عدة عناصر بعضها سياسى والبعض الأخر اجتماعى أو دينى كما أن هذا البحث لا يعتبر تأريخا للأحداث على الرغم من أن التاريخ هو الذى يقدم خلفية الحقائق ومادة الأحداث .

أنها محاولة لتتبع دور الأقباط فى الحياة السياسية المصرية من خلال متابعة السياسى المصرى القبطى مكرم عبيد عبر مسيرة من العمل الوطنى والحزبى تمتد لقرابة ثلاثين عاما. كما أنها تسعى لدراسة دوره البارز فى الحركة الوطنية والذى أقترن بطموح فردى عظيم والتزم بالظروف المحيطة به وتجاوز حدود طائفته ليكون تعبيرا عن الوجود الشعبى للأقباط فى الحركة الوطنية المصرية الحديثة .

الفصل الأول

الأقباط :
نظرة عبر التاريخ

الأقباط :
نظرة عبر التاريخ

نشأ تعبير « القبطى » من الكلمة العربية « قبط » التى هى بدورها مجرد مصطلح مختصر للكلمة اليونانية ايجيبتوس (المصرى) Agyptios .

لذلك ، فإن تعبير « الكنيسة القبطية » يعنى « الكنيسة المصرية » . و هو ينطبق على الكنيسة التى قام بانشائها ـ طبقا للتقاليد والنواميس ـ القديس مارك المبشر ـ st . Mark The Evangelist فى الإسكندرية ، حيث استشهد فى ٢٥ ابريل سنة ٦٣ ميلادية . وقد مضت قرابة المائة عام أو نحو ذلك ، وحتى عصر البطريرك ديمتريوس ، سنة ١٨٩ ميلادية . ولا نكاد نعرف عن أولئك الذين شغلوا عرش القديس مارك ، سوى اسمائهم[١] .

وفى القرن الخامس ، لعبت الكنيسة المصرية ـ فى ظل القديس سريال st . CYRIL بطريرك الأسكندرية ـ دورًا هامًا فى المجادلات التى شغلت الكنيسة فى ذلك الوقت[٢] .

وقد دارت تلك المجادلات ـ بصفة خاصة ـ حول الخلاف بين الأرثوذكس والكاثوليك ، اذ بينما الارثوذكس يؤمنون بأن الروح البشرية (الإنسانية) للمسيح مندمجة مع طبيعته وجوهره المقدس ، يؤمن الكاثوليك ، بأن المسيح كان يمتلك الروح الإنسانية بينما كان على الأرض ، وأنه دخل جوهره المقدس فقط ، عندما صعد إلى السماء ، بعد أن تم صلبه[٣] .

وكان القديس ديوسكوروس ـ بطريرك الأسكندرية ـ هو الذى قاد الأساقفة المحتشدين لاتخاذ قرار حرمان القديس ليو ـ بابا روما ـ وعزل القديس فليفيان من الكرسى الأسقفى فى القسطنطينية[٤] .

---

1) O.H. Khs. Burmester, **The Egyptian Coptic Church**, cairo, 1967, p. 1.

(2) Ibid., p. 2.

(٣) سلامه موسى (**تربية سلامه موسى**) ـ القاهرة ١٩٥٧ ـ ص ٩٦ .

(4) K.M. French, **The Modern Orthodox Church**, London, 1957 - p. 32.

وبعد ذلك بعامين ، اثيرت مسألة طبيعة المسيح مرة أخرى فى المجمع المسكونى الذى عقد سنة ٤٥١ ميلادية . ودافعت الكنيسة المصرية ، تحت زعامة بطريركها ، القديس «سريال» عن الفيزيائية الواحدة المجسدة لكلمة الله ، معطية لتعبير «الفيزيائى» ، معناه الأولى الأساسى (الطبيعة) ، بينما الكرسى الأسقفى (الأبرشية) القسطنطينية ، أقرت بالعقيدة التى أعلنها القديس ليو . بابا روما ، أى ، أن «الله الحقيق ولد بالطبيعة الكامله والمثالية لإنسان طبيعى ، مثالى فى طبيعته الخاصة (الوهيته) ، ومثالى فى طبيعتنا (البشرية الإنسانية)[٥] .

وكان الأنشقاق بين الكنيسة المصرية والكنيستين اليونانية واللاتينية كاملا فى ذلك الوقت ، وأيدت وتمسكت الكنيسة المصرية ، الوفية المخلصة لما آمنت بأنه تعاليم القديس سريال ، فيما يتعلق بطبيعة يسوع المسيح[٦] .

وهكذا ظهرت إلى الوجود مجموعتان من البابوات وبطاركة الأسكندرية أحداهما تمثل الكنيسة المصرية القائلة بأن للمسيح طبيعة واحدة . والأخرى ، الكنيسة الأورثوذكسية اليونانية فى مصر التى تم تقليصها ــ بعد الفتح الإسلامى لمصر ــ إلى كنيسة غير ذات أهمية . وكان بطاركتها يقيمون ، بصورة طبيعية ، فى القسطنطينية ، وكان يمثلهم فى مصر patriarchal-Vicaro[٧] .

ومن ذلك الوقت وحتى الفتح الإسلامى لمصر ، كانت البلاد مسرحا لمذابح دموية ، واراقة دماء ، ونزاع واضطهاد ، ناتج عن السياسة المعوجة وطغيان أباطرة القسطنطينية ، الذين حاولوا فرض النظرية اللاهوتية الخاصة بالمجمع المسكونى ، بالقوة على تابعيهم غير اليونانيين ، الذين كانوا مؤمنين بصلابة ، بأن للمسيح طبيعة واحدة ، بهدف أن يضمنوا بذلك وحدة الأمبراطورية وبقصد استمالة المسيحيين المصريين واسترضائهم ، أقدم الامبراطور هيراكليوس فى سنة ٦٣١ ميلادية ، على تعيين سايروس ليكون بطريرك الأسكندرية وكان سايروس قد اعتنق مبدأ التوحيد وآمن به ، لكنه عندما لم يمكنه استمالة المسيحيين المصريين واستهوائهم بسبب مسألة التوحيد ، باشر حملة اضطهاد عنيفة ضارية ، كان لها نتائج مصيرية بالنسبة لوحدة الأمبراطورية[٨] .

وفى عام ٦٤٠ ميلادية ، فتح عمرو بن العاص مصر والحق الهزيمة بقوات الامبراطورية فى

---

(5) O.H. Khs- Burmester, Op. cit, p. 3.

(6) Ibid.,p.4.

(7) H.I. Bell, Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest. Oxford. 1948, p. 115.

(8) Ibid., p. 131.

معركة هيليوبوليس . وفى السنة التالية استسلمت قلعة بابل . وعندما لم تصل مساعدة من القسطنطينية . جلت القوات الأمبراطورية عن الاسكندرية بعد عقد معاهدة . وأخرت عن المدينة فى ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢ ميلادية .

والكنيسة القبطية ، تعتبر تجميعا زمنيًا حيا للأشكال القديمة للنصرانية[٩] ، مما يؤيد ويدعم فكرة أن الكنيسة القبطية ، كنيسة أصيلة ذات طابع كلاسيكى ، والجانب الروحى للأقباط يظهر فى تعاليم العقيدة الأرثوذكسية . فمنذ البداية والأقباط الارثوذكس يتمسكون بمذهب الوحدة الطبيعية والتوحيد ، أى . طبيعة وجوهر واحد وأرادة واحدة للسيد المسيح ، ويؤمن قانون العقيدة القبطية بالثالوث المقدس Trinity ، لكن التوحيد غير المقسم هو السائد والمهيمن فى عقيدتهم ، وتلك أمور قد يتم اعتبارها مسائل ثانوية غير ذات أهمية الآن ، لكنها تسببت فى العصور القديمة فى نشوب حروب ، وموجات اضطهاد فيما بين الجماعات المختلفة وتعتبر الكنيسة القبطية فى الجانب المحافظ للكنيسة المسيحية ككل . وتشتهر بشخصيتها المتحفظة ، مع النفور الواضح من التغيير .

ومنذ الفتح العربى لمصر المسيحية ، وسكان مصر يتكونون من عنصرين رئيسيين : المسلمون والأقباط ، ويشكل الأخيرون الآن حوالى ١٠ ٪ من المجموع الكلى للسكان ، ويوجد هناك ــ بالطبع ــ أقليات صغيرة جدا من المسيحيين غير الأقباط واليهود ودراسة تاريخ مصر المسلمة منذ الفتح العربى توضح أن سياسة الطبقة المسلمة الحاكمة تجاه الأقباط لم تكن مستقرة ، وبالتالى كانت السياسات والاتجاهات والقرارات معرضة للتغيير ، فى أحوال كثيرة ، طبقًا للطبيعة الشخصية والمزاج السياسى للحاكم ،[١٠] وقد حكمت مصر بحاكم كان يتم تعيينه فى البداية من الخلفاء الراشدين بعد الفتح الاسلامى حتى عام ٦٦١ ، ثم عن طريق الخلفاء الأمويين حتى عام ٧٥٠ ، ثم بواسطة الخلفاء العباسيين بعد ذلك . ثم الخلفاء الفاطميين الذين أقاموا نظام حكم مباشر لحوالى قرنين من الزمان (٩٦٩ ــ ١١٦٩) .

وقد خضعت معاملة أهل الذمة فى مصر ــ قبل الفاطميين ــ للتقلبات السياسية والاقتصادية التى مرت بها الدولة ، وكانت معاملة بعض الحكام للأقليات خشنة وقاسية إلى أن حدثت التغيرات

---

(9) H. Shenouda, Who are the Copts? Cairo, 1965 pp. 22 - 23.

(١٠) جاك تاجر ، أقباط ومسلمون ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ٦٣ .

الواضحة تحت حكم الفاطميين الشيعيين ، لأنهم . كانوا ـ إلى حد بعيد ـ مستقلين عن الدولة السنية فى بغداد . حيث نشأت بينهما علاقة منافسة سياسية ودينية ، ولم يكن فى أمكان الفاطميين ـ طبقا لذلك ـ الاعتماد على تأييد المسلمين السنيين فى مصر ، مما يفسر النفوذ المتزايد للعناصر غير المسلمة فى العصر الفاطمى .

وعين الحكام الفاطميون عددا من غير المسلمين لتولى مناصب هامة فى الدولة . ومستشارين ووزراء . وهذه الفترة من تاريخ مصر الإسلامى حافلة بالأحداث المتعلقة بمعاملة الدولة لأهل الذمة . كما أنها شهدت تطورات كثيرة فى هذا المجال ، وكان لكل حاكم فاطمى سياسته الخاصه فى التعامل مع الأقليات . ففى حين كان كثير من الخلفاء متسامحين جدا ، وواسعى الأفق بصورة كبيرة ، كان الآخرون شديدى التعصب ومتحيزين . يتخذون اجراءات عنيفة وقاسية ضد الأقليات بدون أى سبب قوى ومقنع . ومثال ذلك الحاكم بأمر الله فى بعض أطوار حكمه .

ومع ذلك ، فهناك نقطة هامة . تبرز من أية دراسة عن الأقليات فى تاريخ مصر الإسلامية . فعاملة الحكام لهم . كانت تحكمها ـ فى الدرجة الأولى ـ حاجة هؤلاء الحكام للأموال بسبب نفقاتهم المتزايده . ومن أجل الحصول على ذلك ، اضطروا إلى تنفيذ سياساتهم لجمع الضرائب أو «الجزية» . ولم تقاس الأقليات غير المسلمة . فى الأساس . بسبب التحيز الدينى فقط ، ولكن من الضغوط المالية كذلك . وكان الفاطميون فى مصر يطمحون لتوسيع نطاق دولتهم ودعم هيبتهم . ويهتمون ببناء المساجد والقصور ، والعيش بأسلوب مسرف . لجعل القاهرة مركز جذب للمسلمين بدلا من بغداد . عاصمة الدولة العباسية . وكانوا فى حاجة دائمة للمال . وبالتالى يحتاجون إلى نظام ادارى قوى لجمع الضرائب . وتطوير وتنمية المصادر المالية للدولة . وأثبت الأقباط أنهم قادرون على تولى تلك المهام ، وعلى استعداد للوفاء بها بكفاءة . وعندما فقد الفاطميون كل الأمل فى جذب السنيين إلى جانبهم . وتأكدوا من امكانية الاعتماد على الأقباط والتعويل عليهم وقدرتهم فى تدوين الحسابات ووسائل جباية الضرائب . اظهروا امتنانهم لهم بالتسامح تجاههم ، وتحسين أسلوب التعامل معهم[١١] .

ويبرز غموض بعض النقاط المتعلقة بوضع الأقباط فى الدولة الفاطمية . من بعض الشائعات المسجلة فى التاريخ القبطى . ومثال ذلك ما يشاع من أن الخليفة الفاطمى الأول . المعز لدين

(١١) جاك تاجر ـ المرجع السابق ـ ص١٥١ .

الله ، أرتد عن الإسلام وأعتنق المسيحية ، وتخلى عن العرش قبل وفاته ، وأن الحاكم بأمر الله ، الذى يشاع أيضا أن أمه قبطية ، أختفى بعد أن أمضى الشهور الأخيرة من حياته مع الأساقفة ، وأنه كان يعيد بناء الأديرة والكنائس[١٢] وباختصار ، يعتبر وضع الأقباط تحت حكم الخلفاء الفاطميين نقطة تحول فى تاريخهم .

وأثناء الحروب الصليبية ، أظهر الأقباط ، تحت حكم العباسيين ، قليلا من الحماس للأوروبيين ، بل أنهم ـ على العكس من ذلك ـ أعتبروا هزيمة الصليبيين عقابا من الرب بسبب هرطقة الكنيسة الغربية[١٣] . بل أنهم رفضوا ادعاء الصليبيين بأنهم أنما كانوا يحاولون حماية الأقليات المسيحية ، والأقباط من بينهم[١٤] وقد كان الأقباط مرتبطين ـ بصورة طبيعية ـ ومتعلقين بشدة بأصلهم وجذورهم القديمة طوال تقلبات التاريخ الإسلامى ، ولم يفكروا فى الفرار من البلاد ، على الرغم من العنف الطارئ والمعاملة الجائرة التى عاملهم بها بعض الحكام حين كانت سطوة الحاكم المستبد تشمل المصريين جميعًا اقباطًا ومسلمين .

وكان وضع الأقباط ـ أثناء الحروب الصليبية ـ حرجًا بسبب الخاصية الدينية للصدام ، والاشتباه فى الولاء والشكوك التى سادت الدولة الإسلامية تجاه الأقليات فى تلك الفترة ، وعلى الرغم من حقيقة أن الكنيسة القبطية لا تربطها صلات دينية قوية بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وأن الأقباط لم يرحبوا بالصليبيين ، فإن بعض الأقباط قد راود تهم فكرة التعاون مع الصليبيين لأعادة أحياء دولة مسيحية فى مصر ، وقد خلفت الحرب الصليبية وراءها حساسية تاريخية بين الإسلام والمسيحية على الرغم من أنها كانت بداية الصلة الثقافية والانفتاح الحضارى بين الشرق والغرب .

ولم يتمتع الأقباط ـ تحت حكم المماليك (١٢٥٠ ـ ١٥١٧) ـ فى الحياة العامة بالامتيازات التى كانوا يتمتعون بها أثناء العصر الفاطمى ، وبالتالى فإنه يمكن أن نقرر بأن أحوالهم قد تدهورت ، وأنها لم تكن مستقرة وهادئة أثناء القرون الستة التى سبقت حملة نابليون ، ولكن لم تقع أحداث هامة ـ فيما عدا سياسة العزلة التى فرضها عدد من الحكام على الأقباط لاقصائهم عن الحياة العامة ـ ولقصر نشاطهم على مجال جمع الضرائب والنشاطات المالية وأعمال الحسابات

(١٢) جاك تاجر ـ المرجع السابق ـ ص ـ ١٥٢ (للطائفة الدرزية تفسير مختلف لنهاية الحاكم بأمر الله) .

(١٣) جاك تاجر ـ المرجع السابق ـ ص ١٧١ .

(١٤) انظر أيضا حديث الأنبا شنوده ـ رئيس الكنيسة القبطية (الأهرام ـ ٩ فبراير ١٩٧٧) .

بسبب شهرتهم الخاصة فى المهام المالية وبعض المناصب التنفيذية .

وأصبحت مصر ، سنة ١٥١٧ ، ولاية خاضعة للامبراطوية العثمانية تحت حكم السلطان سليم الأول الذى بعث إلى استانبول بعدة آلاف من أمهر المصريين فى كل المهن والحرف ، كان من بينهم عدد كبير من الأقباط [١٥] وكانت أحوال الأقباط تحت الحكم العثمانى خاضعة للسياسات المتنوعة لمندوبى السلطان فى القاهرة ، فقد كانوا – على سبيل المثال – مطمئنين فى ظل حاكم قوى هو على بك الكبير ، لكن حكاما آخرين قد طالبوا بمزيد من الأموال بأصدار قوانين ضرائبية جديدة خلقت معاناة عامة لدى الشعب المصرى ، نال الأقباط جزءا منها بحكم تميز وضعهم المادى بالنسبة لباقى المصريين فى ذلك الوقت ويمكن ذكر عدد من الشخصيات البارزة من بين الأقباط الذين لعبوا دورا فى الحياة العامة ، قبل ظهور مصر الحديثة ، مثل المعلم رزق الذى كان رئيسا للكتبة الأقباط تحت حكم على بك الكبير . وقد خلفه – بعد وفاته – المعلم إبراهيم الجوهرى [١٦] .

وقد تميز موقف الأقباط من الحملة الفرنسية برد فعل متحفظ تجاه سياسة نابليون ، فقد وصل إلى مصر ، مرددا الادعاء أنه قد قدم لمساعدة المسلمين ضد المماليك وتخليصهم من ظلمهم ، لأنه يحترم الإسلام كدين ، وكحقيقة تاريخية ، وقد أتهم الأقباط الفرنسيين بأنهم كانوا يبغون التخلص منهم ، بالكف عن الأعتماد عليهم فى جمع الضرائب . ويبرر الكتاب الأقباط – الذين عالجوا ودرسوا تلك الفترة – نقدهم لسياسة نابليون ، مثلما يشكو ميخائيل فى كتابه قائلا :

« لقد جاء نابليون فى ١٧٩٨ إلى مصر غازيا ومعلنا نفسه فى الوقت ذاته حاميا للإسلام مدافعا عنه » [١٧] .

وبعد ثورة القاهرة ضد الفرنسيين ، تغير موقف الفرنسيين من الأقباط ، كمحاولة منهم لكسبهم إلى جانبهم ، وعندما طلب ثوار القاهرة الأمن والسلام ، وافق كليبر على طلبهم ، لكنه قرر فرض ضريبة أضافية على جميع السكان ، باستثناء الأقباط والسكان غير المسلمين الآخرين [١٨] وهناك نقطة هامة ، لم يتم حتى الآن دراستها بصورة مرضية : وهى التى تتعلق

(١٥) ابن أياس – (بدائع الزهور فى وقائع الدهور) – القاهرة – ١٣١١ هـ ، مجلد ٣ ، ص ١٤٩ .

(١٦) الجبرتى أورد ذكر وفاة المعلم الجوهرى ، وعبر عن تقديره له ، ووصف جنازته فى ١٧٩٧ فى كتابة (عجائب الآثار فى التراجم الأخبار) الذى نشر فى القاهرة ، ١٣٢٢ هـ .

(17) K. Mikhail, Copts and Moslems under British Control, London, 1911, p. 10.

(١٨) نقولا ترك (تاريخ الحملة الفرنسية) – القاهرة – بدون تاريخ – ص ٨٩ ، ٩٠ .

بالتعاون العسكرى بين الأقباط والغزاة الفرنسيين ، والمعروفه باسم «حركة الجنرال يعقوب» أو الفيلق القبطى ، حيث تعاونت مجموعة من شباب الأقباط بقيادة المعلم يعقوب مع الفرنسيين إلى حد أن اتخذوا لأنفسهم زيا عسكريا مماثلا للزى العسكرى الفرنسى[١٩] ولكن معظم الأقباط عارضوا سياسة الجنرال يعقوب ، وأدانوها فى مناسبات كثيرة ، كما أن الجنرال يعقوب لم يكن على علاقات طيبة مع البطريركية القبطية حتى لقد أشيع أنه دخل يوما الكنيسة ممتطيا جواده شاهرا سيفه[٢٠] ومن ناحية أخرى ، يرى عدد من الكتاب الأقباط فى حركة الجنرال يعقوب ، اسلوبا وطنيا من نوع خاص ، وينظرون إلى محاولة يعقوب باعتبارها المحاولة المصرية الأولى من أجل تحقيق الاستقلال عن السيادة التركية[٢١]

ويعتبر القرن التاسع عشر ، ومجئ الحملة الفرنسية إلى مصر مرحلة انتقال من أوضاع القرون الوسطى فى الفكر والسياسة إلى بداية دولة عصرية فى مجال الزراعة والصناعة والإدارة الحديثة ، وفى مجال التعليم أيضا بحيث يمكن أعتبارها المولد الحقيقى للقومية المصرية ، وتحديد شخصية المجتمع المصرى الحديث ولما كان محمد على يسعى إلى الأستقلال عن الامبراطورية العثمانية فقد أولى الشخصية المصرية أهتمامه ، وشجع ارهاصات القومية المصرية التى كانت فى الواقع ميلاد الدولة العلمانية فى مصر الحديثة ويقدر ما حاول محمد على الأعتماد على العنصر المصرى فى مشروعات وخطط دولته من أجل خلق الدولة العصرية ، فقد تأثرت سياسته تجاه الأقباط بصورة متوازية ، مثال ذلك أنه لم يرفض قط أى طلب من أجل بناء كنيسة جديدة[٢٢] . وكان أول حاكم ينعم بلقب بك على قبطى ، كما أنه منح الأقباط ـ علاوة على ذلك ـ جميع التسهيلات الضرورية للحج إلى الأراضى المقدسة .

وعندما تولى سعيد باشا السلطة فى البلاد ، اعتمد سياسة تقوم على الأعتماد أكثر على العنصر المصرى ، وخاصة «الفلاحين» ، وهيأ لهم فرص تولى مناصب فى الحكومة والترقى بالجيش ،

---

(١٩) الجبرتى ـ (مرجع سابق) ـ المجلد ٣ ، ص ١٦٢ .

(٢٠) طارق البشرى ، «أحمد والمسيح» ـ مقالات فى مجلة الكاتب ، ـ العدد ١٠٧ ـ القاهرة ـ ١٩٧٠ (انظر أيضا جاك تاجر ـ المصدر نفسه ، ص ٢٢١) .

(٢١) سلامة موسى ، فى مقال له بجريدة «مصر» ، ٢٦ نوفمبر ١٩٤٦ ، لويس عوض ، فى محاضرته بمعهد الدراسات الدبلوماسية ، القاهرة ١٩٦٩ ، ولمزيد من التفاصيل عن الفيلق القبطى بقيادة يعقوب انظر :
O.F.A. Meinardus, christian Egypt, Faith and Life Cairo, 1968, pp. 14-16.

(٢٢) جاك تاجر ، مرجع سابق ، ص ٢٣٢ .

وكان يرغب فى الحد من المشاركة التركية فى جميع المجالات . وازاح ـ فى النهاية ـ العقبة الأخيرة لتوحيد المجتمع المصرى وتحقيق تكامله . عندما قرر السماح للأقباط بالخدمة العسكرية فى الجيش المصرى . والغى ـ فى الوقت نفسه ـ فى سنة ١٨٥٥ ضريبة «الجزية» على غير المسلمين(٢٣) .

وكان المواطنون الأقباط . من ناحيتهم . يعيدون تشكيل منظماتهم وهيئاتهم ويرفعون من أحوالهم بإنشاء المدارس الحديثة . كنتيجة لمشروع إصلاح الطائفة القبطية الذى يرتبط بالبطريرك سريال الرابع (١٨٥٤ ـ ١٨٦١) ، الملقب بأنه «أب الإصلاح» . وقد كان لحركة الإصلاح التى قادها على أنها محاولة لرفع مستوى تعليم رجال الدين الأقباط عموما جذورها فى عصر سابق . ففى سنة ١٨٤٣ . قام عدد قليل من مبعوثى جمعية الكنيسة التبشيرية Church Missionary Sciaty التى كان لها نشاط فعال فى مصر ، بتحويل معهد لاهوتى تعليمى . انشئ سنة ١٨٣٣ . إلى معهد قبطى .

ونظم البطريرك سريال الرابع البطريركية وقسمها إلى ادارتين : تهتم أحداهما بالأوقاف القبطية . والأخرى بالمسائل الدينية والروحية . وأدى سريال بإنشائه مدرسة مجاورة للكاتدرائية . أعظم خدمة وأكثرها بقاء ودواما للأقباط . فقد كان لدى الأقباط ـ قبل ذلك الوقت ـ نظام تعليم بدائى . يقوم على المدارس الريفية الصغيرة المشابهة «للكتاتيب» . فكانت مدرسة سريال (مدرسة الأقباط الكبرى) أول مدرسة تؤدى دورها على أصول وأسس تربوية سليمة(٢٤) .

وجذبت المدرسة عددا متزايدا باستمرار من التلاميذ . ووجد سريال أنه من الضرورى إنشاء مدرسة مماثلة فى منطقة قبطية هى «حارة السقايين» . وتخرج من هاتين المدرستين الكثيرون . وهم الذين كان عليهم أن يلعبوا دورا هاما فى المجتمع القبطى . والمجتمع المصرى ككل مثل بطرس غالى باشا رئيس الوزراء . والسياسى المؤرخ . ميخائيل عبد السيد . مؤسس الصحيفة القبطية «الوطن» . كما أنشأ (سريال) أيضا مدارس للفتيات القبطيات(٢٥) وتطلب هذا النشاط التعليمى ـ بفروعه الدينية والمدنية ـ استخدام الكتب . وكانت المعرفة ـ حتى ذلك الوقت ـ حبيسة مخطوطات مكتوبة بخط اليد باليه ومليئة بالأخطاء . فعالج (سريال) هذا الوضع بأن

(٢٣) جاك تاجر مرجع سابق . ص ٢٣٨ .

(24) S.M. Seikaly, The Copts Under British Rule, 1882 - 1914.Unpublished thesis, London University, 1967, p. 35.

(٢٥) ايريس المصرى ، «تاريخ الكنيسة القبطية» . ١٥١٧ ـ ١٨٧٠ . مجلد ٤ . القاهرة . ١٩٧٥ . ص ٣٤٣ .

استورد أول مطبعة مصرية خالصة . وتم الترحيب بها بإقامة حفل استقبال ديني رسمي . لكن البطريرك لم يتمكن من توجيه الاستفاده بها طويلا بسبب وفاته بعد ذلك بقليل . وترتبط الوفاة المفاجئة للبطريرك سريال فى أذهان الكتاب الأقباط . باستياء سعيد باشا من العلاقة الوثيقة التى كانت تربط ما بين البطريرك ورؤساء الكنائس اليونانية والأرمنية الأورثوذكسية . ولسعيه من أجل تحقيق الوحدة بين الأقباط والفروع المختلفة للكنيسة الأورثوذكسية . ثم تصوير سريال على أنه كان ينوى وضع الكنيسة القبطية تحت الحماية الأجنبية . والروسية بالتحديد . والقول الشائع أن سعيد باشا . قد استاء من ذلك الاتجاه وأمر بقتل سريال بالسم [٢٦] .

وقدم اسماعيل باشا ــ الذى كان يحفزه هدفه لجعل مصر الحديثه قطعة من أوروبا ــ تأييده ودعمه المالى للمدارس القبطية . وعين عددا من القضاة الأقباط فى المحاكم . وأعطى الأقباط سنة ١٨٦٦ الحق فى أن يصبحوا أعضاء فى مجلس شورى النواب . أول برلمانى مصرى . ومنذ ذلك الوقت ظهر إلى الوجود ما يمكن أن يسمى بالأمة المصرية . بالمفهوم الحديث . لتفرق وتميز بين المصريين المسلمين والأقباط . من ناحية . والأجانب الآخرين مثل الأتراك والأرمن من ناحية أخرى [٢٧] . وأنعم إسماعيل باشا ــ على سبيل المثال ــ بلقب الباشوية . على أول مسيحى يحملها وهو الأرمنى نوبار [٢٨] .

وبعد وفاة سريال بعدة سنوات . ساد الفساد مجال النشاطات التعليمية القبطية . وعند وفاة خليفته ديمتريوس . آلت أمور الطائفة القبطية إلى النائب الأسقفى العام . وقامت مجموعة من الأقباط بتكوين «جمعية إصلاح» لمتابعة الإصلاح الطائفى . ومن أجل تحقيق أشراف أفضل على المسائل التى تهم الأقباط. وقدمت الجمعية مذكرة إلى الأسقف مارك اسقف الإسكندرية تطالبه فيها بقيام الكنيسة بمساعدة الفقراء . وتقديم المعونة والدعم للتعليم القبطى وأبدى رجال الدين المسيحى (الاكليروس) الذين كانوا لا يواجهون أى تحد فى ذلك الوقت . قلقا شديدا من هذا الاعتراض . واحتجوا ضده لدى الحكومة . ويبدو أن الحكومة كانت تشعر بقلق ــ إلى حد ما ــ من إنشاء الجمعية . الا أن هذا لم يؤثر فى الأعضاء الذين طالبوا بإنشاء (مجلس ملى) للمساعدة فى تدبير وأدارة الشئون المدنية للأقباط .

---

(26) S.M. Seikaly, op. cit. p. 37.

(٢٧) صبحى وحيده «فى اصول المسألة المصرية» . القاهرة . ١٩٥٠ ــ ص ٢٢٧ .

(٢٨) جاك تاجر . ص ٢٢٧ ، ص ٢٤٢ .

وساند الأسقف مارك بتأييد واستحسان من بعض رجال الدين الاقتراح والتمس من الحكومة ـ طبقا لذلك ـ التعاون لإنشاء المجلس. وقام بكتابة الالتماس شخصية قبطية صاعدة هي بطرس غالى[٢٩] وتضمنت وثيقة الالتماس ، توسلا للخديوى إسماعيل الذى وصفته بأنه راعى ونصير التقدم والحضاره . بأن يوافق على إنشاء المجلس الملى . الذى سوف يساعد رجال الدين فى دفع عجلة الإصلاح فى المجتمع القبطى ، وفى ١٥ فبراير ١٨٧٤ صدر مرسوم خديوى يقضى بإنشاء هذا المجلس الذى تم تكوينه من أثنى عشرة عضوا متتخبين . ومثلهم معينين .

ووقفت الكنيسة القبطية فى وجه النشاطات التبشيرية البروتستينية التى مارسها الأمريكيون والبريطانيون بأقدامها على إنشاء مزيد من المدارس المصرية القبطية . وقد واجهت مصر الحديثة موجتين من البعثات المسيحية الأجنبية فى القرن التاسع عشر أولها كانت من بريطانيا بعد هزيمة نابليون ١٨٢١ . والأخرى من الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٥٤ . وقد نجح الأمريكيون فى استمالة عدد قليل من الأقباط وانشأوا منهم كنيسة مسيحية صغيرة ، وقد واجهت هاتين البعثتين معارضة عنيفة من الكنيسة القبطية التى دافعت بغيرة وحرص عن شخصيتها المتميزة[٣٠] ، ويمكن تبرير موقف الكنيسة القبطية ضد المبشرين المسيحيين الأجانب فى ضوء الاقتناع والإيمان الراسخين لدى الأقباط بأنهم شعب فريد يمتلك تاريخا خاصا . ومع ذلك ، فإن أكثر العوامل أهمية فى تعزيز وتقوية الانطباع الذاتى للأقباط . كان اكتشاف الماضى ، فقد أدى تطور اكتشاف مصر الفرعونية وعملية القاء الضوء على روعة الحضارة المصرية القديمة إلى تجميع شمل الأقباط كى يعثروا على هويتهم الحقيقية كمصريين ذوى تاريخ طويل .

وتتوفر لدينا عن الحياة القبطية ـ أثناء القرن التاسع عشر ـ تفاصيل كثيره تتركز جميعها حول حقيقة أن عملية أضفاء العصرية على الحياة فى مصر وتحديث الدولة والتى بدأت أثناء الحملة الفرنسية . ونمت وتطورت فى عهد محمد على وخلفائه . أثرت بصورة عظيمة على حياة الأقباط ودورهم فى مصر . ومن ذلك أن محمد على عين بعضهم مثل المعلم جرجس الجوهرى والمعلم غالى . فى مناصب حكومية رفيعة . ومنحهم سعيد باشا حق الالتحاق بالخدمة العسكرية . وأصدر «اللائحة السعيدية» الشهيره التى أعطت للفلاحين حق امتلاك الأراضى .

---

(29) S.M. Seikaly, op. cit, p. 42.

(٣٠) د . وليم سليمان «الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار والصهيونية» . القاهرة ١٩٦٩ . ص ٢٣ ـ ٣٢ .

وتظهر دراسات تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة أن الأقباط كان لهم وضع خاص فى ذلك المجال منذ عهد محمد على . فنى أوائل عام ١٨٤٦ امتلك باسيليوس بك ابن المعلم غالى . عددا من الضياع فى الدلتا . كانت مساحة إحداها الفى فدان من الأراضى . وفى عام ١٨٧٠ ورد فى بعض الكتابات ذكر مالك أراضى قبطى كبير أسمه بطرس أغا . كان يمتلك أكثر من الفى فدان بالقرب من جرجا . وكان يربى خيولا وماشيه وأغناما على نطاق واسع .[٣١] واستمر عدد من الأقباط الأثرياء من مصر العليا رؤوس أموالهم فى الأراضى والمزارع فى الدلتا . وهى المنطقة المتطوره المتقدمة فى ذلك الوقت . فامتلك تاجر قبطى هو جرجس اسطفانوس ـ من مصر العليا ـ على سبيل المثال . أكثر من الفى فدان بالقرب من مدينة أجا . وبعض المناطق الأخرى . وقام بتركيب كثير من مضخات الرى على ترعة المنصورية . واشترى محلجا للقطن . ومعصره لقصب السكر . وبنى قصرا تحيطه حديقة فى قريته[٣٢] . وكان عدد من الأقباط من مالكى مضخات الرى فى مصر السفلى (الوجه البحرى) خصوصا فى المنوفية والدقهلية (حوالى ٩ ٪ فى كل منهما) . وعدد أقل إلى حد ما فى الغربية (٢-٤٪) . وفى عام ١٨٩١ كان عدد قليل من العائلات القبطية التى تمتلك ضياعا فى مصر العليا يأتون فى المرتبة الرابعة بين أكثر الجماعات أهمية بالنسبة لمساحة املاكها من الأراضى (بعد الدوله . وعائله محمد على . وطبقة كبار الموظفين) ويركز عدد من الكتب التى صدرت فى بداية القرن الحالى على أهمية الأقباط بصفتهم كبار ملاك أراضى فى مصر العليا[٣٤] . وبالإضافه إلى ملكية الأراضى القبطيه كأفراد توجد أيضا الأوقاف القبطية .

وحيث أن نظام الوقف الإسلامى يسمح لأبناء الطوائف الدينية الأخرى الذين يعيشون فى دول مسلمه (أهل الذمة) بتحديد أوقاف على أغراض يحددونها . ووفقا لذلك قامت بعض الأقليات المسيحية بإنشاء أوقاف لصالح معاهدهم الدينية . فتم وقف مساحات كبيرة لمساعدة البطريركية الأرمنية . وأخرى للكاثوليك اليونانيين . الا أن المنح والأوقاف الضخمة الكبيرة كانت تخص الطائفة المسيحية الرئيسية وهى الأقباط الارثوذكس[٣٥] .

وقد ورد فى تقرير قدمه «المجلس الملى العام للأقباط الأرثوذكس» عام ١٩٠٦ . أن كنائسهم

---

(31) G. Baer, **A History of Landownership in Modern Egypt. 1800 - 1950**, Oxford, 1962, p. 63.
(32) **Ibid**, p.63.
(33) **Ibid**, p. 37.
(34) **Ibid**, p. 37.
(35) **Ibid**, p. 179.

واديرتهم كانت تمتلك حوالى ١٥ ألف فدان من الأراضى . وأن المساحة الكلية للأوقاف القبطية التى كانت تخص الأديرة والبطريركية . بلغت ٣٢ ألف و ١٢٤ فدانا . وأنه لمن الصعب بمكان التوصل إلى تقييم دقيق فيما يتعلق بتطور الأوقاف القبطية. فقد كان هناك صراع مرير تدور رحاه طوال ثمانين عاما بين رجال الدين الأقباط . والرهبان . والمجلس الملى ، حول موضوع إدارة الأوقاف القبطية . وكان أحد الأهداف الواضحة التى من أجلها أنشئ المجلس الملى عام ١٨٧٤ هو أخذ مسئولية إدارة الأوقاف من رجال الدين . الذين كانوا ما يزالون يدبرون شئونه حتى ذلك الوقت[٣٦] .

وقد كان لملكية الأراضى القبطية تأثيرها على دورهم وأهميتهم الأجتماعية فى مصر الحديثة . وبعد ذلك بفترة من الوقت. عين الخديوى إسماعيل أقباطا فى السلك القضائى. وفتح أمامهم الطريق ليصبحوا أعضاء فى البرلمان . وقد ساعدت تلك التطورات الأقباط ـ ربما لأول مرة ـ منذ الفتح الإسلامى العربى . لدخول الحياة العامة . وأن يصبح لهم دور فعال على مسرح الحياة السياسية . ويمكن القول أن محمد على وخلفاءة قد خلصوا الأقباط من بعض مظاهر الماضى . وهيأوا لهم فرصتهم الأولى لابراز دورهم فى الحياة العامة[٣٧] .

ويتعين هنا تأكيد عامل هام يتعلق بتقييم الأقباط فى القرن التاسع عشر . ألا وهو نمو التعليم القبطى . فقد كان للكنيسة القبطية حركة موازية لحركة الإصلاح التعليمى فى الدولة منذ عصر محمد على والتى كان من أبرز روادها رفاعة رافع الطهطاوى وعلى باشا مبارك . وكانا قد تأثرا بالحضارة الغربية . وكانا يعتقدان بأن تقدم مصر يكمن فى طريق واحد . هو تطوير نظام التعليم . وفهم نظام الحياة الأوروبية . وقد ولد رفاعة الطهطاوى سنة ١٨٠١ ودرس فى الأزهر ـ وهو الأساس التعليمى المألوف للمفكرين المصريين من أجل تحصيل الثقافة والمعرفة حتى نهاية القرن التاسع عشر ـ ثم اختير الطهطاوى «إماما» لأول بعثة تعليمية إلى فرنسا سنة ١٨٢٦ . وعاد إلى مصر وهو متأثر بطريقة الحياة المتقدمة فى أوروبا . وبالطابع العصرى فى جميع المجالات . ووصف انطباعاته فى كتابه الشهير «تخليص الابريز فى تلخيص باريز[٣٨]» . وأنشأ مدرسة للغات

(36) **Ibid.** pp. 179 - 180.
(37) K.H. Howrani, **Minorities in the Arab World**, Oxford, 1947. p. 45.

(٣٨) انظر : الشيال . **رفاعة الطهطاوى** (١٨٠١ ـ ١٨٧٣) القاهرة . ١٩٥٨ . ص ٢ .

الأجنبية «مدرسة الألسن» . وأولى اهتماما خاصا لحركة ترجمة الكتب الأوروبية إلى العربية[٣٩] .

ويعرف على مبارك بأنه أبو التعليم. وقد ولد فى سنة ١٨٢٤ وسافر إلى فرنسا فى بعثة تعليمية سنة ١٨٤٤ . وبعد عودته إلى مصر ، أنشأ «مدرسة المهند سخانه» كما تولى تنفيذ برنامج التعليم فى أيام عباس باشا . وفتح مدارس كثيرة بمستويات عدة . وفى مجال تخصصات مختلفة . ونشر كتابه الشهير «الخطط التوفيقية» . كدائرة معارف محليه . وأصبح ناظرا للمعارف سنة ١٨٨٨ . منتهزا تلك الفرصة لمواصلة مجهوداته من أجل الإصلاح التعليمى[٤٠] والطهطاوى ومبارك . هما رائدا إضفاء الطابع العصرى على مصر فى القرن التاسع عشر . ويمثلان جيلا أكبر بالنسبة لمحمد عبده وجماعته . وكانت مساهمتهما ـ بدون أدنى شك ـ ذات قيمة عظيمة لكل من المسلمين والأقباط فى إبراز الشخصية الثقافية لمصر الحديثة. وتعتبر المشاركة السياسية والأجتماعية للأقباط فى الحياة العامة بمثابة أعلان لمولد الدولة العلمانية فى مصر . وقد درس فى المدارس القبطية جيل من الأقباط والمسلمين . كان من بينهم مجموعة من السياسيين وزعماء الرأى العام المصرى ومنهم اثنان من رؤساء الوزارات تخرجوا من المدارس القبطية هما عبد الخالق ثروت ، وحسين رشدى .

وقد ترقب الأقباط وصول قوات الاحتلال البريطانى بحذر . وفى صيف سنة ١٨٨٢ . أنزل البريطانيون قواتهم فى الأسكندرية ، ومالبثوا بعد ذلك أن الحقوا الهزيمة بالقوات المصرية بقيادة عرابى ، فى معركة التل الكبير ، ورحب بعض الأقباط ـ الذين توقعوا قدوم عهد جديد من الحرية ـ بقدوم البريطانيين الذين ينتمون لأمة مسيحية. وأدى الأضطراب الأقتصادى وعدم الاستقرار والفوضى ـ تحت حكم إسماعيل وتوفيق ـ وأعلان بعض الدعاة المسلمين أن الإسلام فى مصر يتهدده الخطر بسبب تزايد المشاركة القبطية فى المناصب الحكومية . إلى جعل الأقباط يتخذون موقفا وديا تجاه وصول البريطانيين[٤١] .

وأظهر الاحصاء الرسمى للسكان لسنة ١٨٩٧ ، أنه كان يوجد فى مصر ٦٠٨ ألف قبطى فى

---

(٣٩) انظر حسين فوزى النجار : رفاعة الطهطاوى . رائد فكر وأمام نهضه القاهرة . ص ١٥٤ .
(٤٠) حسين فوزى النجار . «على مبارك . أبو التعليم» . القاهرة . ١٩٦٧ ص ٨٨
(41) A.J. Arberry, **Religion in The Middle East**, Cambridge. 1969, Vol. 1, Chapter 8, p. 433.

ذلك الوقت . قليلون منهم كانوا كاثوليك ، وعدد أقل من البروتستانت . لكن العدد الأكبر كان ينتمي إلى الكنيسة القبطية الأرثوذكسية[٤٢] .

ولم يشعر الأقباط بارتياح لفترة طويلة بعد الاحتلال البريطانى . وكان السبب الرئيسى هو الموقف المخيب للآمال الذى أتخذه البريطانيون . وخاصه كرومر ، تجاه الأقباط ـ قبل ثورة ١٩١٩ ـ بصفة خاصة . وكانت الفترة ١٨٨٢ حتى حوالى ١٩١٩ . فترة حاسمة فى العلاقات بين المسلمين والأقباط . وكان هذا راجعا إلى عاملين رئيسيين : ـ الطابع الإسلامى للحركة الوطنية المصرية ، بقيادة الحزب الوطنى . بعد اخفاق عرابى . عند نهاية القرن بصفة خاصة ، فقد اعتقد الزعماء الوطنيون المصريون أن سياسة إعادة السيادة التركية إلى مصر إلى ما كانت عليه فى السابق يعد سلاحا فى متناول أيديهم ضد البريطانيين[٤٣] ويرى بعض المؤرخين أن الحزب الوطنى لم يكن يعمل ـ فى الواقع ـ من أجل إنشاء دولة إسلامية شامله . ولا كان يرغب كذلك فى إعادة السيادة التركية إلى ما كانت عليه فى مصر ـ على الرغم من التأييد التركى لمصطفى كامل ـ بل حاول الحزب فقط استغلال العلاقة مع تركيا فى الكفاح ضد البريطانيين .

أما العامل الثانى ـ فكان التنافس الذى نشب بين المسلمين والأقباط حول التعيينات لمناصب الدولة . وخاصة عند بدء الأحتلال البريطانى . ويشير قرياقوص ميخائيل ـ الممثل البارز للأقباط فى لندن حتى وفاته سنة ١٩٥٦ ـ هذه النقطة قائلا أن الظلم الذى لحق بالأقباط يعتبر مسألة جديدة على مصر الحديثة حيث يذكر فى كتابه أنه يقال فى كثير من الأوساط أن الأقباط توقعوا المحاباه من البريطانيين ـ بحكم إنتماء كليهما للمسيحية ـ والحقيقة أن الأقباط ـ كما يستطرد قرياقوص ميخائيل ـ لم ينتظروا أية معاملة خاصة من بريطانيا بسبب الدين ، وأن كل ما توقعوه هو العدل والمساواة مع غيرهم من المصريين ، والواقع الذى حدث أنهم ـ أى الأقباط ـ قد فقدوا كثيرا من المواقع التى

---

(٤٢) تشير احصاءات السكان إلى ثبات هذه النسبة تقريبًا فى سنة ١٩٤٧ . كان سكان مصر يتكونون من ١٧.٣٩٩٧.٩٤٦ مسلم (٩١ ٤٦ ٪) . و١.١٨٦٣٥٣ قبطى ارثوذكسى . و٨٦.٩١٨ قبطى بروتستانتى . ٧٢.٧٦٤ قبطى كاثوليكى رومانى . و٨٩.٠٦٢ ارثوذكسى آخرون . و٥٠.٢٠٠ كاثوليك رومان آخرون . و١٦.٣٣٨ بروتستانت آخرون . و١.٥٤٧ آخرون غير معروفون .

The Statesman's Year Book (Statistical and Historical Annual of The States of World for The Year 1969/1970) p. 1450.

(٤٣) طارق البشرى . مرجع سابق . رقم ١٠٧ ـ القاهرة ـ فبراير . ١٩٧٠ .

كانوا يمثلونها فى الإدارة الحكومية مع قدوم الانجليز فى ١٨٨٢ [٤٤] .

ولعل تقييم لورد كرومر للأقباط هام وذو مغزى ، اذ يقول فى كتابه : «أن القبطى قد أصبح من قمة رأسه إلى أخمص قدمه فى عاداته ولغته وروحه كالمسلم تماما» [٤٥] وقد نشر لورد كرومر آراءه بالتفصيل بعد ذلك عن موقف الأقباط تجاه البريطانيين. «حيث شعروا ـ الأقباط ـ بخطورة المنافسة مع المسيحيين الشوام الذين يلقون تأييدا من الإدارة البريطانية فى القاهرة [٤٦] » .

ولا يمكن إنكار مساهمة السوريين فى دعم وتقوية النزعة والأتجاه الثقافى فى مصر الحديثة ، فقد ساعدوا فى صياغة الليبرالية العلمانية فى مصر ، ومن الممكن أن نورد بعض الأمثلة على دورهم النشط الفعّال فى المجالات والميادين المختلفة . مثل الإنتاج الأدبى العربى ، والصحافة ، والحركة المسرحية . وكتب جورجى زيدان ، مؤسس دار الهلال . روايات تاريخية كثيرة مشهوره ، تتعلق بالعصر الإسلامى ، وأصدر فرح انطون مجلة «الجمعية» ، كنافذة على الحياة الغربية ، وكان يعقوب صروف رئيس تحرير «المقطم» ، يهتم بالدراسات العلمية التى كان يبسطها للقارئ العربى ، وأولى أمين معلوف مزيدا من الأهتمام لعلم اللغة ، وهناك عديد من السوريين الذين كانوا روادا فى مصر الحديثة خصوصًا فى مجالات الكتابة والصحافة والمسرح [٤٧] ، وكان معظمهم مسيحيين من لبنان ، حيث لم يكن ميلاد الليبرالية العلمانية فى مصر نتاج تكوين الأحزاب السياسية المصرية فى مطلع هذا القرن فقط ، ولكن أيضا كان لدور السوريين ـ وأغلبهم من المسيحيين ـ تأثيره فى دعم ذلك التيار [٤٨] كذلك كانت الدوريات التى أصدرها الكتّاب الشوام مصدرا للاشعاع الفكرى والأسلوب العلمى . ونذكر فى ذلك المجال ـ على سبيل المثال ـ مجلتى الهلال والمقتطف [٤٩] » .

وكان الأقباط ـ فى هذه الظروف السياسية والاقتصادية ـ مشغولين فى التفكير مليا فى مستقبلهم بدلا من حاضرهم ، خاصة وأنهم كانوا قلقين على مشاركتهم فى الحكومة المصرية ، وفى سنة ١٩٠١ . بعث سير الدون جورست ـ المندوب السامى البريطانى . بتقرير إلى حكومته يعلن

---

(44) K. Mikhaill, **op. cit**., p. 2o.

(45) Cromer, **Modern Egypt**, Vol. 11, Cairo, 1908, p. 203.

(46) **Ibid**, p. 209.

(٤٧) سلامة موسى . مرجع سابق . ص ٢١٧ ـ ٢٢٠ .

(48) P.J. Vatikiotis, **The Modern History of Egypt**, London, 1969, p. 205.

(49) J.M. Ahmed, **The Intellectual Origins of Egyptian** Nationalism, Oxford, 1960, p. 32.

فيه أن الأقباط ـ الذين يمثلون أقل من عشر العدد الكلى للسكان ـ يشغلون ٤٥.٣٢٪ من المناصب . وأنهم يتقاضون ٤٠٪ من مجموع المرتبات . بينما المسلمون يتقاضون ٤٤٪ . و٦٪ يتقاضاه الآخرون(٥٠) ويعكس ذلك التقرير موقف جورست تجاه الأقباط لأنه كان دائما ما يتهم بأنه «يظهر تعاطفا أكبر تجاه المسلمين»(٥١) .

وأية دراسة للأرقام الخاصة بتوزيع الثروة فى مصر عند نهاية القرن التاسع عشر . سوف تكشف النقاب عن عامل هام ذى مغزى فى تقييم الحياة القبطية فى ذلك الوقت . فقد كانوا يملكون خمس الأراضى الزراعية والمبانى . بالإضافة إلى ماكانوا يملكونه فى البنوك(٥٢) . ومع أنهم كانوا يمثلون ٦٪ من سكان مصر . فقد كانوا يدفعون ١٦٪ من ضرائب الأراضى الزراعية(٥٣) . ممايعنى أنهم كانوا يتمتعون بوضع أجتماعى أفضل نسبيا من بقية المصريين . كما أن هذا يفسر ويبرر ـ فى الوقت نفسه ـ النهضة والارتقاء فى مستوى تعليمهم .

وقد بدا الخديوى عباس حلمى ـ أثناء الأيام الأولى لحكمه ـ وكأنه الزعيم الذى كان الوطنيون يتطلعون إليه . فقد شجع القيادات الوطنية . وأبدى اهتمامًا بالمثقفين المصريين خصوصا الشبان منهم . وقد أثارت صلات الخديوى بالحركة الوطنية شكوى كرومر . إذكان مقتنعا بأن عباس قد يشجع الوطنيين لأغراضه الخاصه . وأن ذلك يعتبر منه تصرفا غير شرعى(٥٤) . وتغير موقف عباس تجاه الوطنيين كلية بعد ذلك خصوصا عندما أصبحت له حرية التصرف فى أراضى الأوقاف . على الرغم من معارضة الشيخ محمد عبده . واتجه الخديوى إلى التقرب من المندوب السامى البريطانى الجديد سير الدون جورست(٥٥) . ولاحظ الأخير أن نمو الروح الوطنية قد تسبب فى معاداة كرومر للمسلمين المصريين . مما اجبره على السعى إلى تأييد الجاليات الأوروبية والمسيحيين المحليين(٥٦) .

---

(٥٠) جاك تاجر . مرجع سابق ص ٢٤٨ .

(51) **Gorst's Papers, Autobiographical Note,** p. 121.

(٥٢) طارق البشرى . مرجع سابق . الكاتب . عدد ١٠٧ . القاهرة . ١٩٧٠ .

(53) C. Issawi, **Egypt, An Economic and Social Analysis,** Oxford, 1947, p. 34.

(54) A.L. Al-Sayyid, **Egypt and Cromer,** London, 1968, pp. 145 - 148.

(٥٥) سلامه موسى . المصدر نفسه . ص ٦٦ .

(56) W. Kazziha, **The Evolution of the Egyptian Political Elite, 1907 - 1921,** Unpublished thesis, Uneversity of London, 1970, p. 101.

وفى كتابه أوضح «ويجال» المفتش العام للآثار المصرية القديمة لدى الحكومة المصرية وجهة نظره فى سياسة الحكومة تجاه الأقباط فى ذلك الوقت قائلا : «لما كانت غالبية الشعب المصرى من المسلمين ، ولما كان الاحتلال الذى تعمل ضده الحركة الوطنية ، مسيحيًا ، فقد أصبح من الضرورى ـ سياسيا ـ بالنسبة للوطنيين ، استخدام واستغلال هذا الاختلاف الدينى كأحد البنود الرئيسية لبرنامجهم القومى وأهدافهم السياسية . ففى الوقت الذى كان فيه السياسيون يرغبون فى أن ينقلوا إلى أوروبا الانطباع بأنهم مثقفون بصورة عالية مما يجعلهم غير متعصبين . فإنهم كانوا يستخدمون الحماس الإسلامى المتأصل بصورة مستمرة كوسيلة للارتقاء بالأمة . وحين أصبح عدد المتعلمين والمثقفين المصريين من الأقباط كبيرا نسبيا . أصبح على قيادة الحزب الوطنى أن تقرر ما إذا كان يجب أن تتخلص من الطابع الدينى الذى التصق بالحزب بدمج «الوطنيين» الأقباط معهم من ناحية . أو ما إذا كان يتعين عليهم من ناحية أخرى . الاحتفاظ بمصدر القوة الهام للحماس الدينى والاستغناء عن خدمات هذه الأقلية التى لا يستهان بها من المسيحيين المحليين[٥٧] » .

ولابد لأية محاولة لدراسة ما نطلق عليه الفترة الحرجة فى العلاقات بين المسلمين والأقباط فى مصر بين ١٩٠٨ ـ ١٩١١ . أن نتطرق أيضا إلى دور الصحافة القبطية. وكانت صحيفتا «الوطن» و «مصر» هما الصحيفتان القبطيتان الرئيسيتان . وقد أنشأ صحيفة (الوطن) ميخائيل عبد السيد عام ١٨٧٨ م . وهو قبطى تخرج من مدرسة الأقباط . ثم درس فى الأزهر الشريف . وقد بدأت صحيفته صدورها بتوجيه النقد إلى جمال الدين الأفغانى . ونزعته الدينية[٥٨] .

وتوقفت «الوطن» عن الصدور إلى أن عادت مرة أخرى تحت إدارة ورئاسة تحرير جندى إبراهيم . سنة ١٩٠١ . وفى سنة ١٨٩٥ . أصدر تادروس المنقبادى صحيفة «مصر» . ولقى تشجيعا ودعما من بطرس غالى باشا الذى لم يكن على علاقة طيبة مع عبد السيد رئيس تحرير «الوطن» . ولعبت صحيفة «مصر» دورا رئيسيا فى الدعاية للمؤتمر القبطى سنة ١٩١١ وكانت لسان حال التيار القبطى المتعصب اذ كان ميخائيل قرياقوص ـ الممثل القبطى الدائم فى لندن ـ مراسلها هناك[٥٩] وقد تبادلت الصحيفتان القبطيتان الانتقاد إلى أن التقيتا حول قضية مشتركة

(57) A.B. Weigall. A History of events in Egypt from 1798 - 1914. London, 1915, pp. 213 - 214.

(٥٨) أنور الجندى . **تاريخ الصحافة السياسية** . القاهرة . بدون تاريخ . ص ـ ١٥٢

(٥٩) **المرجع السابق** ـ ص ١٥٠ .

تتعلق بالمؤتمر القبطى . وبدأت صحيفة «مصر» من سنة ١٩١٨ . تتخذ جانب سعد زغلول ورفاقه[٦٠] .

وكان هناك ـ من ناحية أخرى ـ «المؤيد» و «اللواء» وهما صحيفتان رئيسيتان كانت تستفزهما بعض المقالات فى الصحيفتين القبطيتين . وبدأت معارك صحفية من منطلق دينى . ولفهم خلفية تلك الصحف ذات الطابع الإسلامى عن طريق محرريها وخاصة الشيخ على يوسف ـ رئيس تحرير «المؤيد» والشيخ عبد العزيز جاويش ـ رئيس تحرير «اللواء» فإنه يتعين مناقشة دورهما فى أطار حركة الإصلاح الإسلامى .

فى ظل الاحتلال البريطانى وجد الفكر الأجتماعى والسياسى نفسه مواجها بمشكلات جديدة . وكانت الطبقة الوسطى النامية بسرعة تشعر بالضيق والحرج من المواجهة القائمة بين الإسلام . دينهم . ونظام الحياة الغربية وأنماطه العصرية . ويرجع الفضل إلى جمال الدين الأفغانى فى ظهور الاتجاهات التقدمية الإسلامية. حيث كون هو ومحمد عبده ـ فى منفاهما بباريس ـ جماعة وطنية إسلامية هى «العروة الوثقى» . وشرعا فى نشر المجلة الدورية التى تحمل الأسم نفسه . وتم التعبير عن روح الإسلام سياسيا بصورة واضحة لا لبس فيها على أساس أن الرابطة الدينية بين المسلمين أقوى من أية رابطة عنصرية أو لغوية أخرى. وفى الوقت نفسه. كان الدور القيادى الرئيسى الذى يمكن أن تلعبه مصر فى العالم الإسلامى مؤكدا . فأثار الأفغانى تيار الإصلاح فى الأمة الإسلامية باعلانه بأن كل تقدم يمكن التوفيق بينه وبين الإسلام . بل ويمكن اكتشافه من تاريخ الإسلام ذاته . فالأمة الإسلامية يتعين توحيدها تحت حكم خليفة لا تكون لقوميته وأصله أهمية. طالما كان فى مقدوره أن يحكم شعوب الأمة ويدافع عنها. وكان الأفغانى يتمتع بنفوذ وقدرة تأثيرية عظيمة فى كل مكان فى العالم الإسلامى. وبصفة خاصة فى مصر. حيث سيطرت شخصيته القوية على الطلاب والمشايخ فى الأزهر الذين توجهوا بأنفسهم إلى المدن والقرى المصرية . لينشروا رسالته المتصلة بإحياء روح الإسلام الحقيقية وإيقاظ ما يمكن أن تطلق عليه القومية الإسلامية . واعتبر البسطاء ـ فى وادى النيل ـ الإسلام هويتهم . وأنه ليس ملكا لليونانيين أو الشركس أو الاجانب المسيحيين الآخرين الذين كانوا متحالفين فى نظر بعضهم مع الطبقة الحاكمة الظالمة المستبده[٦١] .

---

(٦٠) المرجع السابق ـ ص ١٥١ .

(61) T. Little, **Modern Egypt**, London, 1967, p. 56.

وكانت رغبة الشيخ محمد عبده الصادقة تتركز فى إصلاح جامعة الأزهر . ولما كانت هذه الجامعة هى المركز الأول للتعليم الإسلامى فى العالم كله . فقد كان يعتقد أنه اذا تم أصلاحها . فان حال المسلمين سوف يتم اصلاحه أيضا . وأعلن أنه يرغب فى تحويل الأزهر إلى مناره لهداية العالم الإسلامى . لا فى المسائل الدينية فقط . بل فى القضايا الدينوية كذلك . كى تشبه أعظم جامعات أوروبا . وعندما اعتلى الخديوى عباس العرش . تقدم إليه محمد عبده بخطته لإصلاح الأزهر . ونجح فى اقناعه بأهمية اقتراحه . وفى سنة ١٨٩٥ . قرر الخديوى تعيين محمد عبده . كممثل للحكومة فى اللجنة الادارية للأزهر . التى كانت تتولى مهمة إصلاح أحوال تلك الجامعة العريقة . الا أن الاصلاحات الفكرية فى الأزهر . التى كانت أمل الشيخ عبده ورجاءه لم تتحق أو تؤتى ثمارها . ذلك أن العلماء اعتبروا اصلاحات محمد عبده بالغة الثورية . لأنه كان يبغى توسيع نطاق المناهج الدراسية . وتحسين وسائل التدريس وفقا لمفهوم عصرى . وأصبح الخديوى معارضا لمحمد عبده ـ تدريجيا ـ وأوقف محاولاته للإصلاح . ونشأ أحد أسباب نفور الخديوى من محمد عبده . وسخطه عليه نتيجة للمكائد التى حاكها الشيخ على يوسف ومصطفى كامل . اللذان أثارا الخديوى وألباه ضد محمد عبده(٦٢) وقد ذكر محمد عبده :

«أنهم يظنون أن القضاء على محاولتى لإصلاح الأزهر تعنى أنه قد أصبح مرتعا خصبا لهم يفعلون به ما يشاءون . على العكس فإننى قد تركت فيه شعله لن تخمد أبدا»(٦٣) .

وكان الشيخ على يوسف . والشيخ عبد العزيز جاويش مرتبطين تمام الارتباط بما حدث من رد فعلى إسلامى تجاه الإصلاح . وحددت جريدة «المؤيد» أهدافها بأنها قائمة على نشر الأفكار المفيدة والآراء الصحيحة الدقيقة(٦٤) وأصبح عبد العزيز جاويش ـ وهو من أصل تونسى . لكنه ولد فى الأسكندرية ـ زعيم الصحافة الوطنية المتطرفة فى مصر ـ رئيس تحرير جريدة «اللواء» بعد وفاة مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ . وقد تلقى تعليمه فى الأزهر . وكان ذا أثر كبير فيما بعد فى إنشاء جمعية الشبان المسلمين(٦٥) وكان للشيخ على يوسف . خلفية مماثلة . لكن بمزيد من الخبرة السياسية . وبصلات طيبة وعلاقات خاصة بالخديوى عباس . وتمتعت «المؤيد» بأعلى أرقام فى

(62) A.L. Al-Sayyid, op. cit., p. 149.

(٦٣) محمد رشيد رضا . **تاريخ الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده** . عدد ٣ . القاهره . ١٩٤٧ . ص ـ ٥٢

(64) J.M. Ahmed, op. cit p. 31.

(65) C. Wendell. **The Evolution of the Egyptian National, Image**, California, 1972, p. 142.

التوزيع فى بداية القرن العشرين ، وأصبح يطلق عليها «تايمز المشرق »[٦٦] وتصاعدت حدة المواجهة بين الصحف المسلمة والقبطية بحلول عام ١٩٠٨ بصحيفتى «مصر» و«الوطن» فى جانب. وصحيفتى «المؤيد» و«اللواء» فى الجانب الآخر. وفى ٢٢ مايو ١٩٠٨ نشرت صحيفة «مصر» مقالا هاجمت فيه أولئك الذين قدموا إلى مصر منذ الفتح الإسلامى ، سواء كانوا أتراكا أو فرنسيين أو بريطانيين وهاجمت مبدأ الإسلامية الشاملة ، انطلاقا من أن الدين لا يمكن أن يقوم وحده كعنصر منفرد فى صياغة الأمة واعدادها .

ثم ورد مقال آخر فى صحيفة «الوطن» فى عددها الصادر بتاريخ ١٥ يونيو ١٩٠٨ هاجم الوجود الإسلامى فى مصر ، وهو مقال رد عليه الشيخ عبد العزيز جاويش . وهاجمه فى مقال نشره فى صحيفته الخاصه «اللواء» تحت عنوان «الإسلام غريب فى بلاده» . الذى يعد بداية لحوار عاصف بين الصحافة الإسلامية والقبطية[٦٧]. ويذكر عبد اللطيف حمزه أن الصحافة القبطية استفزت المسلمين وأثارتهم . وهاجمت سجلهم وتاريخهم فى مصر[٦٨] . بينما يصر سلامه موسى على أن الشيخ جاويش كان مسئولا عن بداية الحوار الطائفى المتعصب فى الصحافة المصرية[٦٩] .

وفى ذلك الوقت . ترك مصطفى فهمى باشا . رئاسة الوزارة بعد ثلاثة عشر عاما . وفى ١٣ نوفمبر ١٩٠٨ تم تعيين بطرس غالى باشا . رئيسا للوزراء . وهو اختيار لقى ترحيبا من الصحافة القبطية . لأنه أول اختيار لقبطى يتولى هذا المنصب ، وقدم بطرس غالى إسهاما كبيرا فى تنظيم الطائفة ودعم وحدتها مع المسلمين . اذ قام فى سنة ١٨٨١ – على سبيل المثال – بإنشاء «الجمعية الخيرية القبطية» . ودعا كلاً من الشيخ محمد عبده . وعبد الله النديم «خطيب الحركة العرابية» لحضور حفل الأفتتاح حيث القيا خطابين رائعين . يؤكدان وحدة الأمة المصرية . أقباطا ومسلمين. وعندما طرد الخديوى عباس الشيخ سليم البشرى – شيخ الأزهر . قام بطرس غالى بزيارة الأخير وأعلن تأييده له[٧٠] .

---

(٦٦) عبد اللطيف حمزة . قصة الصحافة العربية فى مصر . بغداد . ١٩٦٧ – ص ١٠

(٦٧) جاك تاجر . مرجع سابق . ص – ٢٤٩

(٦٨) عبد اللطيف حمزه . مرجع سابق . ص – ١١٤ .

(٦٩) سلامه موسى . مرجع سابق . ص – ٦٧ .

(٧٠) د . نعمات أحمد فؤاد . اعيدوا كتابة التاريخ . القاهره . ١٩٧٤ . ص – ٨٩

وتظهر دراسة خلفية الحياة السياسية عند بداية القرن العشرين فى مصر أن مساهمة مصطفى كامل فى الحركة الوطنية المصرية هى أبرز عناصرها التى تضمنت محاولته احتواء كل من المسلمين والأقباط فى حزبه . فضمت اللجنة التنفيذية لحزبه شخصيتين قبطيتين هما ويصا واصف . ومرقص حنا . كما أعلن مصطفى كامل فى أحد خطبه أن المسلمين والأقباط شعب واحد . تربطهم وتوثق فيما بينهم كل الوشائج. وأنه لا يوجد أى سبب أو مبرر للفصل بينهم. ولكن ظل الأقباط ـ من ناحية أخرى ـ متحفظين تجاه برنامج الحزب الوطنى ، الذى كان يقر بحق السلطان العثمانى فى حكم مصر. وكانوا أيضا قلقين للعلاقة بين مصطفى كامل والسلطان. ومن المحاولة العثمانية لاستغلال نشاط مصطفى كامل ضد الاحتلال البريطانى فى مصر(٧١) . ويسجل سلامه موسى ـ فى مذكراته عن الفترة ما بين ١٩٠٣ و ١٩٠٧ ـ أنه على الرغم من أن الشباب القبطى كان يشترى صحيفة (اللواء). فإن كثيرا من الأقباط لم ينضموا إلى الحزب الوطنى بسبب صبغته الدينية(٧٢) .

وأثناء هذه الفترة اكتسبت مسألة التمثيل القبطى فى الحزب الوطنى أهمية سياسية أكبر نتيجة لاستقالة ويصا واصف من الهيئة التنفيذية للحزب الوطنى فى ٦ أغسطس ١٩٠٨ بعد وفاة مصطفى كامل ، اذ أن الزعيم الجديد للحزب «محمد فريد» قد فقد تأييد الأقباط ـ إلى حد كبير ـ لأنه اتخذ موقفا متشددا وصلبا من تعيين بطرس غالى رئيسا للوزراء ولم يبد تأثرا عند اغتياله . وظلت العلاقة بين الحزب الوطنى والأقباط مضطربه غير مستقرة بسبب صبغته الإسلامية . والنفوذ العثمانى فى الحزب . وفى هذا الجو المتوتر . أعلن اخنوخ فانوس فى ٢ سبتمبر ١٩٠٨ مشروع إنشاء «حزب مصر» كرد فعل قبطى على بروز الشخصية الإسلامية للسياسة المصرية فى ذلك الوقت(٧٣) ، كما أدى اختيار بطرس غالى ـ فى السنة نفسها ـ كرئيس للوزراء إلى تفاقم الوضع بين المسلمين والأقباط ، ويحق لنا أن نتساءل عما اذا كان قد تم وضع النتائج المحتملة لهذا الأختيار فى الاعتبار أم لا ؟ أو أن تعيين بطرس غالى قد تم لأنه تصادف أن كان واحدا من أقدر الرجال لشغل المنصب فى ذلك الوقت .

---

(٧١) جاك تاجر . مرجع سابق . ص ـ ٢٥١ .

(٧٢) الكاتب المصرى . القاهرة . يوليو . ١٩٤٦ .

(٧٣) لبيب يونان . **الحياة الحزبية فى مصر ١٨٨٢ ـ ١٩١٤ . القاهرة . ١٩٧٠ ص ـ ٤٢**

ولقد أقدم عضو متطرف فى الحزب الوطنى هوابراهيم الوردانى على اغتيال بطرس غالى فى فبراير ١٩١٠ ، ويؤكد ــ شاهد عيان ــ لتلك الأيام في مصر فى كتاب له أن المأساة قد اثارت مشاعر المعتمد البريطانى سير الدون جورست الذى كان يراقب الصراع بابتسامه ساخرة إلى حد ما ، وأن وجهة نظره الأكيده بشأنها كانت أن القاتل لابد وأن ينال عقوبة الموت ، على الرغم من الحملة القوية التى كانت تدافع عنه وتحاول انقاذه من عقوبة الأعدام(٧٤) .

وهكذا أصبحت مصر مقسمة ــ فى ذلك الوقت ــ إلى ثلاث جبهات متميزه وواضحة المعالم : الاحتلال ومؤيدوه . والخديوى وأنصاره . ثم الوطنيون الذين كانوا أنفسهم منقسمين تماما(٧٥) . وشهدت الأيام الأولى لعام ١٩١١ . محاولة من جانب واصف غالى ــ ابن رئيس الوزراء الذى اغتيل ــ لتحقيق مصالحة وطنية بين العناصر المتطرفة من الأقباط والمسلمين . ففى يناير أصدر بيانا أعلن فيه أنه سوف يتغاضى عن الإساءات التى وجهت ضد ذكرى والده لصالح التآلف . وتعبيرا واظهارا للأخوة بين الأقباط والمسلمين وكان رد الفعل القبطى ــ على البيان ــ صدور انتقادات ضده . ورفض تام له . لأنه لم يكن يعكس رأيا عاما قبطيا(٧٦) .

وبعد صدور بيان غالى الابن بعدة أيام . نشرت صحيفة «التايمز» فى عددها الصادر بتاريخ ٢٦ يناير ١٩١١ . برقية لوكالة رويتر صادرة من القاهرة . تتحدث عن جولة المتابعة الشاملة التى قام بها جورست فى أقاليم مصر(٧٧) . وكان نص البرقية : «زار سير الدون جورست . الأقاليم التى يوجد فيها الأقباط . وحقق تماما فى مسألة المظالم والشكاوى القبطية المزعومة. لكنه اكتشف أنه لا توجد خارج القاهرة أية شكاوى ذات بال . وأعلن أن المسلمين والأقباط يعيشون معا بهدوء واطمئنان بصفة عامة . اذا ما تركوا وشأنهم . وأن اسوأ خدمة يمكن أن نقدمها للأقباط هى أن تكون معاملتهم كجماعة أو طائفة منفصلة . ثم أكد سير الدون جورست. أن المصالح التربوية والتعليمية القبطية تحظى بعناية مناسبة من المجالس المحلية» . وكانت حملة الاحتجاج القبطية فى القاهرة منسقة . مع الاحتجاج القبطى فى الوجه القبلى . ودحض (توفيق دوس) تلميحات

---

(74) A.B. Weigall, **op. cite.**, p. 215.

S. Seikaly, "**Prime Minister and Assasein: Butros Ghali and Wardani**" Middle Eastern Studies, Vol, 13, No. 1, January 1977, pp. 122 - 123.

(75) **Ibid**, p. 216.

(76) **The Egyptian Gagette**, Janvary 27, 1911.

(77) K. Mikhail, **op. cit.**, p. 21 and S.M. Seikaly, **op. cit.**, p. 228

جورست . بأن الأقباط كانوا يرغبون فى أن تتم معاملتهم كجماعة أو طائفة منفصله . وأصر على أنهم كانوا يطالبون فقط بأن يتم احترام مبدأ المساواة(٧٨) .

والواضح أن « جورست » كان يعتقد أن موقف الأقباط لم يكن خطيرا مثلما كانوا يدَّعون . وقد رفض دعاواهم المثيرة للعاطفة حول المستقبل . واعتبر أن ادعاءاتهم تفتقر إلى أساس واقعى . ولكن جاء رد الفعل فى لندن تجاه ادعاءات الأقباط مغايرا لآراء « جورست » ولم يكن تأييد الأقباط مقصورا على الصحافة البريطانية . بل شاركت الكنيسة الانجليزية فى التعبير عن التضامن مع الأخوة فى المسيحية . وأستقبل أسقف لندن المندوب القبطى قرياقرص ميخائل . وأعلن عن تعاطفه مع المطالب القبطية(٧٩) . والواقع أن الدعاوى القبطية كانت سابقة على حادث اغتيال بطرس غالى . نظرا لأن زعماءهم كانوا قد تقدموا بالتماس مكتوب إلى مصطفى فهمى رئيس الوزراء ـ حينذاك ـ وإلى لورد كرومر المعتمد البريطانى يطالبون فيه بالمساواة الكاملة عند الاختيار للمناصب الحكومية . وبغلق المحاكم أيام الآحاد . وتعيين أعضاء أقباط فى رابطة المحامين "Bar Association" وتثبيت تدريس الديانة المسيحية فى المدارس الأميرية . ووافقت الحكومة على المطلب الثانى والثالث من تلك المطالب . وأحالت المطلب الأول للمناقشة . وجدير بالذكر أنه يوجد عامل هام يرتبط بذلك الجدل بين المسلمين والأقباط . الا وهو التردى الذى كانت تتسم به الحركة الوطنية فى تلك الفترة خصوصا بعد صدمة دنشواى وجو الاحباط الذى ساد صفوف الوطنيين. فقد خمد التأييد الفرنسى لمصطفى كامل والحركة الوطنية المصرية بعد الاتفاقية الانجليزية ـ الفرنسية سنة ١٩٠٤ . فكان المناخ السياسى فى مصر مهيأ لمثل تلك الخلافات والنزاعات فى ظل الضعف المؤقت الذى دب فى الحركة الوطنية المصرية آنذاك .

وفى تلك الظروف الصعبة انعقد المؤتمر القبطى فى مدينة « أسيوط » وجرت مناقشة مطالبهم وشكاياتهم فى خمس نقاط رئيسية . **الأولى** : عالجت مسألة أن الأقباط قد ارغموا على انتهاك وصايا دينهم . باضطرارهم العمل فى أيام الآحاد . ولما كانت المكاتب الحكومية والمدارس الأميرية تعمل ولا تغلق أبوابها أيام الآحاد . فقد كان من المستحيل ـ بالنسبة للموظفين أو تلاميذ المدارس ـ أن يأخذوا يوم الأحد يوم عطله تبعا لدينهم المسيحى . لذلك طالب المؤتمر القبطى بأن

(78) S.M. Seikaly, **op. cit.**, p. 230.
(79) **Ibid.**, p. 238.

يتم اعفاء موظفى الحكومة من مهامهم والتلاميذ من دراستهم فى يوم الراحة المسيحية ، **والنقطة الثانية** كانت تتعلق بعدد من المناصب والوظائف الحكومية القاصره على المسلمين دون سواهم . وكان هناك شعور عام ــ لدى الأقباط ــ بأن ترقياتهم لا تتم وفقا لقدراتهم وجدارتهم ، وكانت **النقطة الثالثة** مرتبطة بالنظام الانتخابى فى مصر . لأن الأقباط لم يكن لهم ممثلون فى المجالس المحلية . وطالبوا بنظام يضمن حقوق الأقليات عموما . وكانت **النقطة الرابعة** متعلقة بالمطالبة بفرص متساوية للاستفادة من التسهيلات التعليمية التى كانت توفرها المجالس المحلية الجديدة . وكانت الحكومة المصرية قد فوضت المجلس المحلى لفرض ضريبة خاصة معادلة لـ ٥٪ من الضريبة العامة على الأطيان للأغراض التعليمية التربوية بصورة أساسية . وكان الأقباط يدفعون ١٦٪ من تلك الضرائب . وساد لديهم شعور بأنهم لابد وأن يتوقعوا ــ مقابل ذلك ــ بعض التحسينات فى وسائل تعليم اطفالهم فى ظل النظام الجديد . ولم يكن فى مقدور أطفالهم الالتحاق بالكتاتيب أو المدارس الإبتدائية التى كانت تلقى دعما ماليا من الضرائب الخاصة . لأن وزارة التعليم أعلنت رسميا أن تلك الكتاتيب . وكذلك المدارس العادية . كانت معاهد ذات طابع إسلامى . وكانت **النقطة الخامسة** هى مطالبة الأقباط بأن تتوجه المعونات الحكومية للمعاهد المحتاجة للمساعدة بدون تفرقة بسبب العقيدة . وتم بحث تلك الموضوعات بالتسلسل . واختتم المؤتمر جلساته بتصويت إجماعى يعبر عن ولاء مجتمعين لسمو خديوى مصر . وهو ما تم ارساله برقيا على الفور . وجرى تشكيل لجنة عامة من ممثلين للأقاليم المختلفة كى تجتمع عند الضرورة لإدارة الأمور والتصرف فيما قد يظهر من مشكلات . وانتخب جورج بك ويصا ــ رئيسا وخليل بك إبراهيم والدكتور أخنوخ ــ نائبين للرئيس . واندراوس باشا ــ أمينا للصندوق[٨٠] .

وكان الباعث على إرسال برقية المؤتمر إلى الخديوى عباس الثانى . هو تصور أن الخديوى كان يحقق ــ شخصيا ــ فى الشكايات والتظلمات القبطية . وأنه قد أبدى تأييده لانعقاد المؤتمر[٨١] . الا أن «جورست» ادرك نوايا الخديوى بسرعة . وطلب منه أن لا يستقبل أى وفد قبطى[٨٢] .

وكانت اصداء المؤتمر القبطى كثيرة وبعيدة المدى . وعارضت «الجريدة» صحيفة حزب الأمة ، المؤتمر بقوة وعنف . لكن عندما تردد ناظر الداخلية فى السماح بعقد المؤتمر ، اتخذ الحزبان

(80) K. Mikhail, op. cit., pp. 28 - 30.
(81) S.M. Seikaly, op. cit., p. 288.
(82) Ibid., p.290.

السياسيان الرئيسيان (الحزب الوطني . وحزب الأمة) موقفا معارضا للحكومة ، دعا منهما لحرية التعبير بغض النظر عن عدم تأييدهما لفكر المؤتمر . والملاحظ أن حزب الأمة الذى كان يضم صفوة المفكرين من ملاك الأراضي والشريحة العليا من الطبقة المتوسطة وكان دون صبغة دينية واضحة . كان يتسم بموقف معتدل من الأقباط . بالمقارنة ببعض العناصر المتطرفة فى الحزب الوطني . وكان أكثر ردود فعل المؤتمر أهمية . هو موقف كثير من الأقباط الذين كانوا معارضين لفكرة عقد المؤتمر ذاته . وكان من بينهم واصف غالى . وويصا واصف . كذلك فإن الذين اشتركوا فى المؤتمر كانوا أقلية بين الأقباط . إذ كانوا يشكلون فقط ١٢ ألف من بين ٧٠٠ ألف . وهو العدد الأجمالى للأقباط فى مصر حينذاك[٨٣] وعلى الرغم من حقيقة أن أسقف أسيوط . قد ابدى تأييده للمؤتمر . فإن البطريرك سريال الخامس رئيس الكنيسة القبطية لم يكن متحمسا للاشتراك فيه[٨٤] . وبعد افتتاح المؤتمر القبطي بيوم واحد . دعا مواطن من الاسكندرية . اسمه محمد فهمى الناصورى . إلى انعقاد مؤتمر إسلامى[٨٥] .

عقدت اللجنة التحضرية للمؤتمر الإسلامى أول جلساتها فى منزل «على شعراوى» . وفى الجلسة الأفتتاحية للمؤتمر فى ٢٩ إبريل ١٩١١ . فى مصر الجديده . قدم رياض باشا . الذى نصب رئيسا للمؤتمر . خطابا هادئا لخص فيه أهداف المؤتمر . بأنها «مناقشة» مطالب الأقباط[٨٦] . وكان الاتجاه الرئيسى فى المؤتمر هو الاصرار على الوحدة الوطنية . والمساواة بين طائفتى الأمة . ويقرر جاك تاجر ـ فى كتابه ـ أن المؤتمر الإسلامى لقى تشجيعا من «جورست»[٨٧] ويفسر صيقلى ذلك فى رسالته أن المؤتمر حظى بموافقة وتصديق دار المعتمد البريطانى فى القاهرة[٨٨] .

واستقبل الحزبان السياسيان الرئيسيان (الوطنى . والأمة) فكرة المؤتمر الإسلامى . دون حماس شديد وذلك من وجهة نظر سياسية . بينما تحمس له حزب «الإصلاح الدستورى» الذى كونه

---

(٨٣) **المؤيد** . ١١ مايو ١٩١١ .

(٨٤) طارق البشرى . مرجع سابق . رقم ١٠٩ . القاهرة ١٩٧٠ .

(٨٥) **المقطم** . ٧ مارس ١٩١١

(٨٦) **المرجع السابق** . ٢٢ مارس ١٩١١ .

(٨٧) جاك تاجر . **المرجع نفسه** . ص ـ ٢٥٢

(88) S.M. Seikaly, op. cit., pp. 290 - 293.

الشيخ على يوسف ، كأداة للخديوى عباس الثانى . وهو حزب لم يكن يهتم كثيرا بالجانب السياسى للمسألة . ورأى أن المؤتمر الإسلامى كان له غرض واضح ، وهو حماية الشخصية الإسلامية للدولة [٨٩] .

وعكس الوضع الكلى للأقباط فى تلك الفترة شعورا عاما، بأنه على الرغم من تعاطف البريطانيين مع الأقباط . فقد كان لدى كرومر، وجورست انطباعا بأن الأقباط يتمتعون بأكثر مما يستحقونه فى الحياة المصرية ، وأنهم كانوا يتوقعون الحصول على امتيازات عن طريق البريطانيين [٩٠] . فلقد حقق التعليم القبطى تقدما . وحظى بإهتمام ورعاية خاصة . واتيحت لكثير من الطلبة الأقباط فرصة أتمام دراساتهم العليا فى الخارج . وكان من بينهم مكرم عبيد ، الذى نتخذه هنا كنموذج للدراسة فى اطار دور الأقباط فى الحركة الوطنية المصرية كلها .

* * *

---

(89) **Ibid.**, p. 293.
(90) K. Mikhail, **op. cit.**, p. 38.

الفصل الثاني

مكرم عبيد والمدخل إلى الحركة الوطنية المصرية

مكرم عبيد والمدخل إلى الحركة الوطنية المصرية

ليس أمرًا يسيرًا العثور فى التاريخ الحديث للأقباط على شخصية تعكس الدور الوطنى فى الحياة السياسية المصرية أفضل من مكرم عبيد. لما تميز به من قدرة وتأثير. وقد ولد مكرم عبيد فى أكتوبر ١٨٨٩ بمدينة قنا . من أسرة نشأت أصلا فى أسيوط . وكان جده الأكبر ـ عن أبيه ـ قد تزوج من ابنة المعلم جرجس الجوهرى[١] . وانتقلت الأسرة إلى قنا عندما آثر محمد على باشا إبراهيم الجوهرى على أخيه جرجس . ومكرم عبيد ـ الأب ـ هو واحد من أحد عشر أخا وأختا . وكان يمتلك حوالى ثلاثين فدانا من الأراضى الزراعية . لكنه ما لبث أن تحول بعد ذلك إلى مجال آخر كمقاول بناء وأشغال عامة . ونفذ هو وشقيق له أعمال الأنشاءات فى خط السكة الحديدية بين نجع حمادى والأقصر . وعند إتمام هذا المشروع قلده الوالى « الوسام المجيدى » . وأنعم عليه بلقب الباكوية من الدرجة الثانية[٢] . وأشترى مكرم عبيد ـ الأب ـ بعد ذلك تسعمائة فدان من أراضى الخاصة الملكية « الدائرة السنية » . بالقرب من قنا . وتوفى فى ديسمبر ١٩٢٥ .

وقد أكمل وليم مكرم عبيد تعليمه الأبتدائى فى مدرسة أميرية بقنا حوالى عام ١٩٠٠[٣] . وبعد أن كان قد أمضى فترة قصيرة فى مدرسة التوفيقية الثانوية بالقاهرة . نصح بعض الأصدقاء والده بأن يلحقه بالمدرسة الأمريكية فى أسيوط التى كان يديرها ويشرف عليها المبشرون الأمريكيون .

---

(١) المستشار المالى لمحمد على باشا . وقد أورد الجبرتى ذكره عدة مرات فى كتابه (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) ـ القاهرة ـ ١٣٢٢ هجرية .

(٢) بعض هذه المعلومات مستقاة من مقابلة مع السيد مكرى مكرم عبيد فى ١٤ مراير ١٩٧٥

(٣) كان الكاتب الكبير عباس محمود العقاد من بين زملاء عبيد فى تلك المدرسة . وقد أشار العقاد إلى هذا فى المقدمة التى كتبها لمجموعة خطب عبيد وعنوانها « المكرميات » .

ثم أقترح أخنوخ فانوس ـ وهو محامى قبطى مشهور ـ على والد عبيد أن يبعث بولم ، وكان طالبًا ذكيًا ومجدًا ، إلى جامعة أكسفورد ليتم دراسته هناك[٤] ، ووصل ولم إلى هناك سنة ١٩٠٥ ، وهو فى السادسة عشر من عمره ، ويعتبر ولم مكرم عبيد واحدا من أبرز الطلاب الذين درسوا فى « النيو كولدج » باكسفورد . وقد ذكر عميدها يوما ـ فى مناسبة إجتماعية ـ أن الكلية لم تعرف من قبل طالبا أصغر فى العمر من ولم مكرم عبيد ، باستثناء ولم بيت ـ السياسى البريطانى المشهور ـ ولم يكن عبيد قد بلغ السابعة عشرة من عمره فى ذلك الوقت . كما يقال أيضا أن العميد قد أمتدح التقدم الرائع الذى أحرزه ولم مكرم عبيد فى اللغة الأنجليزية . وداعبه قائلا « إنه سوف يسلك نفس الطريق الذى سلكه ولم شكسبير ويتبع نفس خطواته[٥] . ولا تحوى سجلات « نيوكولدج » باكسفورد عن الطالب ولم عبيد أكثر من إنه درس هناك فيما بين ١٩٠٥ و١٩٠٨ . وإنه حصل على المرتبة الثانية فى القانون .[٦]

ولم يعد عبيد إلى مصر مباشرة بعد حصوله على الدرجة العلمية فى القانون من أكسفورد سنة ١٩٠٨ . لكنه التحق فى طريق العودة بجامعة « ليون » بفرنسا . ليكمل دراسات أعلى فى القانون هناك . وقد أثار أهتمامه بها دراسات علم الآثار المصرية . وأمضى عامين تقريبا فى فرنسا حيث ألتقى بزميل مصرى هو (عمر مصطفى) الذى كان يدرس فى نفس الفرع من المعرفة وكانا يتراسلان ببعض الكلمات من الهيروغليفية على سبيل الدعابة والمزاح . فقد كان لهما اهتمام مشترك بدراسة الآثار المصرية[٧] .

لكن ولم مكرم عبيد قد أثارته فى فرنسا أيضا الإتجاهات الفكرية الجديدة هناك ، وأعجب بالفكر الأشتراكى . كما أبدى أهتمامًا أيضا بالاتجاهات غير الدينية . وجدير بالذكر أن الملك فؤاد كان ينظر إلى مجموعة من السياسيين المصريين الشبان ومنهم ولم مكرم عبيد وآخرين مثل الدكتور محمد حسين هيكل . والدكتور محمود عزمى . على أنهم مؤيدون للنظام الجمهورى . ومتأثرون

---

(٤) تمتعت جامعة اكسفورد بشهرة كبيرة فى ذلك الوقت بين العائلات المعروفة فى مصر . وقد تخرج محمد محمود باشا أبن محمود سليمان باشا . زعيم حزب الأمة وواحد من أبرز أقطاب الصعيد من تلك الجامعة قبل ولم مكرم عبيد بعدة أعوام

(٥) من معلومات المقابلة مع السيد مكرى مكرم عبيد .

(٦) من خطاب ورد إلينا من « نيوكوليدج » فى اكسفورد ومؤرخ ٢٨ فبراير ١٩٧٥ .

(٧) من معلومات المقابلة مع السيد فكرى مكرم عبيد .

« بالاشتراكيين الفرنسيين » لأنهم كانوا قد درسوا وتعلموا فى فرنسا ، وتأثروا بالثقافة السياسية والفكر الاجتماعى هناك[٨] .

وتبدو تلك الجذور المبكرة لثقافة عبيد ذات أهمية على ضوء مستقبله بعد ذلك ، خاصة عندما أصبح معروفا كسياسى وطنى ذى اتجاهات علمانية . ويجدر أن نشير هنا إلى أن مكرم عبيد ـ الأب ـ كان قد تحول إلى البروتستانينية حوالى ١٩٠٠ محدثا بذلك انقساما فى الأسرة بين أولئك الذين ظلوا أقباطا من ناحية والذين تحولوا إلى المذهب الجديد من ناحية أخرى . الا أن وليم مكرم عبيد قد بقى على أرثوذكسيته طوال حياته[٩] . وهذا الالتزام والاخلاص يقدم مؤشرا لطموح عبيد الشخصى المبكر . إذ أدرك أن طموحه السياسى يفرض عليه الألتزام بالكنيسة الوطنية المصرية . بينما البروتستانتينية مرتبطة فى الأصل بكنيسة أجنبية . وكانت تعتبر ـ فى ذلك الوقت لدى العائلات القبطية ـ كظاهرة مستوردة . وتؤكد شخصية عبيد وحياته العملية طموحه السياسى المستمر . وكذلك دافعه لكى يلعب دورا فعّالا فى مجال السياسة المصرية بدون أى أعتبار كبير للعامل الدينى . والملاحظ عند دراسة خلفيته الاجتماعية أن عبيد لم يكن سليل « الأرستقراطية » القبطية الحقيقية . لأن الوضع الاجتماعى لعائلته لم يكن على نفس مستوى العائلات الثرية المعروفة والتى تملكت بالشراء أراض زراعية واسعة من الدائرة السنية . والتى تحمل أسماء مثل غالى وحنا ودوس[١٠] .

وكى نتعمق فى بحث الدور السياسى الوطنى لمكرم عبيد. يصبح من الضرورى إلقاء نظرة سريعة على مراحل تطور الحياة السياسية المصرية والحركة الوطنية التى كانت بداياتها الحقيقية قد ظهرت منذ حوالى قرن تقريبا . فعندما وصل عرابى إلى طليعة الحياة السياسية المصرية كزعيم للضباط الوطنيين التفت القوى الشعبية حوله كرمز للمواجهة ضد استبداد الخديوى والعناصر الأجنبية فى الحكم . وعلى الرغم من أن الخطوات الأولى لزعامة عرابى فى الجيش كانت ذات طابع فئوى . الا أنه حين اتسع نطاقها اكتسب عرابى سمات الزعيم الوطنى الحقيق[١١] ولقد اتخذت مجموعة الوطنيين من ثورة عرابى إشارة بدء لعمل فكرى جسور وهو الاصلاح الدينى والاجتماعى وإحياء حضارة

---

(٨) المصدر السابق نفسه .

(٩) المصدر السابق نفسه .

(١٠) هذه النقطة كانت موضع مناقشة فى مقابلة مع الاستاذ محمد حسين هيكل فى ١٠ سبتمبر ١٩٧٥ .

(11) A.L. Al-Sayyid, op. cit., p.9.

إسلامية إيجابية تتفاعل مع التطورات الحديثة فى كافة المجالات . وإن كان من غير المنطق محاولة تقييم مجهودات جمال الدين الأفغانى أو محمد عبده أو رفاقهما داخل الأطار الوطنى المحلى للثورة العرابية (١٢) ومع ذلك فلم يكن جمال الدين الأفغانى أو محمد عبده وتلاميذهما بعيدين عن محاولة أثارة الروح الوطنية كخطوة لتحقيق الهدف الشامل وهو بعث الأمة الاسلامية الواحدة حتى يصبح فى امكان المسلمين أن يحققوا ذاتهم ويبرزوا هويتهم دون الاعتماد على الدول الأوربية أو التقيد بها على أساس أن الدين الإسلامى ـ بسبب قوته الروحية ـ قادر على التكيف مع الأحوال المتغيره لكل عصر(١٣) .

واعتبر الأفغانى ومحمد عبده الارتباط بين نهضة البروتستانية ، وبروز شخصية الدول الأوربية الحديثة كحافز مشابه وموازلاً رائهم الداعية للإصلاح من أجل المسلمين(١٤) .

كما اعتبر محمد عبده ـ بدوره ـ البرنامج الاصلاحى للأزهر . وإيجاد توافق بين الاسلام والحياة العصرية الحديثة كخطوة ضرورية للتحرر والتقدم(١٥) . وقد بدت الصورة أمام محمد عبده أن المسلمين منقسمون إلى طوائف وشيع كل منها يدعى أنه الصادق ذو الرأى الصحيح والمعتقد القويم . كما شعر بأن الدين الإسلامى ـ كما يفهمه أصحاب المذاهب ـ قد أصبح نظاما متسعا ومعقدًا . لدرجة أنه أصبح من الصعب على أى فرد ـ خاصة إذا كان غير مثقف ـ إدراك جوهر الإسلام . وكانت فكرة محمد عبده الخاصة بالوحدة الدينية والمبادئ الأخلاقية المشتركة داخل الجماعات الإسلامية ككل أو داخل كل دولة بمفردها تقوم على مبدأ التعاون المتبادل للحد من الشر وتعزيز الخير . (١٦) ولقد تمكن محمد عبده من أبراز النظام المدنى الإسلامى وأكد أن الحكومة الإسلامية الحقيقية تحوى الفضائل والفعاليات المعترف بها بصورة شاملة فى العالم الحديث . كما أن النظرية الإسلامية تتفق مع القانون الطبيعى إلى حد بعيد . (١٧)

ولقد وفد محمد رشيد رضا ـ الفقيه السورى . الذى توفى سنة ١٩٣٥ ـ إلى القاهرة حيث جعل من نفسه أكثر تابعى محمد عبده قربا له والتصاقا به . وكرس معظم حياته العلمية بوصفه المترجم

---

(12) J.&S. Lacouture, **Egypt in Transition**, London, 1958, p. 74

(13) C.C. Adams **Islam and Modernism in Egypt**, London, 1933, p. 13. See also Chapter 1, Note 61.

(14) C. Wendell, op. cit., p. 172.

(١٥) **الأزهر . تاريخه وتطوره** القاهرة ـ ١٩٦٤ ص ٢٥٢ . وانظر أيضا الفصل الأول هامش (٦٣) .

(16) C.C. Adams, op. cit., London, 1933, p. 172.

(17) M.H. Kerr, Islamic Reform, California, 1966, p. 150.

الرئيسي لسيرة محمد عبده ، ومؤسس صحيفة « المنار » ورئيس تحريرها وقد كتب فيها مقالات كثيرة ، وناقش عددا من القضايا ذات الأهمية[١٨] . وقد ساد التيار الاصلاحي كتابات المفكرين المسلمين ، ومارس تأثيره على الحركة الوطنية فى تلك الفترة . وعلى الأخص بالنسبة لأولئك الزعماء السياسيين الذين تأثروا بتعالیم محمد عبده وتتلمذوا على يديه .

.. وقد تكون العودة قليلا إلى الوراء ذات مغزى. فى سنة ١٨٧٩. كوّن الضباط الفلاحون Felloh Officers جمعية لمقاومة النفوذ الاجنبى فى مصر واطلقوا عليها اسم « الحزب الوطنى » وهو الذى عرف بعد ذلك باسم « الحزب الوطنى الأول » لتمييزه عن « حزب مصطفى كامل » فيما بعد . وعندما تمكن الأحتلال الأجنبى من مصر وسحق ثورة عرابى وسجن زعماءها أو نفاهم. بدأ أن المقاومة الوطنية للتدخل الأجنبى فى مصر أوشكت على التوقف . وكما هو الحال فى دول كثيره . فقد خمدت الحركة باعتقال زعمائها أو القائهم فى السجون .[١٩] وبينما كانت الحركة الوطنية فى مصر ــ أثناء عصر عرابى ــ ذات طابع دينى ووطنى وعاطفى وتهدف إلى إثارة الفلاحين المظلومين المضطهدين للمقاومة والكفاح . كانت الحركة الوطنية المصرية ــ فى بداية القرن العشرين ــ حركة فكرية يقودها سياسيون مفكرون ينتمون إلى أعيان الريف والمدن الصغيرة . وقد تأثر معظمهم بالحياة الأوروبية والحضارة الغربية . وبدا ذلك مجرد تحول من الإثارة الدينية إلى العمل السياسى المنظم .[٢٠] وقد تركزت المشاعر العدائية ضد الأحتلال أثناء السنوات الأولى للقرن العشرين . وتمثلت فى إنتقاد سياسات بريطانيا العظمى تجاه مصر . وتفاعل الشعور الدينى مع الطموحات الأقتصادية الوطنية لدى المثقفين المصريين ليدعم الحملة المعادية لبريطانيا[٢١] .

وكان أروع أسهام لمصطفى كامل فى الحركة الوطنية . هو اصراره ــ منذ أيامه الأولى كخطيب ومدافع عن قضية مصر أمام أوروبا والعالم المتحضر ــ على الضرورة الأساسية للوحدة بين جميع من يسمون أنفسهم مصريين . واتبع أحمد لطفى السيد الخطوات نفسها طوال حياته سواء الأكاديمية أو السياسية الطويلة والمتنوعة . وبدت الأمة المصرية ــ كما برزت من خطب مصطفى كامل ــ قوية ومؤثرة وتتشابه أحاديث أحمد لطفى السيد مع اتجاهات مصطفى كامل . على الرغم من

---

(١٨) لمزيد من الدراسة أنظر كتاب محمد رشيد رضا (الخلافة والأمامة العظمى) القاهرة . ١٩٢٣

(19) J.M. Landau, **Parliaments and Parties in Egypt,** Tel Aviv, 1953, p. 104.

(20) **Ibid,** p. 135

(21) **Ibid,** p. 136

أنها كانت فى كثير من وجوهها تنزع تجاه التطرف والصرامة التى كان لطفى السيد يتفاداها أو يدنو منها بحذر، [٢٢] فنى أثناء فترة الخلافات الداخلية ذات الطابع الطائفى والتى نتجت عن أغتيال بطرس غالى باشا، كتب لطفى السيد: إن وقت ظهور الأخوة قد حان. ويبقى على الأغلبية المسلمة أن تمد يد الإخلاص والتضامن لأخوتهم لخدمة أرض أجدادهم المشتركة. [٢٣] كما كان لطفى السيد تعبيرا للفكر الليبرالى فى مصر الحديثة وتجسيدًا للروح العلمية فى الحياة السياسية.

وقد ظهر إلى الوجود ـ قبل عام ١٩٠٧ ـ عدد صغير من الجماعات السياسية. ولكن فى الربع الأخير من تلك السنة. ظهرت ثلاثة أحزاب رئيسية قدر لها السيطرة على الحياة السياسية أثناء تلك الفترة التى أمتدت إلى وقت نشوب الحرب العالمية الأولى، وكانت تلك الأحزاب الثلاثة هى: حزب الأمة. وحزب الإصلاح الدستورى. والحزب الوطنى. ومع ذلك فإنه لم يكن من الممكن لتلك الجماعات السياسية أن تقوم ما لم يكن هناك بالفعل قدر كبير من الأفكار السياسية السائدة. ولقد تجمع عدد من المتأثرين بفكر الأمام المستنير محمد عبده وأصدروا العدد الأول من (الجريدة) فى ٩ مارس ١٩٠٧. ولم يكن على الصحيفة الجديدة أن تنتظر طويلا قبل أن تنهال عليها الأنتقادات القاسية. فقد أتهم رئيس تحريرها (لطفى السيد) بأنه متمرد وثائر ضد السلطان. كما وجهت التهم إليه وإلى رفاقه بأنهم مدافعون عن السياسة البريطانية. [٢٤] وكان هذا ادعاءًا تردد كثيرًا ضد جماعة محمد عبده لأن معظمهم كان يعمل فى الإدارة البريطانية. ومع ذلك فقد اشتهرت (الجريدة) بسرعة لإعتدالها ورصانتها. وفى غضون عدة أشهر قرر ـ الذين أسسوها ـ تشكيل حزب سياسى تكون (الجريدة) لسان حاله. والناطقة باسمه. وألقى حسن باشا عبد الرازق. نائب رئيس الجمعية التأسيسية للحزب. خطابًا حدد فيه سياسته. إذا أعلن أن الهدف الرئيسى للحزب هو تكوين شخصية مصرية. وبلورة خصائص سياسية مميزة لها. وكان الحزب يعتقد أن أى تقدم يتم أحرازه. أو أى درجة من الإستقلال يتم تحقيقها. من الممكن ألا تكون ذات قيمة دائمة ما لم يتم أقامتها على أساس الشعور بالوحدة والتضامن. وهما أمران كانت

---

(٢٢) انظر على سبيل المثال على كامل. مصطفى كامل باشا فى أربعة وثلاثين ربيعا. القاهرة ـ ١٩٠٨.
وعبد الرحمن الرافعى. مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية. القاهرة ـ ١٩٣٩

(٢٣) الجريدة ـ ٦ مايو ـ ١٩١١.

(24) J.M. Ahmed. op. cit. p.69

وصبحى وحيده ـ مرجع سابق. ص ـ ٢٤٥.

مصر فى حاجة ملحة إليها . وقد تكوّن الحزب من أفراد ينتمون إلى عائلات لها جذور عميقة فى تربة مصر ، فكانت لهم مصالح وأهتمامات حقيقية فى مستقبل البلاد . وكان الحزب يركز أهتماماته بصفة خاصة على مشكلات الريف . وينبه إلى مخاطر أفتقاد الأمن فى القرى . وأعلن قادة الحزب أنهم سوف يحاولون إصلاح جهاز العدالة . كما أن حاجات سكان الريف قد تجاوزت نظام الرى السائد . مما يجعل تنفيذ مشروعات جديدة وكبيرة أمرًا ضروريًا . إلى جانب أهمية التوسع فى التعليم . كما يتعين أيضًا على المدارس العليا أن تعد مزيدًا من الرجال القادرين على تولى مهام الخدمة المدنية . وكانت آخر نقطة فى برنامج الحزب ـ والتى أصبحت أهم النقاط فيما بعد ـ هى : توسيع نطاق سلطات المجالس المحلية . والجمعية التشريعية . تمهيدًا لدعم الإدارة الوطنية . ولم تبد هذه الأهداف بالنسبة للوطنيين عمومًا مختلفة كثيرًا عن السياسة المعلنة لبريطانيا[٢٥] . إذ كانت تحتوى على جميع عناصر الأجراءات التدريجية . وبدأ لهم أنها تعنى أن حزب الأمة كان يثق فى بريطانيا . وإنه سوف يتعاون معها فى تهيئة الدولة المصرية لنيل الأستقلال . كما لفت النظر عدد من الوطنين إلى العلاقات الشخصية الوثيقة التى كانت تربط ما بين بعض أعضاء الحزب . وعدد من كبار المسئولين البريطانيين . فى وقت كانت فيه العلاقات بين البلدين ـ بصفة عامة ـ أكثر توترا من أى وقت مضى[٢٦] . كما أن الخديوى نظر أيضا إلى مولد الحزب بعين الريبة والشك . فقد كان يمثل ـ فى نظره ـ تحالفا بين مجموعة من المثقفين وعلية القوم بالأقاليم . كما أن عددًا كبيرًا من الذين كان لهم دور فى تكوينه . كانوا ينتمون إلى عائلات مصرية لعبت دورًا فى دعم حركة عرابى منذ جيل مضى .

وكانوا معارضين ـ من حيث المبدأ ـ لا ستمرار دور للخديوى . تمامًا مثلما كانوا معارضين لا نعدام أى نوع من الرقابة على سلطة البريطانيين . وكانوا يرغبون فى أن يلعبوا دور « القوة الثالثة » لمراقبة القوتين الأخريين[٢٧] . وقد جذب أعتدال الحزب عددًا من زعماء الأقباط ووجهائهم . مثل فخرى بك عبد النور . وسينوت بك حنا . الذين أصبحوا بعد ذلك من زعامات حزب الوفد المصرى[٢٨] .

---

(25) J.M. Ahmed. op. cit. p.70.

(٢٦) عباس العقاد « قصة الأحزاب » ـ أخبار اليوم ـ القاهرة . ٦ نوفمبر ١٩٤٦

(٢٧) حسين فوزى النجار ـ أحمد لطفى السيد ـ القاهرة ـ ١٩٧٥ ـ ص ـ ٢٠٠

(28) J.M. Ahmed. op. cit. p.71

... وقد ظهر الحزب الوطنى إلى الوجود ـ رسميًا ـ بعد إنشاء حزب الأمة بوقت قصير . إلاّ أن الحزب كان موجودًا بالفعل ، طوال عدة سنوات متمثلا فى مؤيدى جهود مصطفى كامل . فقد كان الزعيم الوطنى الشاب . لا يؤمن بإنشاء حزب بصورة رسمية . لأنه كان يعتقد أن إنشاء الأحزاب يؤدى إلى تقسيم وتفتيت الأمة . إلا إنه ما أن تم إنشاء حزب الأمة حتى كتب إلى صديقه ورفيقه ـ محمد فريد ـ يبلغه بأن الحزب الوطنى . الذى تحمل العبء الرئيسى للكفاح ضد الأحتلال طوال ثلاثة عشر عامًا . يتعين انشاؤه رسميًا . كما انتقد حزب الأمة لسياسته القائمة على الفلسفة التدريجية . وتم عقد إجتماع كبير فى ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧ . بالإسكندرية . وألقى مصطفى كامل أطول خطبه . وأكثرها تأثيرًا . فى جمهور يزيد على ستة آلاف شخص . تكونوا أساسًا من سكان المدينة خصوصًا الطلاب . إلى جانب عدد قليل من علية القوم الذين جذبتهم إليه حماسته وجديته . وتحدد الخطاب ـ فى نواح كثيرة ـ مرحلة هامة فى تطور المفاهيم والأهداف السياسية لمصطفى كامل . ولم يكن البرنامج الذى دافع عنه يختلف كثيرًا عن برنامج حزب الأمة فى المبادئ الأساسية . لكنه أعترف ـ ربما للمرة الأولى ـ بأن مصر يمكنها أن تتطلع لا إلى تركيا ولا إلى فرنسا من أجل خلاصها . بل إلى جهودها الذاتية وحدها . وفى ديسمبر من العام نفسه . تبنت اللجنة التنفيذية للحزب الوطنى برنامجًا يدعو إلى ربط الشعب بانجازات الحكومة . والتأكيد على أن الروابط والصلات بين المسلمين والأقباط يتعين تقويتها ودعمها [٢٩] .

... أما الحزب الثالث وهو حزب « الإصلاح الدستورى » فقد كان مثل الحزب الوطنى . يدور محوره حول رجل واحد هو الشيخ على يوسف . وقد مارس على يوسف أنشطة مختلفة فى حياته . لكن أهمها كان رئاسته لتحرير صحيفة « المؤيد » طوال ثلاثة وعشرين عامًا . أبتداء من أول صدور لها فى عام ١٨٨٩ حتى أعتزاله المجال السياسى والصحفى سنة ١٩١٢ . وقد ظل طوال حياته المهنية والحزبية . كرئيس تحرير وكشخصية عامة . وفيًا ومخلصًا للخديوى . وحين أختلف مصطفى كامل والخديوى . وأنقطعت العلاقات بينهما بعد توقيع الأتفاقية الأنجليزية ـ الفرنسية عام ١٩٠٤ . أقترب الخديوى أكثر من على يوسف . الذى لم تكن عواطفه الإسلامية مؤيده للأتراك . لكنه ـ مع ذلك ـ بدا أنه يخدم أهداف الخديوى . وعندما تكون حزب الأمة .

---

(29) Ibid. p.77 .

وأنطلق مصطفى كامل للعمل من أجل أنشاء حزبه السياسى . صاغ على يوسف ومن خلفه الخديوى وبمساعدة عدد من الوجهاء وعلية القوم وكبار المسئولين . برنامج حزبه وكان أول هدف معلن له هو تأييد ودعم السلطات الخديوية فى نطاق الحدود والقيود التى أرستها الفرمانات التى أجازها السلطان . وأجبار بريطانيا على الوفاء بوعودها الخاصة بالجلاء . كما أعلن الحزب أيضا أنه يناضل من أجل إنشاء هيئة نيابية مصرية لتضع التشريعات المتصلة بجميع المسائل التى تخص المصالح المصرية . ومن أجل تعليم مجانى شامل . مع جعل اللغة العربية هى لغة التدريس . ومن أجل إحلال مصريين محل الموظفين الأجانب . ومن أجل توحيد النظام القضائى . كما أعلن البرنامج فى مقدمته . إنه يتعين الفصل بين الدين والسياسة فى كل الأنشطة الحزبية . وفى خطابه فى الأجتماع العام الأول للحزب . أعلن على يوسف أن حزبه يتفق مع مصطفى كامل فى ضرورة تحقيق الجلاء . لكنه يختلف معه فى الوسائل التى يتعين أستخدامها لذلك . إذ أن الأقناع وسيلة أكثر فعالية من القوة .[٣٠]

.. وبعد وفاة مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ . فقدت الحركة الوطنية المصرية حيويتها . كما خمد الحماس الوطنى وكانت الأعوام العشرة التى أعقبت وفاة مصطفى كامل حتى عام ١٩١٨ بمثابة مرحلة إنتظار وترقب . وهى أيضًا سنوات العلاقات الحساسة بين المسلمين والأقباط[٣١] . ويمكن أعتبار تلك الأعوام بمثابة الفترة التحضيرية لثورة ١٩١٩ . وهى ذاتها الأعوام العشرة التى مهدت الطريق لقيام الوفد كحزب . والذى توجد أكثر من قصة واحدة تتعلق بمولده . ونشأته . إحداها مصدرها الأمير عمر طوسون الذى يزعم إنه هو الذى فكر فى فكرة إنشاء الوفد فى الأسابيع الأولى من عام ١٩١٨[٣٢] ، وفى مذكراته . يورد سعد زغلول نفسه . أن فكرة الوفد بدرت فى ذهنه فى نفس الوقت الذى بدرت فيها فى ذهن آخرين . لكنه أتخذ الخطوة العملية . بدعوة زملائه للأشتراك فيه[٣٣] .

وفكرة مماثلة بدرت فى ذهن رئيس الوزراء فى ذلك الوقت ــ حسين رشدى باشا ــ الذى كان

---

(30) Ibid. p.81

(31) See.. Seikaly. op. cit., p.p. 226 - 230.

(٣٢) محمد زايد ــ من عرابى إلى عبد الناصر ــ الحركة الوطنية الحديثة بيروت ــ ١٩٧٣ ــ ص ــ ٩٧ .

(٣٣) أنظر . عبد الخالق لاشين ــ « سعد زغلول » (دراسة حول زغلول حتى عام ١٩١٤) ــ مع ملحق عن مذكراته ــ القاهرة ــ ١٩٧١ .

يتهيأ لزيارة لندن على رأس وفد مصرى لمناقشة المطالب الوطنية مع البريطانيين(٣٤) ، وفى ١٣ نوفمبر ١٩١٨ ، توجه سعد زغلول ، وعبد العزيز فهمى ، وعلى شعراوى إلى مقر المندوب السامى حيث قابلوا سير ريجينالد وينجات ـ للمطالبة بإستقلال مصر ، ويعتبر ذلك الإجتماع البداية التاريخية لقيام حزب الوفد ، وقد تركزت مطالبهم ـ فى ذلك اللقاء ـ على أساس الطبيعة المؤقتة للحماية البريطانية فى مصر ، وقال سعد زغلول لوينجات أن « أنجلترا أقوى الدول العظمى ، وأكثرها ليبرالية ـ وباسم مبادئ الحرية التى ترشدها وتهديها ـ نطالب بأن نصبح ـ أصدقاءها » وقد عمل المندوب السامى البريطانى ـ بحذر ـ لكسب الوقت ـ لكنه أوصى وزارة الخارجية ببدء المحادثات ـ وبالسماح بوفد يعرض قضيته فى مؤتمر سلام كان على وشك أن يعقد فى باريس ـ وذلك كوسيلة لاستكشاف عدد من المشكلات السياسية ـ وأجابت لندن ـ بعنف وحدة ـ وقررت أتخاذ « موقف حازم » ـ وأحتج سعد زغلول ـ ونظم عدة أجتماعات ـ كما بعث ببرقية إلى مؤتمر باريس ـ وفى ٨ مارس ١٩١٩ نفى رئيس الوفد وثلاثة من انصاره وهم ـ محمد محمود ـ وإسماعيل صدقى ـ وحمد الباسل ـ إلى جزيرة مالطة ـ ولكن أدركت انجلترا أن الأمة المصرية الحديثة قد ولدت بالفعل(٣٥) .

وفى صباح ٩ مارس اندلعت الأضرابات والمظاهرات وأعمال التخريب فى جميع أنحاء البلاد من الأقصر إلى الإسكندرية ـ وكانت القوة والجاذبية الرئيسية للوفد ـ تكمن فى شخصية سعد زغلول ـ الزعيم الشعبى الذى نشأ فى الريف ـ وهو ابن فلاح مصرى من الوجه البحرى ـ حفظ القرآن وتشرب الثقافة التقليدية فى الأزهر قبل أن يتعلم الفرنسية وهو فى الأربعين من عمره وقد أشترك فى الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ ، بينما كان قاضيًا شابًا جنبًا إلى جنب مع أستاذه محمد عبده ـ فبالإضافة إلى رجل مثل محمد محمود ـ المثقف المصرى خريج أكسفورد ـ والذى كانت ثروة أسرته ومكانة والده مرموقة فى صعيد مصر ، كان هناك رجل آخر هو أحمد لطفى السيد ـ أحد مريدى الأمام محمد عبده ـ وواصف غالى ـ سليل عائلة قبطية معروفة ـ ومصطفى النحاس ـ وحافظ عفيفى ـ اللذان يمثلان شباب الحزب الوطنى من المتحمسين لمصطفى كامل ، لقد كان هؤلاء وآخرون يمثلون سويا الجيل الجديد من قيادات الحركة الوطنية وساسة الأحزاب ، أما سعد

---

(٣٤) محمود زايد مرجع سابق ـ ص ـ ٩٩

(35) I & S. Lacouture, op. cit., pp. 86 -87.

زغلول وهو النتاج الحقيقى لسنوات المخاض الفكرى والتمرس السياسى فلم يلبث ـ بعد انتخابه لزعامة الوفد ـ أن بدأ يجمع ما بين أسلوب مصطفى كامل ، الوطنى المتصلب ، وأفكار الأمام محمد عبده ، الداعية المصلح ونصير الحريات . وقد أجتاز الوفد بزعامة سعد زغلول كل المصاعب والتحديات ، وقد عانى زغلول من السجن والنفى ، لكنه أصبح فى النهاية زعيم الوفد بلا منازع ، وقد أعطته الجماهير تأييدًا كاسحًا وحماسًا قويًا ، وبعد ثلاث سنوات فقط من إختياره لزعامة الحزب ، أصبح قويًا بصورة كافية مكنته من طرد عدد من زملائه الأول الذين أدت طبيعتهم الشخصية وخلفيتهم الفكرية وروابطهم العائلية إلى إبتعادهم عن الأتصال بالجماهير أو التلاحم معها ، فطرد أحمد لطفى السيد ، المنظر واسع العلم والمعرفة ، ومحمد محمود ، المصلح المتحفظ إلى حد التزمت ، وعدلى يكن ، الأستقراطى التركى المصرى ، وغيرهم لأنهم كانوا يشكلون أغلبية فى اللجنة التنفيذية للحزب ، فقد كان على سعد زغلول أن يعلن سخطه عليهم كمبرر لسقوطهم فى أعين الجماهير ، إلاّ أن ما فقده بخروجهم كسبه فى الأعضاء الجدد ، ومنهم مكرم عبيد ـ المحامى الشاب الذى صعد ـ فيما بعد إلى منصب سكرتير الحزب الذى يتطلع إليه الكثيرون ، وهو المنصب الذى صاغ مستقبله طوال عقدين من الزمان تقريبًا ، ويرجع أصله ـ مثل مصطفى النحاس الذى تولى زعامة الحزب بعد سعد زغلول ـ إلى أسرة ريفية من الطبقة المتوسطة[٣٦] ، ولقد أكتشف سعد زغلول ، الذى كان يؤمن بإحترام الدستور وسيادة القانون ، أنه فى سعيه للسلطة ينبغى أن يخاطب الجماهير بأسلوب يثير حماسها[٣٧] .

ومثلمًا يتعين النظر إلى ثورة ١٩١٩ السياسية فى إطار نتائج الحرب العالمية الأولى ، كذلك فإن التغيرات الأجتماعية المصاحبة للثورة كانت تعكس التطورات الأقتصادية التى حدثت فى زمن الحرب ، فقد كشفت الحرب عن وجود ثغرات كبيرة فى الأقتصاد المصرى ، وأظهرت ما يعانى منه إقتصاد يعتمد أساسًا على تصدير محصول واحد هو القطن ، وعلى التمويل الأوروبى الضخم لتسويق هذا المحصول ، وكان بنك مصر هو أهم المؤسسات الأقتصادية الجديدة التى تم أنشاؤها

---

(36) J.M. Ahmed, op. cit. p.p. 114-115.

(37) E. Kedourie, **sa'ad Zaghloul and The British,** St. Antony's papers, Number 11. **Middle Eastern Affairs,** Number Two. Edited by A. Houcani, London, 1961, p. 156.

بعد الحرب العالمية الأولى ، ويرجع الفضل فى قيامه إلى طلعت حرب[٣٨] ، وبوصفه أحد الأعضاء المؤسسين فى (الجريدة) صحيفة حزب الأمة ، فقد أكد طلعت حرب على وجوب أن تتضمن الصحيفة مقالات تعالج الشئون الأقتصادية ، وكتب هو نفسه عديدًا من تلك المقالات طالب فى أحداها بالعمل على بناء قاعدة أقتصادية للأستقلال السياسى ، ومع أن البنك تم أنشاؤه برأس مال متواضع ، إلاّ إنه نال أهتمامًا كبيرًا من الصحافة المصرية ، وأستخدم طلعت حرب بنك مصر كأداة للتطور الصناعى والبناء الأقتصادى ، وبدأ فى عام ١٩١٣ ، أستثمار قدر من فائض أرباح البنك فى إنشاء الصناعات القومية ، وتوسع فى هذا البرنامج فى السنوات التى تلت ذلك[٣٩] . وكان أتحاد الصناعات المصرية هو ثانى مؤسسة عكست أتجاهات جديدة فى مجال الأقتصاد . وقد شكلت هذه المؤسسة ـ التى أنشئت فى ١٩٢٢ ـ القطاع الصناعى ذا الطابع العصرى الحديث بدلا من مجموعات الحرفيين والصناع اليدويين المحليين التى كانت ما تزال هى السائدة فى ذلك الوقت . وكانت النقابة الزراعية المصرية العامة هى ثالث مؤسسة أقتصادية جديدة يتم أنشاؤها بعد الحرب . وكانت تمثل مصالح كبار ملاك الأراضى فى مصر ، ورغبتهم فى احراز سيطرة أكبر على تسويق القطن . وتعد تلك المؤسسات الأقتصادية الثلاث الجديدة من نتائج ثورة ١٩١٩ المصرية . وعكست ـ مثلها مثل حركة سعد زغلول السياسية ـ أتجاهًا وطنيًا قويًا ، فكانت المطالبة بأن يكون البنك الجديد مصريًا صرفًا . وبمساهمين مصريين فقط . وبمجلس إدارة مصرى . مقدمة لأن يتولى بنك مصر مهمة خلق دعامات الأستقلال السياسى لمصر ، كما سعى اتحاد الصناعات المصرية ـ على الرغم من أنه كان خاضعًا لتحكم وسيطرة ما يمكن تسميتهم Cosmopotitans of Egypt أيضًا إلى خلق أقتصاد مصرى أكثر تنوعًا بقطاع صناعى قوى . وأثارت النقابة الزراعية المصرية العامة المشاعر ضد تحكم وسيطرة مجموعة صغيرة من التجار الأوروبيين فى تسويق القطن المصرى . وكمنت تلك المطالب الوطنية الواضحة فى الخيال القوى الخصب . ولم يكن مؤيدو تلك المؤسسات الجديدة يحاولون خلق إقتصاد قومى مستقل

---

٣٨) تخرج طلعت حرب من مدرسة الحقوق المصرية . وبدأ حياته العملية كمترجم فى الدائرة السنية . ومارس أنشطة عديدة فى المجالات الأقتصادية والسياسية . ويعد بحق أب الأقتصاد القومى المصرى الحديث .

(39) R.L. Thignor, "**The Egyptian Revolution of 1919: New Directions in the Egyptian Economy**" Middle Eastern Studies, Vol. 12, No. 3, London, October, 1976, p. 58.

تمامًا ، بل كان هناك نوع من الأدراك الواعى للحاجة إلى الأعتماد على قدر معين من المعونة الفنية ورؤس الأموال الأجنبية . وسعى الحس الوطنى فى الوقت نفسه إلى مقاومة اتجاهات كرومر الذى كان ينظر على ضوئها إلى مصر كدولة زراعية فقط . تصدر القطن لتصنيعه خارجها . وقد هيأ التطور الصناعى ، ونظام التعريفة الجمركية المعدلة حماية للصناعات الوليدة . وإنهاء الأعتماد على زراعة محصول واحد . كما كان قيام تلك المؤسسات الجديدة بداية ازدهار للبورجوازية المصرية[٤٠] . وقد أدت تلك المؤسسات الجديدة إلى أنتعاش عدد من عائلات القرن التاسع عشر فى مصر التى كانت محظوظة بدرجة تكفى لأن تصبح من ملاك الأراضى الكبار . نتيجة للتغيرات التى حدثت فى قوانين الأرض وتوزيع الملكيات والضياع الخاصة . التى وزعها محمد على وخلفاؤه . ويمكن أعتبار مكرم عبيد ـ بوصفه واحدًا من أفرازات ثورة ١٩١٩ ـ واحدًا من تلك الشخصيات التى تحمست لأنشاء المؤسسات الجديدة للأقتصاد القومى المصرى وهو الذى كرر ـ فى مناسبات عدة ـ القول بأن التطور الأقتصادى المصرى سوف يؤدى إلى أحداث تطور سياسى واجتماعى للأمة المصرية .

... وقد أنضم مكرم عبيد إلى وزارة العدل فى ١٩١٣ كسكرتير للجريدة الرسمية (الوقائع المصرية) ثم عمل بعد ذلك سكرتيرًا خاصًا لهيئة المستشارين القانونيين البريطانيين للوزارة ـ من عام ١٩١٥ إلى عام ١٩١٨ ـ وقد حدث أن كتب مرة مذكرة أقترح فيها إنشاء نوع من التحالف بين مصر وبريطانيا . وهو ما كان موضع أهتمام كبير فى ذلك الوقت[٤١] . وأستقال من منصب السكرتارية فى عام ١٩١٩ . وأعتبر خطاب أستقالته المفتوح ـ الذى نشر فى الصحف ـ على نطاق واسع . أحد المقالات الوطنية الرائعة . وقيل أن خطاب الأستقالة لفت أنتباه سعد زغلول إليه للمرة الأولى . ثم عين مكرم عبيد كمدرس فى مدرسة الحقوق الملكية حيث كان يلقى محاضرات فى قانون العقود Law of Contracts، وكان محمد صلاح الدين ، وإبراهيم عبد الهادى ومحمد سليمان غنام ، من بين طلبته ، وهم الذين أصبحوا ـ فيما بعد ـ أعضاء قياديين فى حزب الوفد . لكنهم كانوا فى ذلك الوقت مجرد أعضاء فى لجنة الطلبة التابعة للحزب . وقد طرد عبيد من مدرسة الحقوق فى أغسطس ١٩٢١ . لأنه كان قد أشترك فى مأدبة تكريم لسعد زغلول . وفى خطاب عام

---

(٤٠) المرجع السابق ـ ص ـ ٦٤ .

(٤١) من سجلات (المباحث العامة المصرية) القاهرة ـ ١٩٦١ .

ألقاه فى سبتمبر ١٩٢١ ، أعلن صراحة إنه لن يحتفظ باسم « وليم » ، لأنه أسم أجنبي ، وأكد أنه يرغب من ذلك الوقت فصاعدًا ، فى أن يعرف باسم مكرم عبيد ، وكان قد كتب ـ قبل ذلك بعامين فى سنة ١٩١٩ ـ مذكرة عامة انتقد فيها سياسة سير والتربرونيات ـ المستشار البريطانى فى وزارة العدل ـ وقد لفتت تلك المذكرة أنظار عدد من الوطنيين إليه . وقد شارك عبيد بحماس فى الترحيب بسعد زغلول سنة ١٩١٩ لدى عودته من منفاه فى مالطه ، وفى تلك المناسبة قدم ويصا واصف مكرم عبيد إلى سعد زغلول . بصفته الرجل الذى كتب مذكرة ضد المستشار البريطانى فى وزارته ، الاّ إنه حتى عام ١٩٢١ لم يكن هناك أتصال قوى مباشر بين سعد زغلول ومكرم عبيد[٤١] .

.. فإذا رجعنا إلى مسألة مشاركة الأقباط عمومًا فى الوفد . فقد بدأت فى وقت مبكر عن ذلك . عندما توجه سعد زغلول واثنان من زملائه لمقابلة المندوب السامى البريطانى فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨ . فبعد ذلك بعدة أيام . عقدت مجموعة من علية القوم الأقباط إجتماعًا فى (نادى رمسيس) . ناقشوا فيه حقيقة إنه لم يكن هناك بين الزعماء الثلاثة قبطى واحد . وكان من الحاضرين فخرى عبد النور . وويصا واصف. وتوفيق اندراوس وقرروا مقابلة سعد زغلول وإثارة مسألة خلو الوفد من عناصر قبطية . وفى اللقاء طلب منهم سعد أختيار واحد ليمثلهم فى المرحلة الجديدة من الحركة الوطنية . فرشحوا ثلاثة أسماء : واصف بطرس غالى . وسينوت حنا . وجورج خيّاط . وأدى الثلاثة القسم أمام سعد زغلول . وفى حضور حمد الباسل ـ الوجيه البدوى من الفيوم ـ الذى كان قد نفى مع سعد زغلول إلى مالطة وقد أستفسر خياط بصورة مباشرة عن الدور القبطى فى الحركة السياسية والوطنية . فأجابه سعد زغلول قائلا له : « أن الأقباط مثل المسلمين لهم نفس الحقوق . وعليهم نفس الواجبات . فالمصريون جميعًا سواء[٤٣] » .

وقد أصبح الأقباط وثيق الصلة بسعد زغلول . وأظهروا دوما ولاءهم وأخلاصهم لزعامته . وعندما واجه الأنشقاق الأول فى الحزب فى يونيو ١٩٢١ . ظل معظمهم إلى جانبه مؤيدين خطه الوطنى المتشدد من أجل الأستقلال الكامل . وقد ألتف حول سعد زغلول أثناء خلافه مع عدلى

---

(٤٢) من مقابلة مع السيد سعد فخرى عبد النور فى ١٣ سبتمبر سنة ١٩٧٤

(٤٣) طارق البشرى ـ مرجع سابق ـ الكاتب ـ العدد ١١٥ ـ القاهرة أكتوبر ١٩٧٠ .

يكن ، ثلاثة من الأقباط هم : واصف غالى وسينوت حنا وويصا واصف ، وكان مكرم عبيد بين الشباب الأقباط المحيطين بسعد زغلول . وقد أعجب سعد زغلول بذكاء مكرم عبيد ، وثقافته وتأثيره القوى وسحر شخصيته لدى الجماهير. إلى جانب كفاءته كمتحدث وكاتب ممتاز باللغة الأنجليزية فى ذلك الوقت ، لذلك فقد قدر لمكرم عبيد أن يكون مبعوث سعد زغلول إلى لندن فى أكثر من مناسبة ليقدم الاحتجاجات ضد أنشطة المعتدلين فى الحركة الوطنية وذلك لأن مؤيدى سعد زغلول كانوا يعتبرون أنفسهم الممثل الحقيق للأمة المصرية . وفى رسالته للاجيبشيان جورنال فى لندن ، كتب مكرم عبيد مخاطبًا محررها يقول(٤٤) :

« علاوة على ذلك ، فأنت تسألنى عما إذا كان أعضاء الوفد المصرى المعارضين يمثلون الأمة ، وإننى لأجيبك ــ مرة أخرى ــ بكل تأكيد ، إنه لا هم ولا حكومة عدلى يمكنهم بأية طريقة الإدعاء بأنهم يمثلون الشعب ، بل إننى أقول أكثر من ذلك إنهم وحكومة عدلى هم المسئولون فقط عن إقناع الشعب البريطانى والأوروبى بأنه يوجد شقاق فى صفوفنا ، ومع ذلك ، فإن مهمتى الأساسية هى أن أثبت لهم ــ بعيدا عن أى ظلال من الشكوك ــ بأن الأمة المصرية متحدة . وستظل كذلك فى دعم هدفها الوطنى وزعيمها المختار . والمواطن الإنجليزى يحكم على الرجال بجوهر آرائهم وليس بتعبيرهم الظاهرى ، ولا يمكنك أن تنكر حقيقة أن لورد ملنر . والحكومة البريطانية وجزءا كبيرًا من الرأى العام البريطانى يدركون أن حكومة عدلى تمثل رأيا لا يتفق مع الإجماع العام للأمة المصرية بخلاف زغلول باشا. الذين يعتبرونه متطرفا. وقد ذكر مستر بيرشيفال لاندون الذى أعلن فى مقال سابق فى الديلى تلجراف أن زغلول باشا لم يكن فى إمكانه التفاوض مع البريطانيين ، لأنه كان معارضًا لمشروع ملنر ، وهو أيضًا الذى يتحدث فى مقال آخر عن الأمل فى أن عدلى باشا بنزوعه إلى حل وسط معتدل سوف يتوصل مع الحكومة البريطانية إلى الهدف المشترك . إنك تقول أن زغلول باشا كان يرغب فى التفاوض مع عدلى باشا ، حقًا لقد كان كذلك ، ولكن وفقًا لشروطه الخاصة ، وعندما رفضها عدلى باشا . كان من الطبيعى أن يعارضه بكل ما أوتى من قوة إلى حد أنه كان لابد من أتخاذ اجراءات عسكرية قوية لحماية حكومة عدلى من غضب الشعب الذى يدعون الآن إنهم يمثلونه ، وعلى الرغم من هذه الحقائق ، فمازلت تثير مسألة رئاسة الوفد التى كانت حكومة عدلى ومؤيدوها ــ وما يزالون ــ يستغلونها بطريقة مزرية ، أن

---

(44) **The Egyptian Journal**, London, September 8, 1921

المسألة واضحة برمتها ، ولم أقابل مواطنًا أنجليزيًا واحدًا لا يتفق مع معظم الشعب المصرى فى هذه النقطة . وأخيرًا ، أنت تسألنى عن السبب الذى من أجله يطالب زغلول باشا الآن بالغاء الأحكام العرفية ، بينما كان عدلى باشا يتفاوض - دون أن يضغط - لإلغائها ، كما حدث فى مفاوضاته مع ملنر ، وإننى فى الواقع عاجز عن فهمك ، أن زغلول باشا أشترط إلغاء الأحكام العرفية قبل مغادرته باريس ، وفى مصر - قبل أن تثور الخلافات والنزاعات الحالية بينه وبين عدلى باشا بوقت طويل - وعندما طلب منه التعاون فى المفاوضات الرسمية ، وافق على ذلك ، مشترطًا بالنسبه له ولعدلى باشا على حد سواء ، بالأ تجرى أية مفاوضات رسمية قبل إلغاء الأحكام العرفية ، وهو الإلغاء الذى سيثبت حسن نيه الحكومة البريطانية » .

وكان مكرم عبيد - فى ذلك المقال - يشدد على تمثيل سعد زغلول الحقيق والصادق للأمة المصرية . مؤكد أن عدلى باشا - رئيس الوزراء - يجب ألا يوافق على بدء المفاوضات الرسمية طالما أن الأحكام العرفية كانت ما تزال قائمة وسارية المفعول . وقد أبدى عبيد حيوية ونشاطًا بالغين أثناء مهمته فى لندن . وكتب مقالات عديدة فى الصحف . وعقد لقاءات صحفية مع كثير من الصحفيين البريطانيين . وقد عقد - على سبيل المثال - فى يوم واحد لقاءين أحدهما لصحيفة لندن أيفننج نيوز . والآخر للمانشستر جارديان . ونشرت صحيفة الأيفننج نيوز المقابلة تحت عنوان « البروفسور المصرى يطالب باستقلال تام » . بينما نشرت المانشستر جارديان المقابلة معها تحت عنوان « المفاوضات البريطانية - المصرية . رسول الإستقلال الحقيق ... لا لمشروع ملنر[٤٥] » .
وكتبت المانشستر جارديان تقول :

« أن مهمة البروفسور مكرم عبيد هى مخاطبة الرأى العام هنا بالأسباب التى دفعت أتباع زغلول إلى أتخاذ موقف المعارضة من وفد عدلى الذى يقوم حاليًا بالتفاوض من أجل معاهدة مع الحكومة البريطانية . وأعتبار أن أية معاهدة يتم توقيعها بهذه الصورة لن تلقى الموافقة فى مصر بصفتها حلاً مقبولاً[٤٦] »

وفى ٩ أغسطس ١٩٢١ . ألقى عبيد خطابًا مطولاً - كضيف على اللجنة البرلمانية المصرية - فى

(٤٥) مشروع قدمت به الحكومة البريطانية كبديل للاستقلال الكامل لمصر . وقد رفض المشروع سعد زغلول ورفاقه وأغلب قيادات الحركة الوطنية .

(46) The Manchester Guardian, August 4.1921

مأدبة أقيمت فى مجلس العموم أثار فيه عدة نقاط . مثل : حرية الكلام فى مصر ، والمهزلة الديمقراطية . وعلل أسباب عدم ثقته هو وزملاؤه فى المفاوضات الرسمية (٤٧) وأوجز فى خطابه الخلافات بين زغلول وعدلى قائلا :

«أن زغلول يعبر عن المثل الوطنية . وهو المندوب المعترف به للأمة المصرية . بينما عدلى هو ممثل الحكومة فقط . وبذلك يكون فى الحقيقة رجل بريطانيا» . وواصل عبيد خطابه بتقديم تصور للعلاقات الأنجليزية ـ المصرية الجيدة . وكان يعتقد أن الصداقة من الممكن أن تقوم وتتدعم إذا ما تحقق لمصر إستقلالها . فهو يقول :

« إنكم ـ أيها الإنجليز ـ بمساندتكم للقضية المصرية لا تقفون فقط عند حد الوفاء بوعود بلدكم الحر ولكن أيضًا تخدمون مصالحه الحيوية » . وتجدر هنا ملاحظة أن أى تقييم لخطاب عبيد لا يتعين أجراؤه بمعيار الحركة الوطنية وحدها لكن بمعيار مقدرة عبيد على التعامل مع العقلية السياسية البريطانية ، فقد كان كثير من السياسيين المصريين فى ذلك الوقت ينتمون إما إلى أصل تركى . مثل عدلى يكن باشا ، أو ينحدرون من الريف المصرى مثل سعد زغلول باشا . والنموذج الأول كان مشهورًا بقدرته على التعامل مع العقلية السياسية الغربية بسبب قدرتهم على التحدث بلغات أجنبية حيث تلقوا تعليمهم طبقًا للنظام الأوروبى والثقافة الغربية . أما النموذج الثانى . فقد بدأ تعليمه فى الغالب فى المدارس الحكومية المحلية أو فى المدارس الإبتدائية الدينية (الكتاتيب) . لذلك كان معظمهم يفتقد خبرة الثقافات الأجنبية . كما كان بعضهم عاجزًا عن التعامل مع العقلية الأجنبية . أما عبيد فقد كان واحدًا من تلك القلة التى بدأت حياتها فى الريف المصرى ودرست فى كل من المدارس الوطنية والأجنبية إلى أن أصبح فريدًا فى نظرته الثقافية . وأصبحت لديه القدرة على التعامل مع كل من الشئون المحلية والأجنبية . وهذه الميزة هى واحدة من أكثر العوامل وضوحًا فى شخصية عبيد . وأعنى بها ثنائية التأثير : داخليًا وخارجيًا .

وقد أصبح عبيد أكثر إنخراطًا فى الحركة الوطنية بينما توثقت علاقاته بسعد زغلول . وأصبح الناطق بلسانه إلى حد أنه كان معروفًا بأنه « ابن سعد البار » . وفى أحد لقاءاته الصحفية حول مداولات عدلى ـ ملنر ، أعلن عبيد :

---

(47) M. Ebeid, Versus the Milner Scheme, or The Zaghloul - Adly Issue, London, 1921.

« أعتقد أن مشروع ملنر سوف يحظى بالقبول مع تحفظات معينة ، وإننا مع ذلك نعتزم بدء مقاطعة شبيهة بمقاطعة غاندى ضد بريطانيا دولة الأحتلال » ،

« فإذا كان عدلى باشا يرغب فى العمل بإخلاص وتفان من أجل البلاد ، فلا يوجد الأ وسيلة واحدة يمكنه بها البرهنه على إخلاصه للأمة ، ألا وهى العمل على التحالف مع زغلول باشا ، لقد فقدت الأمة كل الثقة فى عدلى ، إنه سبب الكارثة والمصيبة العظمى التى تتكبدها الأمة حاليًا[٤٨] » ، وفى مقال آخر فى الأجيشيان جورنال ، واجه عبيد مشكلة مع الصحافة البريطانية عندما نشرت :

« لقد ورد إلينا من أحد المراسلين الذى سمع السيد/ مكرم عبيد وهو يخاطب عددًا من الطلبة المصريين فى أحدى فنادق لندن الأسبوع الماضى قائلاً أن زغلول باشا كان قد أعطاه أموالاً للصحافة فى أنجلترا » .

وقد كتب عبيد خطابًا إلى رئيس تحرير « الأجبشيان جورنال » قال فيه :

« سيدى . يتعلين علىّ أن أطلب منك أن تنشر رأيى وأن تقوم بالتكذيب المطلق للبيان المنشور فى عددكم الأخير والذى ورد فيه إننى ذكرت أن لدى مالاً لأدفعه للصحفيين البريطانيين ... لقد ألقيت خطابى أمام حوالى ثمانين مصريًا . وهؤلاء فى إمكانهم إثبات حقيقة أن ذلك البيان السخيف لا أساس لوجوده على الأطلاق » ...

مكرم عبيد

فندق « سيسيل » ستراند . لندن

١٠ سبتمبر ، ١٩٢١ [٤٩]

وأستمر الحوار بين عبيد والصحافة تحت عنوان « من المبعوث الجديد لزغلول باشا إلى رئيس تحرير الأجبشيان جورنال :

« سيدى ، هل تسمحون لى بالرد بإيجاز على المقال المنشور فى عددكم بتاريخ ١١ أغسطس ، وعنوانه « المبعوث الجديد لزغلول باشا » . وسوف أتغاضى ـ بعد إذنك ـ عن التلميحات

---

(48) F.O.371/7744, December 27, 1921. Allenby to Curson. (من مراسلات الخارجية البريطانية)

(49) The Egyptian Journal September 15,1921.

الشخصية نحوى . وسخريتك من الشخصية الحسّاسة للبروفسور المصرى . وأنك لمخطئ تماما ـ يا سيدى ـ فى إدراكك لمهمتى التى صورتها بأنها مثل « مناقشة الخلافات العائلية على مسمع من الناس » إننى موجود هنا لأطلع الشعب البريطانى بما لا ترغب أو تجرؤ حكومة عدلى على قوله . وفيا يتعلق بإدعاءاتك بأن أتباع زغلول لم يرفضوا مشروع ملنر . أعتقد أنك تفسد الحقائق وتشوهها . فالأمة لم توافق قط على مشروع ملنر . كما هو فى الواقع . بل وافقت عليه مثلما جرى تفسيره وشرحه لها بواسطة المبعوثين . كما إنه كذلك لم تتم الموافقة عليه بدون تحفظات . وأنت تعرف أفضل منى إنه إذا كان هناك مسئول عن تلك التفسيرات . فإن ذلك المسئول لم يكن زغلول باشا الذى بعث ببرقيته الشهيرة من فيشى . معلنًا أن « المشروع مرفوض من الوفد » لأنه خارج التفويض الممنوح له . ولأنه لا يعطى لمصر إستقلالها على الرغم من أنه يضمن للبلاد بعض المصالح والفوائد التى يمكن إدراكها . أما سبب تقديمه إلى الأمة . فقد كان من أجل تفادى حدوث خلافات وأنشقاقات داخلية بين أعضاء الوفد . وهى الخلافات التى بدأت فى الظهور بالفعل نظرًا لأنه حتى فى تلك المرحلة المبكرة . كان المعارضون قد أظهروا تعاطفهم الواضح والصريح مع عدلى . وأنهم كانوا ـ مثل عدلى باشا ـ يؤيدون مشروع ملنر » .

وقد علق رئيس تحرير الأجشيان جورنال بقوله :

« إننا ننشر ـ بسرور ـ رد السيد/ مكرم . ونشكره على إعطائه فرصة لقرائنا لدراسة وجهات النظر بصورة ملائمة . إنه يتحدث عن أعضاء الوفد الرسمى المصرى (مؤيدى عدلى باشا) كأنهم أفراد « ليس لديهم تفويض من الأمة » . وماذا يعنى بـ « تفويض من الأمة ؟ » . فالتفويض الذى لدى عدلى باشا لا يختلف بأية صورة من الصور عن التفويض الذى لدى زغلول باشا . وأقصد بذلك حصولها على وثائق الثقة من الهيئات النيابية . كما أن كلا الجانبين لديه قدر من ذلك التفويض . ويقدم السيد/ مكرم . سببًا آخر لإقدامه على شجب الوفد الرسمى . هو أن المفاوضات « يتم أجراؤها فى جو الإرهاب والإضطهاد . وفى ظل الأحكام العرفية . . . وجو المفاوضات الحالية لا يختلف عن ذلك الجو الذى أجرى فيه سعد باشا مفاوضاته »[٥٠] .

.... ولقد عبّر سعد زغلول عن ثقته وأعتزازه برؤيته لرفاقه الأقباط يحيطون به جنبًا إلى جنب مع أخوتهم الوطنيين المسلمين . وإنه لأمر هام له مغزاه أن يكون فى إمكاننا أن نجد موقفًا مماثلا لذلك

(50) The Egyptian Journal, August 25, 1921.

عام ١٨٨٢ ـ فى حركة عرابى ـ وكذلك فى جهود مصطفى كامل فى الميدان نفسه ، وإنه لمن الواضح أن حركة سعد زغلول كانت حركة وطنية مصرية خالصة إلى حد بعيد ، مجردة من أية نزعة دينية ، بينما تضمنت حركة عرابى ، وجهود مصطفى كامل إيحاءات إسلامية واضحة ،[٥١] ولو تابعنا شخصية الحركة الوطنية المصرية لأدركنا أنه بينما كانت حركتا عرابى ومصطفى كامل لا تخلوان من مسح دينية ، فإن مسلك سعد زغلول ورفاقه كان وطنيًا مصريًا صرفًا ، ويقودنا ذلك إلى الخمسينات والستينات من هذا القرن ، لنتعرف على فكر جمال عبد الناصر وسياسته ، كما حددها فى كتابه « فلسفة الثورة » فى سنة ١٩٥٣ ، وفيه أعتبر الدائرة الإسلامية كأحد المجالات الكبرى للسياسة الخارجية المصرية ، وعلى الرغم من حقيقة أنه لم يكن هناك أحد الأقباط بين « الضباط الأحرار » ، وأن عددًا من أعضاء التنظيم كانوا متأثرين بفكر وتنظيم جماعة الأخوان المسلمين ، مثل كمال الدين حسين وعبد المنعم عبد الرؤوف وحسين الشافعى ، إلاّ أن المنطق العلمانى لعبد الناصر كان واضحًا وهو الذى واجه حركة الأخوان المسلمين مرتين الأولى عام ١٩٥٤ والثانية سنة ١٩٦٥[٥٢] ، وقد قاوم عبد الناصر ـ بشدة ـ كل عروض إنشاء حلف إسلامى وذلك من زاوية سياسية متقدمة ، إلاّ أن الدور القبطى فى الحياة السياسية فى عهد عبد الناصر كان محدودًا ، بسبب إختفاء الأحزاب السياسية وضعف المؤسسات الديمقراطية بوجه عام[٥٣] ، ولذلك فإن الدور النشط للأقباط ـ أثناء ثورة ١٩١٩ ـ يجسد ذروة تاريخهم الوطنى ، وفى ٢٢ ديسمبر ١٩٢٢ ، وجهت السلطات البريطانية فى القاهرة إنذارًا إلى الشخصيات البارزة حول سعد زغلول ، تطلب منهم الإقامة فى الريف وإلاّ أقدمت على نفيهم من مصر ، ولقى الإنذار الرفض من سعد زغلول ومصطفى النحاس وفتح الله بركات ، وعاطف بركات وسينوت حنا ، ومكرم عبيد ، فتقرر نفيهم إلى جزر سيشل ، ويرى د . حسين مؤنس ـ الكاتب والمؤرخ المعروف ـ أن تأكيد مكرم عبيد على ضرورة رفض الأنذار هو الذى دفع زملاءه إلى إتخاذ القرار ، إذ كانوا يناقشون الأمر عند وصوله إلى إجتماعهم ، وهو الذى أصر بشدة على ضرورة رفضهم لذلك الأنذار[٥٤] .

---

(٥١) محمد زكى عبد القادر ، محنة الدستور من تاريخ مصر ، (١٩٢٣ ـ ١٩٥٢) القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ـ ٤١ .

(52) For details, see R.P. Mitchell, **The Society of The Muslim Brothers**, Chapter V, Oxford, 1969.

(53) O.F. Meinardus, op. cit., Cairo, 1968, pp. 46 - 50; and **E. Wakin, Alonely Minority (The Modern Story of Egypt's Copts)** New York, 1963, p. 172.

(٥٤) د . حسين مؤنس ، «دور الأقباط فى ثورة ١٩١٩» ، مقالات فى آخر ساعة القاهرة ، ٢٣ مايو ١٩٧٥ .

ويذكر الأستاذ محمود سليمان غنام فى كتابه أن وصول مكرم عبيد إلى الإسكندرية من لندن فى ٢٠ ديسمبر ١٩٢١ وخطبه المتتالية التى ألقاها فى محطات القطار أثناء طريقه إلى القاهرة والترحيب الحار به فى « محطة مصر » . والهتافات المدوية ضد الإحتلال البريطانى . التى تضمنت هتاف « يسقط اللنبى » . بالإضافة إلى إستعدادات الطلاب للاحتفال بنجاح مكرم عبيد فى مهمته بلندن وفشل مفاوضات (عدلى ـ كيرزن) كل هذه العوامل دفعت دار المندوب السامى إلى توجيه ذلك الإنذار للوطنيين المصريين[٥٥] . ويصف أحمد شفيق باشا فى كتابه « حوليات مصر السياسية » الإضطرابات والمظاهرات فى القاهرة عند وصول مكرم عبيد ـ كمبعوث سعد زغلول من لندن ـ ويذكر أن جنديًا بريطانيا لقى مصرعه وجرح آخر[٥٦] . وبصرف النظر عن السبب الحقيقى وراء قرار نفى الزعماء المصريين . فقد كان لهذا القرار آثار هامة فى الحياة السياسية والمستقبل الوطنى لكل من المنفيين . لأن مسألة نفيهم مع سعد زغلول كانت تعنى ـ ضمنًا ـ أنه قد تم إضفاء شرف الوطنية عليهم فى ظل ظروف بالغة الحماس . وكما ذكرنا من قبل . فقد كان ذلك ذا أهمية عظمى بالنسبة لمكرم عبيد كنقطة تحول حاسمة فى حياته السياسية . تعنى إنتقاله من مرحلة السياسى الحزبى إلى الثورى الوطنى .

... وقد تمثلت نتائج فترة المنفى بالنسبة لعبيد فى ثلاث نتائج رئيسية : أولها أنه أصبح وثيق الصلة ـ على المستوى الشخصى ـ بسعد زغلول . وأكثر إلتصاقا وصداقة وألفة بالزملاء الآخرين . خاصة مصطفى النحاس . ويقال أن مكرم عبيد عندما عانى من مرض الملاريا فى منفاه بجزيرة سيشل . طلبت سلطات المستشفى أن يرافقه أحد زملائه أثناء فترة العلاج . فتطوع لذلك النحاس . وظل معه فى المستشفى إلى أن شفى . وكان مما ورد فى تقرير السلطة البريطانية فى عدن :

« يشرفنى أن أبلغك أن وليم مكرم بك . سمح له بدخول المستشفى البريطانى للعلاج من حمى فى ٣ فبراير ١٩٢٢ . وتم صرفه من المستشفى فى ١٣ فبراير ١٩٢٢ . بعد أن شفى تمامًا »[٥٧] . وكانت

---

(٥٥) محمود سليمان غنام . « أضواء على أحداث ثورة ١٩١٩ » القاهرة ـ ١٩٦٩ ص ـ ٤١٠ .

(٥٦) أحمد شفيق ـ حوليات مصر السياسية ـ مجلد ٢ . القاهرة . ١٩٢٧ ص ـ٥٤٤ .

وأيضا :

F.O. 371/7741. January 2. 1922. Allenby to Curzon.

(57) F.O. 371 7734. May 3, 1922 – (**From Political Resident, Aden, to H.M. Secretary of State for Colonies, London**)

النتيجة الثانية ، هى أن فترة المنفى كانت فرصة أتيحت لمكرم عبيد لصقل لغته العربية ، مما مكنه من أن يصبح خطيبًا مفوهًا ممتازًا ، إذ كان يوجد بين زملائه ، عاطف بركات ، ابن أخت سعد زغلول ، الذى كان فيما مضى ناظرًا لمدرسة القضاء الشرعى ، وساعد عبيدا كثيرًا وطوال عامين تقريبًا على تأكيد فصاحته فى اللغة العربية ، حتى قدر له أن يصبح واحدًا من أشهر الخطباء فى تاريخ الحياة السياسية المصرية[٥٨] ، وآخر تلك النتائج ، هى أن فترة المنفى ، كانت بمثابة العنصر الأساسى الذى دعم فكر مكرم عبيد ورؤيته الوطنية ، كما أن فترة المنفى كان لها الفضل فى دعم وتعزيز العلاقة الوثيقة بين مكرم عبيد ومصطفى النحاس ، من بين مجموعة سعد زغلول والتى تحدد بها مستقبل الحياة السياسية المصرية فى فترة معينة خلال نشاطها المشترك فى الحزب والحكومة .

ولعله من أطرف الأحداث بنفى مكرم عبيد ذلك الألتماس الذى بعث به الأستاذ لويس فانوس ـ المحامى ـ إلى مدير « نيو كوليدج » باكسفورد وخريجيها يطلب منهم إستخدام مساعيهم الحميدة لإطلاق سراح مكرم عبيد باعتباره خريجًا سابقًا من تلك الكلية . وتبدو أهمية ذلك الخطاب المؤرخ فى يناير ١٩٢٣ . فى أنه يقدم تلخيصًا لجهود مكرم عبيد السياسية حتى ذلك الوقت ، ولقد جاء فيه :

« عزيزى مدير الكلية »

التمس أن ألفت نظركم . ونظر الكلية . إلى قضية ولم مكرم عبيد . العضو البارز بين خريجى الكلية . والذى تم نفيه فى ديسمبر الماضى بواسطة العسكرية البريطانية إلى جزر سيشيل . فى المحيط الهندى . حيث يقاسى الآن من صحة معتله بسبب إصابته بالملاريا . بعد أن تم حجزه فى عدن وهو فى طريقه إلى سيشيل فى أوائل هذا العام . وإننى لأرجو ـ بإقدامى على الكتابة إليكم ـ تحقيق هدف مزدوج :

أولا : أن أشرح للكلية طبيعة الدور الذى لعبه مكرم منذ ١٩١٩ والذى أشعر بثقة أن الكلية سوف تراه دورًا مشرفًا ومخلصًا ومتوائمًا مع تقاليد « نيو كوليدج » .

وثانيا : أن أجند لصالحه الوزن المعروف للكلية . فى محاولة للحصول على إطلاق سراحه وإعادته إلى وطنه لضمان العلاج الطبى الذى يحتاجه بصفة عاجلة . وكى يستعيد أيضًا حريته

---

(٥٨) من مقابلة مع السيد سعد فخرى عبد النور فى ١٣ سبتمبر ١٩٧٤ .

الشخصية بصفته مواطنًا يحترم القانون ... وعندما أدت التطورات السياسية فى مصر ، فى ربيع ١٩١٩ ، إلى حدوث صدام بين الوطنيين المصريين والسلطات العسكرية البريطانية ، وأكتشف مكرم عبيد أن واجباته كسكرتير للمستشار القضائى البريطانى (الذى كان عليه أن ينجز – فى ذلك الوقت – قدرًا كبيرًا من المهام للمندوب السامى البريطانى) تضعه فى موقف أخلاقى دقيق للغاية ، لكونه وطنيًا ، ولأنه كان قادرًا على الوصول إلى الوثائق السرية البريطانية بحكم وظيفته . فأدرك بأنه لن يكون أمرًا مناسبًا أو عادلًا بالنسبة للبريطانيين . فقد يجد نفسه فى موقف قد تصطدم فيه واجباته الوطنية كمصرى ، مع واجباته كسكرتير موثوق فيه لرئيسه البريطانى . فأبلغ رئيسه على الفور بآرائه السياسية فى صراحة ووضوح . وطلب منه إعفاءه من ذلك المنصب . وأصبح مكرم – بعد ذلك – نصيرًا لزغلول باشا . الزعيم الوطنى الشهير ، الذى أحرز لديه بعض النفوذ والذى أعتقد أنه قد وظف قدراته السياسية للتأثير فى البريطانيين . وكان ذلك هو سبب إقدام سعد زغلول باشا على إرساله فى العام الماضى . كمبعوث إلى بريطانيا لتحقيق أدراك أفضل للمطالب المصرية . وشرح موقف زغلول من حل القضية المصرية . وهو ما أنجزه مكرم بكفاءه فى عدة مقابلات صحفية فى صحف « إيفنتج نيوز » و « مانشستر جارديان» و « الديلى نيوز » ... الخ من أغسطس إلى ديسمبر ١٩٢١ . وحدث – أثناء هذه الفترة – إنقسام مشؤوم فى صفوف الوطنيين . فأيد مكرم زغلول باشا . بينما كنت أنا شخصيًا مؤيدًا لعدلى باشا . إلى حد أننا لم نكن متفقين دائمًا فى سياستنا ، لفترة من الوقت ، على الرغم من أننا جميعًا كنا نسعى . بطرق مختلفة . وبكل ما فى طاقتنا من قوة لإيجاد إدراك أفضل للعلاقة بين بلدنا الذى ولدنا فيه . وبلد ثقافتنا وصداقاتنا (يقصد بريطانيا) . وقد غادر مكرم لندن فى منتصف ديسمبر ١٩٢١ . ووصل إلى مصر فى العشرين منه ليجد فى إستقباله والترحيب به آلاف المواطنين . ولعل ذلك الاستقبال – مقرونًا بنشاطه السابق فى الصحافة البريطانية كنصير لزغلول – قد جعله موضع أهتمام خاص من السلطات العسكرية البريطانية التى كانت فى ذلك الوقت تعتزم القيام ببعض إجراءات القمع والقهر ضد زغلول . لكى تمكن « الحزب » العدلى . من التكاتف مع ثروت باشا – رئيس الوزراء الجديد . والإحتشاد لدعمه ، ونتيجة لذلك . وفى ٢٢ ديسمبر ١٩٢١ ، أى بعد يومين من وصوله إلى مصر . صدرت الأوامر إليه . وإلى عدد من أبرز أنصار زغلول . بل وزغلول باشا نفسه أن يمتنعوا عن ممارسة أى نشاط سياسى . وأستسلم بعض أولئك الأنصار والأعوان وأعتزلوا السياسة ولكن زغلول نفسه ومعه مكرم عبيد وأربعة آخرين من أعضاء لجنته رفضوا ذلك مطالبين بحرية ممارسة حقهم كمواطنين مصريين فى إطار القانون . لذلك أقدمت السلطات

العسكرية البريطانية التى كانت تتصرف فى ظل الأحكام العرفية . وليس وفقا لأى قانون مدنى مقبول . على إلقاء القبض عليهم . وترحيلهم أولا . إلى عدن . حيث اصيب مكرم بالملاريا . ثم إلى سيشل . حيث يعانى الآن من آثار تلك الحمى والتى تشكل خطرا كبيرا على حياته ، ولم يتم ابدًا الادعاء بارتكاب أية جريمة أو اساءة للقانون من جانب مكرم أو زغلول وأعوانه باستثناء عصيانهما لأوامر القائد الأعلى للقوات البريطانية . بالانسحاب من الحلبة السياسية . وهى أوامر مشكوك فى شرعيتها تماما . وتعتبرها جهات عديدة أوامر استبدادية وغير صائبة . ومكرم ــ الذى يتعرض حاليا لمعاناة رهيبة ــ لم يفعل أكثر من خدمة وطنه وهو ما شعر انه واجبه بصفته رجلا تربى وتثقف فى ظل الأفكار البريطانية الداعية إلى الإلتزام بالقانون وضمان حقوق المواطن . فقد احتج على ما اعتبره أوامر مستبدة من جانب الأوتوقراطية العسكرية ذات السلطة الأعلى فى مصر فى ذلك الوقت . ورفض اطاعتها والإذعان لها . وقد يهمك أن اشير إلى أن البرنامج الدقيق الذى كان زغلول ومكرم . وما يزالان يدافعان عنه . منذ مدة طويلة بوصفه البرنامج الوحيد القابل لتحقيق التسوية المرضية المرغوب فيها ويسعى لورد اللنبى حاليا ــ بإلحاح ــ ومنذ نفيهم . للمطالبة لدى حكومة صاحبة الجلالة . بأخذه باهتمام إذ إنها الصيغة الوحيدة المقبولة من الوطنيين . لأنها تجسد عناصر الحل المشرف الوحيد الممكن . مما يدل على أن مكرم كان ذا أثر فعّال فى إيجاد وإقرار موقف أفضل كنا . وما زلنا . نعمل من أجله بطرق مختلفة . والسياسة الحالية لحكومة صاحبة الجلالة ليست ــ فى الواقع ــ شيئًا آخر مغايرًا لبرنامج زغلول الخاص. من الناحية النظرية على الأقل لذلك فإن هذ البرنامج . من الناحية العملية . ما يزال محل معالجة غير كاملة وذلك بعد أن تم أئتمان خصوم زغلول ــ الباشوات الأتراك والمصريين ــ الذين يمثلهم ثروت باشا رئيس الوزراء الحالى . على أمر تنفيذه . بدلا من ترك هذه المهمة لواضعيه أنفسهم . ولذلك لأنه نظرًا لأن سلوك مكرم ــ طوال هذه الفترة ــ كان مشرفًا وأمينًا وواضحًا . ووفيًا . بصورة يقتدى بها . تجاه وطنه وتجاه بريطانيا كذلك . التى كان يعتبرها دائمًا أفضل صديق لوطننا . ونظرًا لأن سلوكه كان وما يزال دائمًا يتميز بمواقفه الشجاعة . التى تعتبر جميعًا صفات تلقى الأحترام والتقدير فى كل إنسان ... من أجل هذا . فاننى أطالبكم بتأييد موقف مكرم لدى رئيس الوزراء ووزارة المستعمرات . وخريجى « النيوكوليدج » القدماء الذين يتولون مناصب مؤثرة حاليًا . مثل وكيلى وزارة المستعمرات وولیم أورمسبى جور ــ عضو البرلمان المحترم . و هـ . أ . فيشر ــ عضو حزب المحافظين المحترم . وبأية طريقة أخرى قد ترى أنها قد تساعد على ضمان إطلاق سراح مكرم . فى أقرب وقت . وبذلك

تنقذ حياة إنسان وتنقذ مواهبه وقدراته وشخصيته من أجل مزيد من الخدمات النبيلة .

ودمتم لى – عزيزى – مدير الكلية .

المخلص
لويس فانوس

وتنبثق الأهمية الحقيقية لألتماس « فانوس » من حقيقة أنه وعبيد لم يكونا متفقين على آراء سياسية واحدة . وكانت أتجاهاتهما السياسية مختلفة . فبينما كان عبيد يتحمس بشدة لتأييد زغلول باشا . ممثلاً الأتجاه الوطنى كان « فانوس » واحدًا من أولئك المؤيدين لعدلى فى موقفه المعتدل فيما يتعلق بمعالجة المطالب الوطنية المصرية وقبل رسالة فانوس . بعث اللنبى برسالة إلى كيرزن فى ٤ فبراير ١٩٢٣ يعارض فيها إدعاءاته ومطالبه[٥٩] . وجدير بالذكر أن أتباع زغلول وأنصاره قد حصلوا على تعاطف أكبر بعد نفى زعمائهم . وتحمس الشعب بشدة لهم . وكان أحد أمثلة ذلك إنتخاب عاطف بركات ومكرم عبيد . كعضوين فى الإتحاد العام للمعلمين . بينما كانا فى منفاهما فى سيشيل . وبعد شهر من عودته من المنفى فى ١٩ يوليو ١٩٢٣ . ألقى عبيد خطابًا حماسيًا جامعًا فى مجموعة من الشباب فى شبرا . مؤكدًا فيه أن كل المصريين – أقباطا ومسلمين – أخوة . لأن مصر أمهم . وزغلول أبوهم . وأقتبس عبيد محادثة جرت بينه وبين زغلول . كان قد أشار فيها عبيد إلى أنه يوجد أقباط فى جماعة زغلول أكثر من المسلمين . فرد زغلول عليه بقوله إنه لم يكن يعرف عبيدا وزملاءه بصفتهم أقباطًا . ولكن بوصفهم مصريين قبل كل شىء[٦٠] .

وإذا ما تتبعنا حياة عبيد السياسية بعد عودته إلى مصر . فإننا نجد أنه أصبح أكثر إنشغالاً بالحركة الوطنية ومتابعًا – كذلك – حياته الوظيفية كمحام مرموق خصوصًا فى الدفاع عن القضايا ذات الصبغة السياسية . وفى سنة ١٩٢٤ أصبح زغلول رئيسًا للوزراء . ومع ذلك . لم يكن عبيد وعدد من زملائه فى مجلس الوزراء . ولكن صهره . مرقص حنا . أصبح وزيرًا للأشغال العامة فى تلك الوزارة[٦١] . وقد أصدر سعد زغلول نداء لجمع شمل الأمة فى ديسمبر ١٩٢٢ خاطب

---

(59) F.O. 37/8964. February 12, 1923. Curzon to Allenby.

(٦٠) د. حسين مؤنس . آخر ساعة . ٢٣ مايو ١٩٧٣ .

(٦١) تزوج مكرم عبيد من عايده مرقص حنا فى نوفمبر ١٩٢٣ . ولم يرزقا بأبناء

المصريين فى نهايته مطالبًا أياهم بأن ينبهوا العالم كله إلى أنه توجد فى مصر أمة ناهضة تسعى إلى الحرية بجدية . وتكافح من أجل الإستقلال بطريق مشروع [٦٢] وعندما تصاعد النضال من أجل الإستقلال . أصبحت مشاركة الأقباط أكثر فعالية فى تلك الفترة . وقد تخلص الأقباط فى ظل ذلك المناخ السياسى والإجتماعى من حساسيات الأقلية . وصدر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى تضمن أربعة تحفظات يتعلق ثالثها بحماية الأجانب والأقليات . وقد أتخذ الأقباط المصريون موقفًا صلبًا ضد ذلك التحفظ بوجه خاص . وهاجمت الصحف القبطية التصريح بسبب التحفظ الثالث أساسًا . مؤكدة على أن الأقليات لم تلتمس الحماية أو الرعاية الخاصة لأنهم يشعرون بأنهم جزء لا يتجزأ من نسيج الأمة . وإنهم لا يقبلون حماية الأجنبى [٦٣] وفى ٣ إبريل ١٩٢٢ أعلن عن تشكيل لجنة الدستور من ثلاثين عضوًا . وقاطعها حزبا الوفد والوطنى . وكانت الأقليات ممثلة فى اللجنة طبقًا لتمثيل مماثل كان سائدًا فى الجمعية التشريعية عام ١٩١٣ [٦٤] . وقد مثل الأقباط الأنبا يؤانس . أسقف الإسكندرية . وقلينى فهمى . والياس عواد . وتوفيق دوس . وتم فى جلسة ٧ مايو ١٩٢٢ مناقشة موضوع تمثيل الأقليات فى البرلمان طبقًا لنظام جديد . وعبّر توفيق دوس عن رأيه بأنه يتعين أن تكون هناك حصة من المقاعد للأقليات فى البرلمان . وكانت مبرراته لذلك هى :

أولا : لتفادى أية ملاحظات أجنبية .

وثانيا : لأن البرلمان هو السلطة التشريعية . وفى إمكانه إصدار أية قوانين ضد مصالح أية أقلية من غير قصد .

وكان الدكتور عبد الحميد بدوى معارضًا لذلك . وعندما أجرى التصويت كانت غالبية المسلمين والأقباط ضد اقتراح دوس . وهذا المثال يعطى صورة دقيقة لروح الأقباط فى عهد زغلول . وفى كتابه . أعتبر سلامه موسى رد فعل الأقباط ضد أقتراح دوس كإنعكاس لأول أنجاز لحركة ١٩١٩ [٦٥] وكانت هناك مناقشة مماثلة فى الصحف بين محمود عزمى . وهو كاتب مسلم كان

---

(62) F.O. 371/10886. December 29. 1924, Kerr to Mac Donald.

(٦٣) مصر . القاهرة . ٥ مارس ١٩٢٢ .

(٦٤) الوطن . القاهرة . ٥ إبريل ١٩٢٢ .

(٦٥) سلامه موسى . مرجع سابق . القاهرة . ١٩٥٧ . ص ـ ١٥٤ ـ ١٥٥ .

مؤيدًا لآراء توفيق دوس ، بينما كان عزيز ميرهم ، وهو سياسي قبطي ، معارضًا لها . وكان الدكتور طه حسين من بين أولئك الذين عارضوا فكرة تخصيص نسب معينه لتمثيل الأقليات فى البرلمان .[٦٦] وفى هذا المناخ الوطنى السليم حظى مكرم عبيد بفرصة طيبة لتولى ما يستحقه من الأدوار الرئيسية على المسرح السياسى المصرى .

وفى تلك الفترة من منتصف العشرينات ، كان مكرم عبيد ، عضوًا فى البرلمان وسياسيًا نشطًا فى حزب الوفد . ولم يكن عبيد عنصرًا فعّالا ومؤثرًا فى ذلك البرلمان لأنه كان مشغولا بالمشاركة المباشرة فى حركة زغلول الوطنية . وفى البعثات السياسية إلى الخارج والمهام التى يوفده فيها الوفد . وفى سنة ١٩٢٤ ، أنضم لسعد زغلول فى زيارته للندن للتفاوض مع حكومة حزب العمال برئاسة رمزى ماكدونالد، وكان مكرم عبيد اليد اليمنى لسعد زغلول فى تلك الزيارة، خاصة فى مقابلاته مع الصحافة ووسائل النشر . وفى الإتصال بالشخصيات السياسية البريطانية . وكان سعد زغلول شديد الإستياء من سير المفاوضات ، معلنًا أنه قد رفض الموافقة فى لندن على ماكان آخرون من المصريين قد عرضوه من قبل[٦٧] . وعاد إلى القاهرة مع الوفد المصاحب له ، دون تحقيق مطالبه . وفى ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ ، أغتيل جنرال سيرلى ستاك باشا فى القاهرة ، ووجه لورد اللنبى إنذارًا إلى سعد زغلول مطالبًا ــ ضمن أشياء أخرى ــ بإنسحاب الجيش المصرى من السودان . وعقب الإنذار ، أحتلت القوات البريطانية الجمارك ، فأستقالت حكومة سعد زغلول ، وألقى القبض على كثير من الوطنيين . وكان من بين هؤلاء مكرم عبيد الذى وجهت إليه تهمة إلقاء خطب لتحريض جماهير الشعب ضد السلطات البريطانية[٦٨] . وكان إغتيال الجنرال سيرلى ستاك باشا ، أهم الأحداث السياسية ، وأكثرها أثارة للإنتباه من الناحية العملية فى السياسة المصرية الحديثة ، وكان بمثابة بداية لأفول نجم حركة سعد زغلول وضعفها تدريجيًا حتى وفاته سنة ١٩٢٧[٦٩] . وكان من نتائج الدور الذى لعبه مكرم عبيد ــ أبان حادث أغتيال الجنرال ستاك ــ

---

(67) F.O. 371/10022, October 13. 1924, Kerr to Mac Donald.

(٦٦) طارق البشرى ، مرجع سابق ، الكاتب ، عدد ١١٩ ، فبراير ، ١٩٧١ .

(٦٨) ملف عبيد فى المباحثات العامة (البوليس السياسى سابقا) ــ القاهرة ، ١٩٣٧ .

(69) T. Russel, Egyptian Service (1902-1946), London, 1949, p. 220.

قيام السلطات البريطانية بإعادة وضع إسمه فى قائمة المشتبه فيهم والتى كان قد تم رفع أسمه منها قبل ذلك بسبعة أشهر فقط[٧٠] .

... وجدير بالذكر أن نظرة الأقباط لدورهم فى ذلك الوقت لا تختلف عن نظرة المسلمين . إذ أن القوة الدافعة لحركة ١٩١٩ . وروح سعد زغلول . سيطرت على مشاعر جماهير الشعب وردود أفعالها . ونظر الأقباط إلى دور مكرم عبيد . وزملائه . مسلمين وأقباط . فى ضوء المحيط الكامل للحركة الوطنية . وقد برزت فى هذا الجو شخصية مكرم عبيد الثائر الوطنى الذى تمتع بشعبية عظيمة بين المسلمين والاقباط على السواء . ولم يتهم قط بالعمل على أساس مصالح الأقلية التى أنبثق منها . بل كان على العكس يقتبس من القرآن فى احاديثه حتى قيل أن مكرم عبيد وواصف غالى . من بين أكثر السياسيين الأقباط نجاحًا . وبميلان فى سلوكهما السياسى إلى التصرف بحماس يفوق حماس زملائهم المسلمين[٧١] .

من هنا فإن أى تقييم لحركة ١٩١٩ . يجب أن يقر أنها ولدت إتجاهًا مصريًا وطنيًا فى ميدان السياسة والأدب والفن وانتجت بعض النماذج المصرية الخالصة فى فروع متنوعة . سيد درويش فى الموسيقى . ومحمود مختار فى النحت . وتوفيق الحكيم فى الأدب . وسلامة موسى فى الفكر الإجتماعى . ودعمت الوحدة بين المسلمين والأقباط . وفتحت ـ فى الوقت نفسه ـ الباب على العالم الغربى . الذى يحاول دائمًا أن يتسلل إلى الساحة السياسية الحافلة بكل أوجه النشاط السياسى والاقتصادى والاجتماعى[٧٢] .

---

(70) **F.O. 371 10899, June 10, 1925. Foreign Office to Allenby.**

(71) J.C. Hurewits. **"The Minrities in the political process" Social Forces in the Middle East.** Edited by S.N. Fisher, Nem york, 1955, p.219.

(٧٢) عبد الرحيم مصطفى ـ تاريخ مصر السياسى من الأحتلال إلى المعاهدة ـ القاهرة . ١٩٦٧ . ص . ٢٧ .

الفصل الثالث

الزعيــم المـرمـوق

فى حزب الأغلبيــة

الزعيم المرموق
فى حزب الأغلبية

يكاد يكون هناك شبه اجماع على أن أبرز نتائج ثورة ١٩١٩ وأهم آثارها ذلك الانصهار القوى بين طوائف الشعب خصوصا المسلمين والأقباط فى بوتقة الحركة الوطنية . فقد لعب الأقباط دورا نشطا وفعالا فى سنوات تلك الثورة الشعبية . وأدى النضال المشترك إلى مصالحة وطنية شاملة بصورة تكاد تكون أقوى من أى وقت مضى . وكان لسعد زغلول ـ الذى قاوم التعصب الدينى ـ دور عظيم فى انجاز ذلك وهو الذى جعل الوحدة الوطنية من المظاهر التاريخية لحركته والتقاليد التى حرص عليها الوفد . فقد كان مجلس الوزراء يضم قبطيين ويهوديا واحدا . ثم كان رئيس مجلس النواب قبطيا . وهو ويصا واصف باشا . وبفضل الثورة الوطنية سوف يتضح أن زغلول ورفاقه قد وضعوا صيغة تاريخية للوحدة الوطنية[١] .

وبعد وفاة سعد زغلول فى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ اختار زعماء الوفد مصطفى النحاس لخلافته . وذلك بعد أيام من التفكير فى عدم امكانية ايجاد بديل للزعيم الراحل واحتمال اختيار زوجته كرئيس شرفى . على أن يقوم بادارة شئون الوفد لجنة تنفيذية من ثلاثة أعضاء هم : فتح الله بركات باشا . ومصطفى النحاس باشا . وويصا واصف بك . الا أن فرص النحاس باشا تزايدت خصوصا عندما عرف أن ترشيحه كان يلقى تأييد العناصر الوطنية المتشددة . كما أن العلاقات الشخصية بين أم المصريين السيدة صفية زغلول وفتح الله بركات المنافس القوى للنحاس كانت متوترة[٢] . وتبع اختيار النحاس باشا رئيسا لحزب الوفد . تعيين مكرم عبيد سكرتيرًا عاما للحزب . وكان اختيار عبيد النتيجة الطبيعية لعدة عوامل أهمها تأكيد الميراث السياسى لسعد

---

(1) J.S. Lacouture, op. cit., p. 90.

(٢) فتح الله بركات ، كان من أقوى المرشحين لخلافة زغلول ، فهو ابن اخته . كما شارك بفعالية فى جهود خاله . فى الحركة الوطنية .

زغلول والتقاليد التى حرص عليها باشراك الأقباط مع المسلمين فى زعامة الحركة الوطنية . لكن اختيار عبيد من بين الأقباط بدلا من واصف ويصا . الذى تم انتخابه كرئيس لمجلس النواب . أو واصف بطرس غالى ـ الذى كان أكثر اهتماما بالشئون الخارجية ـ كان بسبب التفاهم الشخصى بينه وبين النحاس . لأنهما كانا معا فى المنفى « بسيشيل » . وقد أظهر كلاهما ولاءا شديدا لزغلول ومنهجه السياسى إلى جانب الدور الفعال لمكرم عبيد فى إختيار النحاس لرئاسة الوفد . ولعل ميزات عبيد الشخصية وقدرته كمفاوض واجادته للغات وخبرته فى التعامل مع المنطق السياسى الأوروبى وزياراته إلى لندن وباريس فى مهمات سياسية واعلامية كرجل دعاية وناطق بلسان الحزب . كانت كلها صفات بدا أنها تمثل تكملة لجوانب شخصية النحاس الذى كان معروفا فى ذلك الوقت كرجل صريح وطيب القلب . لكنه لم يكن مفاوضا ماهرا . كما لم يكن متمرسا بالتعامل مع العقلية الأوروبية .

وفى ١٧ مارس ١٩٢٨ طلب الملك فؤاد من النحاس أن يشكل أول حكومة فى حياته السياسية . وكانت حكومة ائتلافية . ضمت محمد محمود ـ زعيم الأحرار الدستوريين . وزيرًا للمالية . مع عدد من زملائه الآخرين . ودخل عبيد الوزارة ـ لأول مرة ـ وزيرًا للمواصلات . وقد مكثت حكومة النحاس عدة أشهر فقط . اذ سقطت بانهيار الائتلاف . نتيجة لاستقالة محمد محمود . وأعضاء الوزارة من حزبه[٣] . وأصبح محمد محمود ـ بعد ذلك ـ رئيسا للوزراء وكان معروفا بأنه رجل « اليد الحديدية » . وأشيع ـ فى ذلك الوقت ـ أن مكرم عبيد مرشح لأن يكون الوزير المفوض المصرى القادم إلى لندن . وكانت الحكومة البريطانية مترددة تجاه ذلك الاختيار . ولم تكن قد اتخذت قرارا نهائيا فى ذلك الشأن لتحدد ما اذا كان من الممكن اعتبار مكرم عبيد كدبلوماسى المصرى المعتمد لديها . واستقباله بتلك الصفة[٤] . وعلى أية حال فان عبيد لم يتم تعيينه وزيرا مفوضا دائما لدى حكومة لندن . لكن النحاس فعل ما سبق لسعد زغلول أن فعله من قبل عندما بعث بمكرم عبيد للدعاية السياسية ضد عدلى فى لندن . كما أرسله ـ مرة

---

(٣) كان السبب الحقيقى وراء رحيل النحاس هو تراجعه كمحام دفاعا عن الأمير سيف الدين ـ الذى كان متهما بمحاولة اغتيال الملك فؤاد .

انظر عصام سليمان ـ أزمة الحكم فى مصر ١٩١٩ ـ ١٩٥٢)

القاهرة . ١٩٦٩ . ص ٣٩ .

(4) F.O. 371/13141 - June 1, 1928. Hoare to Chamberlain

أخرى ـ إلى لندن سنة ١٩٢٩ . ولكن لمعارضة سياسات ومفاوضات محمد محمود رئيس الوزارء الجديد . وقد كان تقليدًا شبه منتظم أن كل رئيس وزراء مصرى جديد يستهل فترة حكمه بالسعى من أجل إجراء مفاوضات جديدة مع بريطانيا خاصة فى الفترة من ١٩١٩ ـ إلى ١٩٣٦ . واتبع محمد محمود ذلك التقليد عندما أصبح رئيسا للحكومة . فقام ـ بعد أن حل البرلمان ـ بالاتصال بحكومة العمال البريطانية الجديدة . وبدأ ما سمى بمباحثات محمود ـ هندرسون . واتخذ الوفد موقفا معارضا ضد سياسة محمد محمود . الداخلية والخارجية . كما حشد جماهيره ضد مفاوضاته مع بريطانيا .

.. وقد بدأت مهمة « مكرم عبيد » فى لندن فى شهر أغسطس ١٩٢٨ حيث أنضم إلى الدكتور حامد محمود ـ الممثل الدائم للوفد فى لندن . وإلى وفدى آخر هو عبد الرحمن عزام[٥] . وقد مر عبيد بباريس وهو فى طريقه إلى لندن . لكن السلطات البريطانية فى ميناء دوفر . رفضت السماح له بدخول البلاد لأسباب سياسية . حتى أنه اضطر هو وزوجته إلى قضاء الليل فى الحجز بدوفر . رغم أن زوجته كانت مريضة[٦] . وعقب ذلك . وبعد تسوية الموقف مع وزارة الداخلية البريطانية سمح له بمواصلة رحلته . فنظم ـ فور وصوله إلى لندن ـ اجتماعات إعلامية دعائية . والقى عددا من الخطب ضد نظام محمد محمود الدكتاتورى . وقد عقد أحد تلك الاجتماعات تحت رعاية « الجمعية المصرية لبريطانيا العظمى وايرلندا »[٧] . حيث القى خطابا مطولا ادان فيه الإجراءات الإرهابية لدكتاتورية محمد محمود . وأعلن أنه لا يريد لأى طالب الاشتغال بالسياسة . واتهم حكومة محمد محمود بأنها خلقت جوا من التوتر والاضطراب فى البلاد . وأضاف عبيد أن من مخططات حكومة محمود استخدام العملاء المحرضين لإثارة القلاقل والاضطرابات فى انحاء مصر . ثم واصل خطابه بقوله أن أكثر من خمس عشرة صحيفة قد تم وقفها عن الصدور . وأن البوليس لديه تعليمات بفض أية تجمعات بشكل حاسم . وذكر عبيد عدة أمثلة لسطوة البوليس ، وعندئذ نهض المجتمعون وقوفا وهتفوا ثلاث مرات : « يسقط

---

٥) عبد الرحمن عزام باشا . هو الذى اصبح أول أمين عام لجامعة الدول العربية سنة ١٩٤٥

(6) F.O. 371 13123, September 25, 1928. Foreign Office (Egyptian Department to Cairo Chancery)

٧) تكونت سنة ١٩١٩ . فى لندن . وضمت عددا كبيرا من الطلبة المصريين الذين كانوا يدرسون فى جامعات المملكة المتحدة .

محمود »[8] . وواصل مكرم عبيد نشاطاته فى لندن بكتابة مقالات فى الصحف ، أو عقد لقاءاته مع الشخصيات البريطانية العامة . ومهاجمة سياسات وادعاءات حكومة محمد محمود ، كما أصدر عن الجمعية المصرية ـ البريطانية نشرة سياسية تحت عنوان (مصر) .. وتم توزيعها بين الدوائر السياسية فى بريطانيا . واتخذت الحكومة المصرية برئاسة محمد محمود . موقفا معارضا لمهمة عبيد . وكانت قد حاولت ـ منذ البداية ـ منعه من السفر إلى لندن ، بدعوى أنه ذهب إلى لندن لتحسين العلاقات المباشرة بين الوفد كحزب والحكومة البريطانية[9] .

وقد حقق عبيد نجاحا كبيرًا عن طريق اتصالاته الخاصة بعدد من أعضاء البرلمان البريطانى من العمال . فكانت له « مجموعة ضغط » من خمسة أعضاء برئاسة مستر « كورنورثى » قامت بتوجيه النقد لحكومتهم بسبب موقفها السلبى من تعطيل الدستور المصرى . وحل البرلمان[10] ، وعاد مكرم عبيد إلى مصر حيث لقى ترحيبا عظيما من حزبه وجماهير الشعب . وعند وصوله إلى الاسكندرية اطلقت عليه الصحف الوفدية اسم « المجاهد الكبير » وقال عبيد فى خطاب القاه فى حفل ضم أكثر من خمسمائة شخص اقيم فى احدى فنادق الاسكندرية . أن محمد محمود كان مجرد أداة لتوصيل مقترحات حكومة العمال إلى الشعب المصرى . وأضاف أن قرار الوفد برفض بحث تلك الاقتراحات حتى يتم دعوة البرلمان للانعقاد مرة أخرى يجب النظر إليه باعتباره مؤشرا لروح ودية من جانب الشعب المصرى . وواصل عبيد حديثه موضحا أنه بالاضافة إلى ذلك فان خطوة العمال فى ابداء الرغبة لاقامة علاقات طيبة مع مصر . هى خطوة ودية يقدرها المصريون تماما . ويردون عليها بالمثل . وواصل ـ وسط التصفيق الحاد ـ حديثه مؤكدا أن كل ما يطلبونه فى تلك المرحلة هو استعادة الدستور والبرلمان . وهو شرط يعتبره الوطنيون ضروريا لأنه لا يمكن أن تكون هناك صداقة حره . مالم يتوفر لها مناخ حر[11] . والقى وفديون آخرون بعدد من الخطب فى تلك الحفلة . ولكن ربما كان أكثر تلك الخطب أهمية هو ذلك الخطاب الذى القاه حافظ عوض

---

(8) F.O. 371/13845, July 23, 1929, Metropolitan police (Special Branch) to the Home Office.

(٩) (من خطاب للنحاس فى مؤتمر سياسى بالمنصوره)

احمد شفيق ـ الحوليات ـ مجلد ٥ . القاهرة ـ ١٩٢٨ ص ـ ١٢٩١

(١٠) المصدر نفسه ـ ص ١٢٥٧ .

(11) Daily Herald, Landon, September 9,1929.

بك ـ وهو عضو بارز فى حزب الوفد ، وكان موجودا فى أوروبا اثناء تواجد عبيد فى باريس ولندن ـ وقد ذكر فى خطابه أن مكرم عبيد كان فى باريس للعلاج . لكنه عندما علم بوصول محمد محمود باشا إلى لندن . توجه إلى هناك ، متجاهلا نصيحة طبيبه المعالج ، وقد ذهب محمد محمود إلى الحكومة العمالية حاملا معه كتابه « اليد الحديدية » ليثبت للبريطانيين أن الدكتاتورية هى النظام الأنسب لحكم مصر ، وأضاف حافظ عوض أن مكرم عبيد تحدى نشاط محمد محمود على الرغم من أن الأخير كان رئيسا للوزراء . وكانت لديه كل الوسائل للاتصال بجميع الجهات والشخصيات . وبذل محاولات متعددة للدفاع عن آرائه وادعاءاته ومطالبه بكل وسائل الدعاية المتاحة . ولكن مكرم عبيد اتصف بالصبر والعزيمة الصلبة . بالاضافة إلى المرونة السياسية . وهو ما لاحظه فيه حافظ عوض عن قرب فى اثناء مهمته فى لندن[١٢] .

وبينما كان الوفديون يحتفلون بوصول مكرم عبيد . ويمتدحون انجازاته فى لندن أصدر مؤيدو محمد محمود بيانا ضد مهمة عبيد . وتم توزيعه على نطاق واسع فى الاسكندرية تحت عنوان « المجاهد الفاشل الكبير » وأعلنوا فيه أنه قد فشل فى تكوين انطباع سيئ ضد حكومة محمد محمود . وانه قد قدم مثالا على انشقاق الأمة المصرية فى مواجهة البريطانيين . وادعوا أن الأقباط قد جمعوا عشرة آلاف جنيه لصالح مهمته[١٣] . والأكثر من ذلك أن « السياسة » صحيفة حزب الأحرار الدستوريين . نشرت مقالا طويلا ضد مكرم عبيد ومهمته وحزب الوفد . وأعلنت أن الوفد كان خاضعا لنفوذ وتأثير « وليم » مكرم عبيد . وقد اضافت الصحيفة انها لا تذكر ذلك تعصبا لأن لديهم فى الحزب ـ الأحرار الدستوريين ـ من الأقباط أكثر مما فى الوفد[١٤] .

ولقد كان ذلك نموذجا لما لجأ إليه بعض خصوم مكرم عبيد فى الأحزاب السياسية الأخرى حين كانوا يتحدثون عنه بوصفه تعبيرا عن اتجاهات الطائفة التى تعمل على السيطرة على حزب الأغلبية ، والواقع أن مكرم عبيد لم يتصرف طوال حياته السياسية كممثل للأقباط . ولكن كزعيم وطنى مصرى .

وقد القى عبيد خطابا فى الاجتماع الذى عقده حزب الوفد فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩٢٩ . للاحتفال بذكرى زيارة سعد زغلول لدار المندوب السامى فى عام ١٩١٨ . وكان ذلك الخطاب

---

(١٢) احمد شفيق ـ الحوليات ـ مجلد ٦ ـ القاهرة ـ ١٩٢٩ ص ص ـ ٨٢٨ ـ ٨٣٢ .
(١٣) البلاغ ، القاهرة ، ٨ سبتمبر ١٩٢٩ .
(١٤) السياسة ، القاهرة ، ٨ سبتمبر ١٩٢٩ .

قطعة من الأدب الرفيع . حيا فيه سعد زغلول بوصفه أب الحركة الوطنية المصرية الحديثة . وانتقد دكتاتورية حكومة محمد محمود . وتحدث عن العلاقات بين المسلمين والأقباط . ورد على الإدعاءات والمزاعم التى اطلقها المعادون للوفد وصحفهم . وذكر انه حينما اكتشفت الحكومة السابقة أن الأمة ظلت متحدة رغم الارهاب والدكتاتورية . قررت تقويض البنيان المتماسك . وبذلت محاولات لاحياء الصراعات الطائفية والخلافات الدينية . وكان الهدف هو تأليب المسلمين ضد الأقباط . لكن المحاولة باءت بالفشل الذريع . مثلما سيكون مصير جميع المحاولات المماثلة[٥] .

وهذه الفترة من حياة مكرم عبيد السياسية تعكس دوره المتشدد فى ما يمكن أن نطلق عليه الجناح المتطرف فى حزب الوفد . وقد كان له تأثير كبير على النحاس بل وسيطر عليه بالاصرار على تحقيق الحد الأقصى من طموحات الوفد[١٦] . وفى يناير ١٩٣٠ أصبح مكرم عبيد وزيرًا للمالية فى حكومة النحاس . ومن مارس إلى مايو ١٩٣٠ كان عضوا فى وفد برئاسة النحاس توجه إلى لندن لاجراء مفاوضات حول المعاهدة . وضم الوفد ـ أيضًا ـ واصف ويصا . وعثمان محرم . وأحمد ماهر[١٧] .

وأثناء حديث رسمى بين عبيد ومستر واتسون من السفارة البريطانية بالقاهرة فى ١٧ يونيو ١٩٣٠ ـ قبل أن تستقيل حكومة النحاس بيوم واحد ـ قال مكرم عبيد أن رئيس الوزراء كان على وشك أن يقدم استقالة حكومته إلى الملك بسبب رفض الملك التوقيع على القانون المتعلق بالمسئولية الوزارية . وبسبب موقفه من تعيين أعضاء مجلس الشيوخ . وأضاف مكرم عبيد أن شعورا قويا فى دوائر الوفد بأنه اذا كانت رغبة الحكومة البريطانية هى ابقاء الباب مفتوحا لعقد معاهدة متوازنة فسوف يكون هناك مخرج مؤكد من الأزمة الحالية[١٨] . وتظهر تلك المحادثة بوضوح نية الوفد وعزمه على اتخاذ مسلك صلب مع الملك . وتشير أيضا إلى التغيير إلى الأحسن فى العلاقات بين الوفد والبريطانيين التى أصبحت أكثر اعتدالا وتفاهما .

وأثناء عمله وزيرًا للمالية. كرس عبيد مزيدا من نشاطه للجانب السياسى والحزبى. أكثر مما

---

(15) F.O. 371/ 13849, Novovember 25, 1929, Loraine to Henderson
(16) F.O. 371/ 13849, November 12, 1929, Loraine to Henderson
(17) F.O. 371/ 14607, February 25, 1930, Loraine to Henderson
(18) F.O. 371/ 14615, June 21, 1930, Loraine to Henderson

كرسه لواجباته الوزارية اليومية ، كما تجاهل ـ إلى حد كبير ـ العمل الادارى مركزًا على المهام السياسية ، وعالج المسائل المالية والمشكلات الاقتصادية من زاوية سياسية . وكان متحمسا لاقرار سياسة قطنية ثابتة مستقرة ، لادراكه لإهمية القطن باعتباره المحصول الرئيسى لمصر فى ذلك الوقت ، وبعد استقالة حكومة الوفد ، كتب مقالا صحفيا يشرح فيه تلك السياسة قائلا أنه قد أعلن فى مجلس الشيوخ ـ قبل استقالة الوزراة بيومين ـ أن حكومة الوفد تعتزم تبنى سياسة قطنية ثابتة ، وليست سياسة مؤقتة . وأن تلك السياسة سوف تنزع إلى حماية الأسعار من العوامل المصطنعة والمضاربات الزائفة . وبأخذ هذا الهدف فى الاعتبار نجحت وزارة الوفد فيما اتيح لها من وقت قصير ، فى تقديم مشروع قانون لانشاء بنك زراعى لمساعدة الفلاحين ذوى الملكيات الزراعية الصغيرة . وصياغة مشروع لاصلاح بورصة « مينا البصل » . بعد التشاور مع الأعضاء الرئيسيين فى رابطة منتجى الاسكندرية . وعلاوة على ذلك فان حكومة الوفد تعتبر نفسها محظوظة فى الحصول على خدمات خبير بريطانى فى القطن هو البروفسور/تود . الذى كان عليه دراسة مسألة القطن فى مصر خلال ذلك الصيف ووضع تقرير فى هذا الشأن[19] .

وعندما شكل اسماعيل صدقى باشا حكومته فى يونيو ١٩٣٠ . وبدأ سياسته التى ادت إلى تعطيل دستور ١٩٢٣ . عارض الوفد اوتوقراطيته بقوة ، وعندما اقتضت الضرورة شن حملة دعائية سياسية ضد صدقى فى لندن ، كان مكرم عبيد مرة أخرى مبعوث الوفد فى تلك المهمة إلى لندن من يوليو حتى سبتمبر ١٩٣٠ . وبرز جانب من أهم جوانب شخصية مكرم عبيد فى مناسبة المؤتمر الإسلامى الذى عقد فى لندن فى أغسطس ١٩٣٠ . أثناء وجوده بها . عندما كان يعمل ضد حكم صدقى . وعبر المجتمعون ـ فى ذلك المؤتمر ـ عن آرائهم تحت عنوان (فى الوطن) سعيا وراء استقلال الدول الإسلامية والكفاح ضد الاستعمار . ولم تول أية صحيفة بريطانية ذلك المؤتمر اهتماما . وكانت مجلة فرنسية هى « ايكو دى بارى » الوحيدة التى نشرت تقريرا عن الاجتماع فى ٢٤ أغسطس تحت عنوان (نهضة الشرق) . وحضر الاجتماع ـ كما ورد فى المجلة ـ أكثر من ثمانمائة شخص[20] . وكان أغلبهم من المصريين والهنود والشوام ، وقدم الشيخ عبد المجيد ـ إمام

---

(١٩) التايمز . لندن . ١٤ اغسطس ١٩٣٠ .

(٢٠) فى اجابه من وزارة الخارجية البريطانية عن استفسار من السفارة الأسبانية فى لندن عن المؤتمر . قدرت عدد الذين حضروا بأنهم لم يتعدوا المائة والخمسين شخصا .

F.O. 371/1462, September 30, 1930 (Home office to the Spanish charge< d'Affaires in London).

مسجد لندن ، وهو مواطن هندى ـ مكرم عبيد بصفته مصريًا قبطيا ، وأعلن أن مصر والهند يربط فيما بينهما هدف مشترك ألا وهو التطلع إلى الحرية ، وقد ذكر عبيد فى خطابه أن المؤتمر لا يرمز إلى الوطنية وحدها ، ولكنه أيضا تعبير عن المعاناة الطويلة للأمم والشعوب الشرقية وأضاف أن الشرق هو الشرق والغرب هو الغرب ، وكلاهما يناضل ضد الحواجز التى تفرق بينهما لخلق صيغة جديدة للتعايش .

وجدير بالملاحظة هنا أن كثيرين من السياسيين المصريين قد وفدوا إلى العواصم الأوروبية فى تلك الفترة دون أن يفكروا فى حضور مؤتمر اسلامى ، لكن مكرم عبيد ـ القبطى ـ كان متحمسا لحضور مثل ذلك المؤتمر الذى كان هو ضيف شرف فيه لأنه كان يتطلع دوما لتمثيل الأغلبية والتجاوب مع آمالها . فقد كان ذلك أمرا حيويا لدوره السياسى الذى أراده لنفسه .

وقد قام مكرم عبيد بأنشطة سياسية أخرى فى لندن ، ضد حكومة صدقى ، وعقد اجتماعات مع شخصيات بريطانية ، ونشر مقالات عديدة ليبرر السياسة الاقتصادية للوفد ـ باعتباره كان وزير للمالية فى حكومة الحزب ـ ظهر أحدها فى صحيفة « التايمز » ، حيث ذكر فيه أنه بصرف النظر عن المسائل الدستورية والسياسية المحيطة بالأزمة الحالية فى مصر ، فهل يسمح لى ـ بصفتى وزير مالية سابق ـ بالتحدث عن الوجه الاقتصادى المحض لحالة الاضطراب وعدم الاستقرار الحالية فى مصر ، بلغة الحقائق والأرقام النزيهه . فالمشروعات التجارية ـ طبقا للتقارير الواردة من مصر ـ متوقفة تماما ، والوضع الاقتصادى فى أسوأ حالاته . بسبب حالة عدم الاستقرار الحالية فى البلاد ، ومما لاشك فيه أن الوضع المالى سيصبح أكثر سوءا بعد شهر أو شهرين من الآن . عندما تحدث حملة الوفد الداعية إلى الامتناع عن دفع الضرائب مفعولها الكامل . اذا أن الضرائب مستحقة الدفع ابتداء من اكتوبر القادم . ويبدو من المؤكد أن نجاح حملة الوفد يمكن أن يعززه الشقاء والبؤس المالى الحالى لدافعى الضرائب المصريين . ومعظمهم من الفلاحين[٢١] .

وفى ٢٤ أكتوبر ١٩٣٠ ألقى مكرم عبيد محاضرة فى الاتحاد الديموقراطى **Union of Democratic Control** حول موضوع الديموقراطية فى مصر . مع الاشارة إلى الوضع القائم . فاعلن أن الديمقراطية فى مصر والوفد مترادفان . وأضاف قائلا :

---

(21) F.O. 371/14641, August 18, 1930, Lorain Henderson.

« لقد عانت الديمقراطية فى مصر مما أريد به أن يكون لطمة للحرية عن طريق إصدار مرسوم ملكى يجرى تغييرات مذهلة فى الدستور وحق الانتخاب . وقد ألغى الملك دستور ١٩٢٣ بجرة قلم ، وقدم دستورا جديدا سوف يدافع عنه بالقوة الغاشمة ذلك لأنه فى عصر الديمقراطية الذى نعيشه ما تزال القوة هى المبدأ المتحكم فى العلاقات الانسانية . ومصر تخفرها الآن قوات الجيش والبوليس من أقصاها إلى أقصاها . وقد أكد الملك أن « لا صوت نريد سماعه فى طول البلاد وعرضها ما عدا صوت المدفع ، وانه يتعين ألا يكون هناك قانون غير قانون التهديد بقوة السلاح[٢٢] » .

وقد كان مكرم عبيد يستخدم دائما النغمة المتطرفة فى نقده لأعدائه السياسيين واستخدام كل مواهبه فى معاركه ضد أعداء حزبه سواء كانوا عدلى أو محمد محمود أوصدقى . وفى مهماته الرئيسية الثلاث ـ كمبعوث للوفد إلى بريطانيا ـ نجح عبيد فى الدعاية على نطاق واسع لقضية حزبه . والدفاع عن مفهومه السياسى الذى يؤمن به . وقد لعب مكرم عبيد ـ أثناء حكم صدقى الذى دام ثلاثة أعوام ـ دورا قياديا فى حزب الوفد . مقدما ذلك الحزب باعتباره تعبيرا عن ارادة الغالبية رغم ابتعاده عن السلطة .

وفى سنة ١٩٣١ ، قام مكرم عبيد بزيارة لسوريا ولبنان وفلسطين ، وعكست زياراته بعدا جديدا فى الموقف القبطى تجاه مسألة العروبة ، وألقى عدة خطب فى بيروت ودمشق وشتورا والقدس وعكا وحيفا . أثار فيها أن فكرة «الفرعونية» التى تعكسها اتجاهات أدبية معينة . كانت تمثل حركة لفصل مصر عن الدول العربية الأخرى[٢٣] ، وكان هذا أيضا موقفا غير تقليدى لا بالنسبة لسياسى قبطى فحسب ، ولكن بالنسبة لأى سياسى مصرى عموما فى ذلك الوقت ، وقرر أنه يعارض الاتجاه القبطى الذى كان يشعر ببعض المخاوف تجاه مسألة القومية العربية ، وأضاف أن الأقباط لهم جذور مصرية قديمة ، ولكن ذلك لا يتعارض مع عروبتهم ، وفى سنة ١٩٣٩ نشر مقالا ناقش فيه مسألة دولة عربية واحدة ، وطور افكاره العربية بشكل ملحوظ ، وكان مما ذكره فى مقاله « أن التاريخ العربى سلسلة متصلة بسبب وحدة اللغة ، والثقافة العربية ، وأن الوحدة العربية هى حقيقة مؤكدة قائمة ، وأن على العرب أن يسلكوا الطريق الذى سلكه الأوروبيون بأن يقيموا تنظيما يلتقون من خلاله فى ميثاق قومى واحد لبذل الجهود من خلال

(22) F.O. 371/14621, October 28, 1930, Loraine to Henderson.

(٢٣) انيس صايغ ، الفكرة العربية فى مصر ، بيروت . ١٩٥٩ ص ص ـ ١٢٧ ـ ١٧٣ .

النضال العربي المشترك من أجل الحرية والاستقلال[٢٤] . ومن الملفت هنا أن نكتشف أن مكرم عبيد كان لديه تصور واضح لمفهوم العروبة وكانت لديه القدرة لمناقشة الأفكار العربية الطموحة فى تلك الفترة المبكرة نسبيا فى الكتابة والحديث عن القومية العربية ، وقد استخدم عبيد أيضا تعبير « الجامعة العربية » قبل انشاء تلك المنظمة الاقليمية التى تحمل ذلك الأسم بأكثر من خمسة أعوام ، لكن اهتمام عبيد بالبعد العربى لمصر لم يدفعه أكثر من ذلك ، ويصوره تكفى لجعله يلعب دورا رائدا فى السياسة العربية ، كما كان الحال بالنسبة لزميل آخر هو عبد الرحمن عزام على سبيل المثال ، ويمكن تفسير اهتمام عبيد بعروبة مصر ودورها الإسلامى ربما بقدر يزيد عن اهتمام بعض السياسيين المصريين المسلمين لأنه كان يشعر بأن هذين العنصرين . الاسلام والعروبة ، . قد يثيران حساسية بعض الأقباط . ونظرا لطموحه السياسى العظيم . فقد كان يريد التغلب على هذين العائقين على نحو لا يجعل شعبيته فى بلد عربى مسلم عرضه للاهتزاز .

واذا حاولنا ـ من جانب آخر ـ دراسة أفكار عبيد فى الاقتصاد . وأفكاره المتعلقة بالحل الاجتماعى للمسألة الاقتصادية فى مصر . فانه يحسن دراسة خطابين القاهما عبيد . كتقديم لمشروع الميزانية المصرية فى البرلمان سنة ١٩٣٦ ، ومرة أخرى فى سنة ١٩٤٢ . كوزير للمالية . وفى المناسبتين كان الوفد فى الحكم ، وقد أعلن فى خطابه الأول أن مصر تعد دولة غنية اذا كان المعيار هو أنه يمكنها أن تكون مستقلة عن غيرها . وأن لديها مواردها الذاتية ، أو اذا قسنا ذلك بالثروة الحكومية التى يمكن ترجمتها إلى ارقام فى الميزانية . ولكن اذا تأملنا طريقة توزيع الثروة بين طبقات الأمة لوجدنا أن ١٪ يملكون ٤٦٪ تقريبا من الرقم الاجمالى للملكية فى مصر[٢٥] . وفى خطابه الذى عرض فيه الميزانية المصرية على البرلمان سنة ١٩٤٢ . وصف عبيد الحالة البائسة للفلاح المصرى . الذى كان دعامة الاقتصاد المصرى . بقوله :

« والحق انى ما مررت بقرية من قرانا الفلاح يكاد يأكله العمل وغيره يأكله . ويلبسه العرى وغيره يرفل . ويضنيه العيش القذر والمأوى القذر والمرض القذر والماء القذر وغيره يتجمل فيجمل . حتى لكأن المسكين يخرج من الجنة لكى يدعنا ندخل . كلما شهدت هذه المزريات

(٢٤) مكرم عبيد . المصريون عرب . الهلال . القاهرة . ابريل ١٩٣٩ . ص ـ ٣٢

(٢٥) احمد قاسم جوده . المكرميات (خطب وبيانات صاحب المعالى مكرم عبيد باشا) ـ القاهرة (بلا تاريخ) ص ص . ١٧٣ ـ ١٧٥ . والمكرميات هى مختارات من خطب عبيد وأحاديثه ومقالاته فى مناسبات سياسية مختلفة . جمعها ونشرها احمد قاسم جوده ـ رئيس التحرير المسئول لجريدة « الكتلة » .

المفجعات . وحاولت أن أقارن أو أوازن بين ما نرى فى مصر من مفارقات . تولانى شعور أشد ايلاما من الحزن والأسى لأنه مقترن بالكثير من الخجل والكثير من الوجل[٢٦] . وقد ذكر حفنى محمود بك ـ وهو وفدى وشقيق لمحمد محمود باشا ـ فى تقديمه للمكرميات . أنه بينما كان عبيد يلقى إحدى خطبه المتعلقة بالميزانية السنوية فى مجلس النواب . بصفته وزيرا للمالية . ردد تعبيرات مثل « الفلاح المصرى » و « مالك الأراضى الاقطاعى » . حتى أن احد الأعضاء المجاورين لحفنى بك فى الجلسة صاح فى دهشة مستهجنا استخدام عبيد لمثل تلك الكلمات الخطيره . واتهم عبيد بأن لديه تعاطفا مع الفكر الاشتراكى المتطرف[٢٧] !

وفى تقرير سنوى آخر فى مجلس النواب ـ بصفته وزيرا للمالية ـ قال مكرم عبيد : « نحن الآن فى دور التنازع بين الديمقراطية أو العقلية الشعبية والبيروقراطية أو العقلية الحكومية . والقول بأن تحديد أجر العامل الحكومى بحيث لا يقل عن خمسة قروش يوميا أو اعفاء الفلاح من الضريبة اذا بلغت خمسين قرشا سنويا أو الغاء السخرة أو ما شاكل ذلك من اجراءات . القول بأن هذه الاصلاحات تنطوى على اتجاهات اشتراكية فيه ظلم للاشتراكية ولنا . فما هى إلا الألف والباء من قاموس العدالة الاجتماعية[٢٨] .

ويؤدى بنا هذان الخطابان اللذان القاهما مكرم عبيد ـ كوزير للمالية ـ ووضوح بعض الأفكار الاقتصادية فيهما الى سؤال هام : هل كان لدى مكرم عبيد نظرة تقدمية فى معالجته لموضوع الملكية والثروة ؟ ... لقد كان مدركا تماما لشكل المجتمع المصرى فى ذلك الوقت والفروق الطبقية . والتفاوت فى مستوى المعيشة مما يوحى بأنه كان متأثرا بروح وأفكار الاشتراكيين الفرنسيين وقت دراسته فى «ليون» بفرنسا[٢٩] . ولكن يصعب أن تنسب الى عبيد أى تأثر بالاشتراكية الماركسية . وما يمكن تأكيده فقط هو أنه كان يؤمن بضرورة العدالة الاجتماعية . وبضرورة رفع مستوى حياة الشعب المصرى وخاصة الفلاحين . وفى ١٥ ديسمبر ١٩٣٣ أعيد انتخاب مكرم عبيد نقيبا للمحامين . رغم أن حكومة الأقلية ـ فى ذلك الوقت ـ اتخذت اجراءات تشريعية طارئة مما ادى الى موجه من السخط بين المحامين فى مصر . ولكن حكومة نسيم باشا الغت تلك

---

(٢٦) المرجع السابق ـ ص ص ١٧٧ ـ ١٨١ .
(٢٧) المرجع السابق ـ ص ٥
(٢٨) المرجع السابق ـ ص ـ ١٨١ .
(٢٩) انظر الفصل الثانى ـ الهامش رقم ٨ .

الاجراءات الطارئة فى شهر ديسمبر ، وبذلك تم ضمان اعادة انتخاب مكرم عبيد لذلك المنصب الذى كانت توليه الأحزاب أهمية خاصة بسبب الوزن السياسى لنقابة المحامين . ويذكر جوده فى تقديمه للفصل الخاص عن (مكرم ـ المحامى) :

وقد استطاع مكرم باشا بمواهبه الخطابية والبيانية والفقهية أن يظفر بمركز الصداره ، ويحتل مكان الطليعة فى مهنة المحاماة ، وأن يفوز ـ مرة أخرى ـ بالنقابة عن المحامين ، حتى لم يتيسر اقصاؤه احيانا عن كرسى النقيب الا باجراءات التزييف أو بالقوة السافرة فى أكثر من عهد من العهود[٣٠] ، وقد قام مكرم عبيد ـ المحامى المرموق ـ بالدفاع عن عباس العقاد ، الذى كان متهما بالسب فى الذات الملكية ، من فوق منبر البرلمان . وكان ما قاله مكرم عبيد فى المحكمة أن العقاد الكاتب والعقاد النائب فى البرلمان ليس مدانا بالعيب فى ذات صاحب الجلاله ، وانه قد تلقى معاملة سيئة أضرت بصحته دون أن يستجاب لشكواه[٣١] . وقد واصل عبيد مرافعته فى المحكمة . وقارن بين الموقف الذى يواجهه العقاد وما واجهه رسول الله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عنت قومه واستبدادهم ، وكانت النقطة التى ركز عليها عبيد فى خطاب مرافعته فى المحكمة هى أن العقاد فى المقام الأول . مثقف متميز وكاتب مرموق قبل أن يكون سياسيا ، ويعتبر دفاع مكرم عبيد فى محاكمة العقاد واحدا من أروع وأشهر المرافعات فى تاريخ المحاكم المصرية ، والواقع أن مكرم عبيد قد نال شهرة واسعة كمحام فى القضايا السياسية أوغير السياسية .

وقد فكر عبيد عندما كان نقيبا للمحامين فى تنظيم اضراب عام ضد البريطانيين وقد كانت وجهة نظر السلطات البريطانية فى القاهرة هى أن المحامين فى مصر هم آخر عنصر قد تثيره الحكومة وتستفزه ، وأن اضرابا للمحامين ـ اذا ما أمكن تنظيمه ـ سوف يثبت فعاليته فى احداث الاضطراب فى الحياة العامة[٣٢] .

ولكن لم يحدث ذلك الاضراب لأن العلاقات التى كانت تتجه الى التحسن مع بريطانيا جعلته مجرد فكره ، ولم ينس مكرم عبيد فى حياته السياسية أبدا أنه كان محاميا وكان دائما ما يولى مهنته اهتماما وافرا خاصه فى الفترات التى لم يكن فيها الوفد فى الحكم . وقد مارس دورا فعالا كنقيب

---

(٣٠) أحمد قاسم جوده ـ المصدر نفسه ـ ص ١٩٤ ـ ١٩٦ .

(٣١) انيس منصور ـ « العقاد فى ذكراه » ـ آخر ساعة ـ القاهرة ٢٦ مارس ١٩٧٥ .

(32) F.O. 371/ 17983, July 23, 1934, Lampson to Simon.

للمحامين . مضفيًا على دور النقابة طابعا سياسيا بفضل موقعه كسكرتير عام للوفد . وفى نفس الوقت كان عبيد ـ مثل النحاس وغيرهما من الزعماء السياسيين ـ مستغرقا فى متابعة تطور العلاقات الانجليزية المصرية من خلال سلسلة طويلة من المفاوضات . بدءا من مباحثات زغلول ـ ملنر سنة ١٩٢٠ . حتى محادثات صدقى ـ سيمون سنة ١٩٣٢ .

وكان عبيد ينظر الى بريطانيا فى ضوء المطلب المصرى من أجل الاستقلال التام مع الاحتفاظ بالصداقة مع الحليف الدائم ـ بريطانيا العظمى . وقد فسر عبيد آراءه يوما بأن استعادة دستور ١٩٢٣ . وعقد معاهدة انجليزية ـ مصرية هما هدفان رئيسيان للسياسة الوفدية (٣٣) . ومنذ سنة ١٩٣٣ أخذت علاقات الوفد مع بريطانيا فى التحسن ببطء عندما بدا فى الأفق أن الوفد سوف يتجه لا تخاذ خطوة ايجابية تجاه بريطانيا اذا قدر له تولى السلطة . وفى حفل اقامته كلية فيكتوريا يوم ٢٧ مارس ١٩٣٤ حضر مكرم عبيد ـ كضيف شرف ـ والقى خطابا وديا تجاه بريطانيا والثقافة الانجليزية . وركز فيه اساسا على المشكلة الانجلو ـ مصرية . وأمتدح التعليم البريطانى وآثاره فى تكوين شخصية المثقفين المصريين . كما ركز على أن التعليم البريطانى يعزز ويدعم روح الحرية والاستقلال لدى أولئك الذين يتلقونه (٣٤)

والواقع أن بريطانيا كانت تعنى أشياء كثيرة بالنسبة لعبيد . فهى الدولة التى تلقى فيها تعليمه والتى فيها امضى بعض سنوات عمره ذات الأثر الكبير فى تكوينه ونشأته كما كان ينظر اليها على انها هى التى شكلت شخصيته ووسعت مداركه ، كما انها ـ فى الوقت نفسه ـ هى دولة الاحتلال الذى يعانى منه وطنه ، ولمكرم عبيد خطاب قديم القاه فى سبتمبر ١٩٢٠ فى حفل تكريم اقامه خريجو جامعة اكسفورد من المصريين لمحمد محمود باشا ، وقد ذكر فيه أنه غير قادر على التوفيق بين احترامه واعجابه بالشعب البريطانى ـ الذى عاش بينه وارتبط به ـ وبين مشاعره المعادية لسياسة بريطانيا فى مصر (٣٥) . وعلى الرغم من أن مكرم عبيد كان يعتبر وطنيا متشددا فقد كان دائما يؤكد أن بريطانيا هى مركز الفكر الديموقراطى والليبرالى . كما كان يبدى اعجابه باسلوب الحياة الانجليزية ، والنظام البرلمانى البريطانى .

---

(33) F.O. 371/ 17980, October 5, 1934, Peterson to Simon.

(34) 371/ 17982, April 16, 1934, Lampson to Simon.

(٣٥) أحمد قاسم جوده . المصدر نفسه . ص ١٤٢ ـ ١٤٤ .

وفى سنة ١٩٣٥ . ظهرت آثار التحسن فى العلاقات الانجلو ـ المصرية . من خلال بيانات وتصريحات زعماء الوفد . ففى خطاب القاه مكرم عبيد فى حفل شاى اقامه محامو الاسكندرية تكريما للنحاس . ذكر عبيد أن هناك فرصة ذهبية لعقد اتفاقية صداقة بين مصر وانجلترا(٣٦) . كما ذكر فى مناسبة أخرى أن أية معاهدة يتم التفاوض بشأنها بواسطة حكومة الأقلية ـ حتى ولو كانت ايجابية بصورة أكبر بالنسبة لقضية مصر من تلك التى وقعها الوفد سنة ١٩٣٠ ـ ستكون غير مقبولة من الوفد لأنها صدرت عن حكومة غير دستورية(٣٧) .

وقد بدأت الحكومة البريطانية عام ١٩٣٥ فى استطلاع ودراسة آراء الزعماء السياسيين المصريين . كى تستكشف مواقفهم من مسألة المفاوضات . وكان سير مايلز لامبسون . المندوب السامى . قد اجتمع بزعماء الأحزاب . خاصة أولئك الذين كانوا قد اجروا مفاوضات مع بريطانيا من قبل (النحاس ـ من حزب الوفد . ومحمد محمود من حزب الأحرار . وصدقى ـ من حزب الشعب) لأن البريطانيين كانوا يرغبون فى التفاوض مع القوى الوطنية التى تمثل جميع الأحزاب السياسية من أجل تفادى الهجوم من أى قطاع فى الرأى العام المصرى .وفى ١٣ فبراير صدر مرسوم ملكى متضمنا اسماء أعضاء وفد قومى من كل الأحزاب لاجراء المفاوضات مع الحكومة البريطانية . ويتكون من (مصطفى النحاس ـ رئيسا . محمد محمود . اسماعيل صدقى . عبد الفتاح يحيى . واصف بطرس غالى . احمد ماهر . على الشمسى . عثمان محرم . احمد حمدى سيف النصر . حلمى عيسى . مكرم عبيد . حافظ عفيفى . ومحمود فهمى النقراشى (أعضاء) . وأصبح عبيد عضوا فى وفد كل الأحزاب السياسية كممثل لحزب الوفد . وأصبح وزيرا للمالية فى حكومة النحاس فى مايو ١٩٣٦ . وحصل على لقب باشا . ودور عبيد فى مناقشات ومفاوضات معاهدة ١٩٣٦ . وتقييمه لها . تتضمنه محاضره له حول ذلك الموضوع القاها فى الجامعة المصرية فى نوفمبر ١٩٣٦ .

وقد القى مكرم عبيد هذه المحاضره بعربية رفيعه مستخدما ما اسلوبه الأدبى المتميز وقد عدد

---

(36) **F.O. 371, 19074, September 9, 1935, Kelly to Hoare.**

(37) **F.O. 371, 17980, October 5, 1934,** Peterson to Simon.

(٣٨) مكرم عبيد ـ **محاضرة معالى الاستاذ مكرم عبيد باشا فى الجامعة المصرية ـ بحث تحليلى مقارن على المعاهدة المصرية ـ البريطانية .** القاهرة أول نوفمبر ١٩٣٦ (٧٦ صفحة) .

مكرم عبيد ـ فى محاضرته تلك ـ كل مراحل التفاوض بين مصر وبريطانيا(٣٩) . الى أن توصل الجانبان الى الاتفاقية التى جسدتها معاهدة ١٩٣٦ . ونظر الى مفاوضات النحاس ـ هندرسون يوصفها القاعدة الصلبة لمعاهدة ١٩٣٦ . لأن المعاهدة تتضمن معظم البنود التى تمت مناقشتها فى محادثات ١٩٣٠ . وهى المحادثات التى فشلت لأن الجانبين عجزا عن التوصل الى اتفاق حول مسألة السودان .

وكان عبيد مبالغا فى الاحساس بدوره الحزبى لأنه كان يرى أن أية اتفاقية يوقعها الوفد سوف تنال رضاء الجماهير . وكانت هذه النقطة معروفة لبعض السياسيين البريطانيين انفسهم . فقد سجلها هيوج دالتون ـ السياسى العمالى البريطانى فى مذكراته . وهو الذى أصبح فى سنة ١٩٤٥ . وزيرا للخزانه ـ وكتب فى مذكراته حول مباحثات ١٩٣٠ يقول :

« لقد كانت لنا جولات أخرى مع المصريين فى ربيع ١٩٣٠ . وارسلوا هذه المره . وفدا كبيرا برئاسة النحاس باشا ـ رئيس وزرائهم . ومكرم عبيد . وكنت أعتقد . وكثيرا ما قلت علنا . انه من أجل عقد معاهدة انجلو ـ مصرية . فان الوفد وحده هو القادر على تقديم الوجه الحقيقى لمصر . وأية حكومة مصرية أخرى . سوف يزايد عليها الوفد ويسقطها حتى لو وقعت معاهدة معقولة »(٤٠) .

ومن الواضح أن مكرم عبيد كان متأثرا فى تقييمه للمعاهدة فى محاضرته الشهيرة التى ألقاها فى الجامعة المصرية بموقفه الحزبى ودوره السياسى فى المفاوضات كساعد أيمن للنحاس باشا . وقد وصف أحد الطلاب محاضرته بأنها كانت متقدة وذات اسلوب حماسى . يميزها خط حزبى متطرف(٤١) . وفيها امتدح مكرم عبيد النحاس ـ الذى كان بين الحاضرين ـ عدة مرات . واعلن عن تقديره واعجابه بجهود زعيم الحزب لا نجاز معاهدة الصداقة والتحالف . أو ـ كما كان عبيد الوفدى يسميها ـ معاهدة الشرف والاستقلال . وقد اتخذ عبيد خطا قويا فى الدفاع عن

---

(٣٩) زغلول ـ ملنر . عدلى ـ كيرزون . زغلول ـ ماكدونالد . ثروت ـ شامبرلن . محمود ـ هندرسون . النحاس ـ هندرسون . صدقى ـ سيمون .

(40) H. Dalton, call Back Yesterday, Memoirs 1887-1931, London, 1953, p. 249.

(٤١) محمد حشيش . معاهدة ١٩٣٦ . وأثرها فى العلاقات المصرية ـ البريطانية حتى ١٩٤٥ . رسالة دكتوراه . جامعة عين شمس . القاهرة . أبريل ١٩٧٠ ص ٣ من المقدمة .

المعاهدة وتبريرها . وهى المعاهدة التى لقيت معارضة عنيفة من الحزب الوطنى وقطاع كبير من الطلاب وجماعة مصر الفتاة ، بزعامة احمد حسين[٤٢] .

ويؤرخ كثير من الدارسين للحركة الوطنية المصرية الحديثة لهبوط شعبية الوفد بتوقيعه للمعاهدة . ويرون بأن توقيع المعاهدة سلب الحزب جاذبيته الوطنية التى تمتع بها طويلا واحاله الى مجرد تجمع حزبى يدعو للاعتدال والتعاون مع بريطانيا[٤٣] .

وقد لعب عبيد دور الداعية الذى يحاول اقناع الرأى العام المصرى بالمعاهدة وترغيبه فيها لصالح الوفد كحزب وكحكومة فى الوقت ذاته . وقد تبعت المعاهدة خطوة ذات مغزى على طريق الاستقلال الوطنى . وكانت تلك الخطوة هى مؤتمر الامتيازات الأجنبية فى «مونترو» الذى افتتح فى ١٢ ابريل ١٩٣٧ حيث تفاوض وفد مصرى برئاسة النحاس باشا[٤٤] ، مع الدول المعنية . وحصل على موافقتها لانهاء الامتيازات الخاصة برعاياها فى مصر[٤٥] . وبدا أن هذا الانجاز قد

---

(42) F. O. 371/ 20119, September 16, 1936, From Kelly to Eden.

(جماعة مصر الفتاة كانت حركة سياسية ضمت عددا كبيرا من الشباب . ونشأت فى أوائل الثلاثينات . وتأثرت ببعض الأفكار المعاصرة والتنظيمات الألمانية . وكان يرأسها محام شاب هو أحمد حسين . يساعده بعض مؤيديه مثل محمد صبيح . وأبراهيم شكرى وضمت تنظيما شبه عسكرى . بزى خاص وكان يسمى (ذوى القمصان الخضراء) وانهارت علاقتهم مع الوفد عندما حاول أحد أعضائها . وهو عز الدين عبد القادر . اغتيال النحاس فى ٢٨ نوفمبر ١٩٣٧ . وكانت جماعة (مصر الفتاة) مرتبطة بشخصيات مثل على ماهر . وعزيز المصرى كما كانت معروفة بتعاطفها مع دول المحور) .

انظر : أحمد حسين . ايمانى . القاهرة . ١٩٣٦ .

(٤٣) انظر . على سبيل المثال . عصام سليمان . مرجع سابق ـ ص ـ ٦٥ .

ونفس التحليل ذكره الأستاذ محمد حسنين هيكل فى مقابلة معه يوم ٣٠ سبتمبر ١٩٧٥ .

(٤٤) تشكل الوفد المصرى برئاسة النحاس باشا من : أحمد ماهر . وواصف بطرس غالى . ومكرم عبيد . وعبد الحميد بدوى .

(٤٥) ترتبط الامتيازات الأجنبية بنوع من المعاهدات التجارية التى عقدتها الدول الغربية مع الدول الأسيوية والأفريقة والتى يتمتع الرعايا الغربيون بموجبها بامتيازات خاصة خارج نطاق التشريع الوطنى . لذلك كان المقيمون الأوربيون فى المستعمرات خاضعين لقوانين حكوماتهم . ويعفون من قوانين الدول المضيفة لهم . وقد تطور النظام وانتقل من مناطق الشرقين الأدنى والأوسط إلى انحاء الأمبراطورية العثمانية .

انظر :

I.c. Hurewitz, **Diplomacy in the Near and Middle East**, Vol., 1, Princeton, 1956, pp. 1-21.

انعش الروح المعنوية للمصريين نظرا لأنه جعل المصريين والأجانب سواء أمام القانون لأول مرة منذ قرابة أربعة قرون . وعلى الرغم من حقيقة لا يمكن انكارها وهي أن عبد الحميد بدوى[٤٦] . قد قام بالجهد الرئيسي في المؤتمر – كخبير قانوني – فقد كان لمكرم عبيد ايضا . دور حيوى خاصه فيما يتعلق بالمناقشات حول الفترة الانتقالية لانهاء الامتيازات الأجنبية . وقد أصر الجانب المصرى على جعل الفترة الانتقالية قصيرة بقدر الامكان . بينما كانت الوفود الغربية شديدة التمسك بجعلها اثنى عشر عاما على الأقل .

وفى ٦ أكتوبر ١٩٣٦ استقبل الزعيم النازى «هتلر» النحاس وعبيد فى برلين . ولم يكن السبب الحقيقى للزيارة واضحا . وهل هى زيارة مجاملة أم كانت لها أهداف سياسية . فبينما أعلن السبب الظاهرى لزيارة رئيس الحكومة المصرية ووزير ماليته لالمانيا . هو رغبتهما فى استشارة طبيب المانى حيث أخبر الوزير المفوض المصرى فى برلين «سير/ اريك فيس» من السفارة البريطانية فى المانيا بأن صحة مكرم باشا متدهوره . وأن الطبيب الذى استشاره فى برلين . ذكر أن عبيد قد يموت فى أية لحظة ومن ناحية أخرى . ابلغ امين عثمان عضوا فى السفارة البريطانية بالقاهرة أن الهدف الرئيسى للزيارة كان يتعلق بموقف المانيا من الامتيازات الأجنبية[٤٧] . ولكن يبدو أن رواية امين عثمان – وقد كان وثيق الصلة بكل من الوفد والانجليز – هى الأقرب الى الحقيقة . لأن زيارة النحاس لهتلر تمت وهما فى طريقهما الى الوطن قادمين من مؤتمر «مونترو» .

وبينما كان الوفد – كحكومة – يحقق نجاحا فى الخارج بتوقيع معاهدة ١٩٣٦ ومعاهدة انهاء الامتيازات الأجنبية . كانت هناك اتجاهات معاكسة داخل كيان الحزب نفسه . اذ وقع حدث هام عام ١٩٣٧ . بخروج محمود فهمى النقراشى . واحمد ماهر من الحزب . وقيامهما بتكوين الحزب السعدى بعد ذلك مما ادى الى تزايد نفوذ مكرم عبيد وتأثيره على النحاس وحزب الوفد . وكان أحمد ماهر . والنقراشى يشعران بتحكمه وسيطرته على الحزب. وأيدهما – فى ذلك الاحساس – أرملة زغلول باشا (أم المصريين) التى كانت تنتقد كثيرا سياسة النحاس وعبيد[٤٨] .

---

(٤٦) بدأ الدكتور بدوى حياته العامة كسكرتير سياسى لثروت باشا . وكانت ميوله معادية لحزب الوفد . وقد اعتاد بعض الوفديين . ومنهم عبيد . تسميته بـ «مفتى القرية» . ولم تكن له علاقات طيبة مع عبيد . وكثيرا ما تبادلا النقد .

(47) F.O. 371/ 20122, November 20, 1936, From Phipps (Berlin) to Eden.

(مما يدعو للتأمل ان مكرم عبيد توفى بعد ذلك بخمسة وعشرين عاما)

(٤٨) من لقاء مع السيد سعد فخرى عبد النور . فى ١٣ سبتمبر ١٩٧٤ .

ووفقا لما ذكره لا مبسون . كان هناك خلاف حاد بين احمد ماهر ومكرم عبيد فقد أتهم الأخير أحمد ماهر بأنه مأجور لرئيس الوزراء . وانه يحيك المكائد بهدف ابقاء على ماهر شقيقه بالقرب من الملك واضعاف قوة الوفد[٤٩] .

وقد رأى النحاس فى معالجة عبيد للأمور ونهجه السياسى ما يرضيه ويحقق روح «الوحدة الوطنية» التى برزت فى عهد سعد زغلول . ولم يكن النحاس يتوقع أن يقوم النقراشى واحمد ماهر بالتعجيل باحداث الانشقاق فى صفوف الوفد[٥٠] . وقد بدأ الخلاف بين ماهر والنقراشى فى جانب وزعامة الوفد فى جانب آخر عندما ثار خلاف فى الرأى داخل مجلس الوزراء حول موضوع توليد الكهرباء من خزان اسوان . وكان محمود غالب وزير العدل . والنقراشى وزير المواصلات ـ بتأييد من احمد ماهر رئيس مجلس النواب ـ يرغبان فى عوض المشروع من خلال عطاء عالمى . بينما كان عبيد وأعضاء مجلس الوزراء الآخرون ـ بتأييد من النحاس ـ يصرون على ضرورة قيام شركة بريطانية معينة بتولى المشروع على الرغم من أن التكاليف ستكون أكثر وأجرى النحاس تعديلا فى وزارته فى أغسطس ١٩٣٧ مستبعدا النقراشى . وغالب من حكومته . وبعد ذلك عقدت اللجنة العليا للوفد اجتماعا لمناقشة المسألة . وانسحب احمد ماهر الذى لم يلق الاّ تأييدا ضئيلا[٥١] . وكان هذا أحد الانشقاقات الرئيسية فى تاريخ الوفد . ونجم عنه ميلاد الحزب السعدى تحت زعامة احمد ماهر والنقراشى . ويدل ذلك الانشقاق على الثقل السياسى الحقيقى لمكرم عبيد . وتأثيره ونفوذه على النحاس والحزب . وقد كان نفوذ مكرم عبيد فى مجلس الوزراء سببا فى زيادة السخط والاستياء . ولم يتردد أعضاء الوفد فى استخدام النعرة الطائفية فى حملتهم ضد مجلس وزراء وصفوه بأنه خاضع بشكل واضح للنفوذ القبطى[٥٢] .

وتمثل فترة الثلاثينات سنوات الذروة فى حياة مكرم عبيد ونشاطه كسياسى . اذ كان القوة الحقيقية خلف زعامة حزب الأغلبية . كما كان سحر شخصيته وجاذبيتها مصدر قوته فى نشاطه السياسى اذ كانت لديه القدرة على الوصول الى الجماهير والتأثير فيها . ولأنه كان متحدثا ممتازا يتمتع

---

(49) F.O. 371/ 20105, April 27, 1936, From Lampson to Eden.

(٥٠) عبد العظيم رمضان . الوثائق المصرية فى التاريخ المصرى . مجلة (صباح الخير) القاهرة . ١٧ فبراير ١٩٧٧ .

(٥١) د . محمد حسين هيكل . مذكرات فى السياسة المصرية . المجلد الثانى (١٩٣٧ ـ ١٩٥٢) ص ص : ٣٥ ـ ٣٦ . ص ص : ٤٨ ـ ٤٩ .

(52) F.O. 371/ 22004, April 13, 1938, From Lampson to Eden.

بالقدرة على اختيار الكلمات المناسبة وبايقاع متواتر متزن . فقدركز دائما احاديثه الى قلب امة عاطفية بدلا من أن يوجهه الى عقل مفكريها . وقد كان لسحر الشخصية وجاذبيتها دائما أثره على المواطنين خصوصا فى الدول غير المتقدمة . ومثل تلك الميزات الشخصية غير متاحة للانسان العادى . ويمكن اعتبارها أقرب الى الموهبه من الخبرة المكتسبة . ويتم على اساسها التعرف على خصائص الزعامة لدى اصحابها[٥٣] . فاذا كان ذلك هو مفهوم الكاريزما (CHARISMA) أو سحر الشخصية وجاذبيتها . فانه يمكن اعتبار مكرم عبيد سياسيا له خاصية متميزة وذو شخصية تتصف بالحيوية . الى جانب ثقافته المزدوجة . العربية والأجنبية . واتصاله السهل والمؤثر بجماهير الشعب . كما يمكن أن نصنفه «ديماجوجيا» سياسيا الى حد كبير مثل كثير من ساسة العالم المتخلف ممن يقدرون على جذب الجماهير والحصول على الشعبية . واذا ما قارنا عبيد بالسياسيين المصريين الآخرين . مثل اسماعيل صدقى . على سبيل المثال . لوجدنا أن الأخير كان يفتقد الى وسيلة الاتصال السهلة والعلاقة الحميمة بالشعب والتى كان يمتلكها عبيد . ولأنه متحدث ممتاز مصدر قوة عظيمة على المسرح السياسى . ليس فقط فى الدول المتخلفة . بل فى الدول المتقدمة ايضا (مثل لويد جورج فى بريطانيا) . ويعتبر مكرم عبيد أشهر خطيب فى التاريخ السياسى المصرى الحديث . ولسوء الحظ . فان أية ترجمة لخطبه واحاديثه تعجز عن ابراز قوتها الحقيقية لأنه من غير الممكن الابقاء على الاسلوب الخاص لبلاغته فى الترجمة . وكان مشهورا باستخدام السجع . كى يدفع بوجهة نظره الى هدفه المنشود .

وقد القى خطبًا وأحاديث فى مناسبات عديدة لا تحصى . بعضها لأهداف وطنية . والبعض الآخر لاسباب ودواع سياسية أو حزبية . بالاضافة الى احاديثه وخطبه الوزارية والبرلمانية . ويتعين أن نضيف الى تلك دفاعه البارع فى القضايا الحقوقية الشهيره . حيث أثبت انه محامى مرافعات متميز فى كل من القضايا السياسية والمدنية . وقد وصف عباس العقاد . مكرم عبيد فى مقدمته للمكرميات بانه مزيج اهتمامات متنوعة ونشاطات مختلفة . مع موهبة فى الأدب والسياسة[٥٤] . والواقع أن خبرة مكرم عبيد كمحام . ساعدته كثيرا كسياسى . لأن المحاماه كمهنه . كانت امتدادًا لنشاطه السياسى . وقد كان معظم الوزراء المصريين فى تلك الفترة محامون

(53) Max Weber, **On charisma, and Institution Building**, selected papers- Edited and withe an introduction by S. N. eisenstadt, Chicago, 1968, p. 48.

(٥٤) احمد قاسم جوده . المصدر نفسه . ص ـ ١٠

أو من خريجي مدرسة الحقوق . وقد كان مكرم عبيد محاميا ناجحا بكل المقاييس . ولا زالت اصداء مرافعاته معروفه فى تاريخ المحاماة فى مصر . وقد كان يعتمد فى دفاعه على التحليل المنطق لدوافع الجريمة ، ويتصور نفسه فى موضع المتهم امام المحكمة[٥٥] .

ومن طرائف الأدب والسياسة فى حياة مكرم عبيد ذلك المقال الذى كتبه فى «كوكب الشرق»[٥٦] . فى ٦ أكتوبر ١٩٣٥ . وهاجم فيه عباس العقاد . متهما اياه بالغطرسة والنفاق والرياء . وبأنه بدأ حياته العامة فى خدمة السلطات العسكرية البريطانية . كرقيب على الصحافة المصرية . وكان السبب الرئيسى لذلك المقال العنيف هو أن العقاد كان قد انتقد بعنف حكومة نسيم باشا لأن الهلالى باشا وزير المعارف فى حكومته ، كان قد رفض وساطة العقاد الشخصية لبعض اصدقائه . كما تردد فى ذلك الوقت ولم تكن سياسة الوفد عدائية تجاه حكومة نسيم ، كما لم يكن العقاد ــ ككاتب وفدى ــ قد استشار زعامة الحزب قبل أن يبدأ حملته الصحفية ضد الحكومة .

ويعتبر مقال عبيد نموذجًا رائعًا للمقال الصحفى القوى . وقد تصدى العقاد للهجوم بأن رد على عبيد فى «روز اليوسف» فى ١٧ أكتوبر ١٩٣٥ . مفندا الادعاء ومتهما اياه بتبديد أموال الوفد برحلاته الى لندن وباريس[٥٧] .

وكانت العلاقات بين عبيد كسياسى والعقاد ككاتب . طيبة أحيانا . وسيئة أحيانا أخرى . فقبل المجادلات الحادة بينهما على صفحات الجرائد والمجلات . دافع عن العقاد فى محاكمته السياسية . وبعدها ايضا . كتب العقاد مقدمة «المكرميات» ممتدحا عبيد . قائلا انهما قدما سويا من مدرسة فى قنا اشتهرت بتلاميذها الذين حققوا لأنفسهم ــ فيما بعد ــ شهرة عظيمة فى مجال الأدب[٥٨] . ذلك هو مكرم عبيد . القوة الفعالة فى حزب الوفد . والبرلمانى المتميز والمحامى المعروف والخطيب المشهور . والوزير النشط . وعلاوة على ذلك «كان منصب السكرتير العام

---

(٥٥) من لقاء مع السيد/ صلاح الشاهد فى ٢٠ يناير ١٩٧٥ .

(٥٦) كانت «كوكب الشرق» صحيفة وفدية حلت على صحيفة «المنار» سنة ١٩٢٤ برئيس التحرير نفسه . وهو حافظ عوض . واتخذت الخط المتطرف فى الوفد وتبعت احمد ماهر . والنقراشى فى انفصالها ١٩٣٧ .

(٥٧) رجاء النقاش . عباس العقاد بين اليمين واليسار . بيروت (بدون تاريخ) ص ص : ٣٨١ ــ ٣٩٨ .

(٥٨) احمد قاسم جوده . المصدر نفسه . ص ــ ٩ .

للوفد » يعتبر أهم منصب سياسى وشعبى فى مصر فى ذلك الوقت[٥٩] . وكان مثلما وصفه الدكتور محجوب ثابت . الأديب . وأحد اصدقاء سعد زغلول المعروفين . حين ذكر عن عبيد :

« انه خطيب يؤثر بالعاطفة كالموسيقى . صديق مخلص . عدو جبار . انه ملاك فى صداقته . شيطان فى خصومته[٦٠] .

---

(٥٩) ابراهيم طلعت . **أيام الوفد الأخيرة** ، روز اليوسف ، القاهرة . ٢١ فبراير ١٩٧٧

(٦٠) صالح السودانى . **الأسرار السياسية لأبطال الثورة المصرية والدكتور محجوب ثابت** ، القاهرة ١٩٤٥ ـ ص ـ ٢٦٦ .

الفصل الرابع

مكرم عبيد
والانشقاق عن الوفد



مكرم عبيد
والانشقاق عن الوفد

تمثل الفترة ما بين ١٩٣٧ و ١٩٤٢ . العصر الذهبي لحياة مكرم عبيد السياسية فقد أصبح مكرم عبيد ـ منذ خروج أحمد ماهر والنقراشي عن الوفد سنة ١٩٣٧ ـ أقوى قطب في الوفد بلا منافس تقريبًا . وقد ساعدت شخصية النحاس البسيطة وشفافيته على ذلك . فقد كان النحاس ـ برغم صلابته ـ أقل ذكاء ومهابة من زغلول[1] وتلك الشخصية ساعدت عبيد كثيرًا في أن يكون القوة المؤثرة إلى جانب زعيم الوفد . وفي الفترات التي كان فيها الوفد في السلطة . كان عبيد الرجل الثاني كوزير المالية . وبصفته المستشار الأول للنحاس . وحين كان الوفد خارج السلطة كان عبيد دعامة الحزب . علاوة على انشغاله في الأنشطة الأخرى وأهمها دوره البرلماني ومسئولياته في نقابة المحامين . وقد لا تتكرر ظاهرة عبيد كثيرا في السياسة المصرية لأنها ارتبطت بعوامل معينة وظروف بذاتها تدخلت في صياغتها وتشكيلها . وتعتبر شخصية عبيد تعبيراً عن الرغبة في تحقيق واقرار الوحدة الوطنية . والسعي من أجل الاستقلال . وهي الوحدة الذي تعززت تحت زعامة زغلول . كما كانت أيضًا تعبيرًا عن النضج الاجتماعي المصري في مناخ ليبرالي ديموقراطي . وقد نشأت العلاقة الشخصية والسياسية بين النحاس وعبيد . وتوطدت عن طريق مساهمتهما المشتركة في الحركة الوطنية منذ أيام زغلول خصوصا أثناء فترة المنفى . عند ما أصبحا صديقين حميمين حيث تمتع عبيد بمنزلة خاصة لدى سعد زغلول . والنحاس . وقد ذكر عبيد أن زغلول قد قال له ـ ذات مرة ـ أثناء فترة المنفى انه مسلم . وان عبيد قبطي . ولكنه يحمد الله أن يكون له ابن مثله[2] . وقد كانت المشاركة بين زغلول وكل من النحاس وعبيد سببا في أن الأخيرين قد اكتسبا نظرة متقاربة للقضايا العامة والمسائل الوطنية لذلك فقد لعب عبيد دورًا نشطًا في اختيار النحاس

---

(1) M. Zayid, Egypt's struggle for Ihdépendence, beirut, 1965, p. 127.

(٢) ذكر عبيد ذلك خلال شهادته أثناء محاكمة فؤاد سراج الدين في ٢ يناير ١٩٥٤ بالقاهرة .

كخليفة لزغلول . بتأييده ومساندته ضد منافسيه السياسيين الآخرين . وبإقدامه على جمع الأصوات لصالحه[٣] .

وقد كان عبيد مكملا لمواطن الضعف فى شخصية النحاس أحيانًا . وهو الذى أيد النحاس وعضد اتجاهاته بين صفوف الوفد خلال انشقاق عام ١٩٣٠ و ١٩٣٧ . وكان بمثابة صمام الأمان لشخصية النحاس الطيبة فى كثير من المواقف[٤] . وقد كان عبيد ايضًا وراء طرد عباس العقاد من حزب الوفد . على الرغم من أن العقاد كان صحفيا بارزًا مؤيدًا للوفد . وكرر نفس الأسلوب ـ بعد ذلك ـ مع فاطمة اليوسف . صاحبة مجلة روز اليوسف . التى قالت فى مذكراتها أن عبيد كان يسيطر على اجتماعات النحاس ويتحكم فيها[٥] . وتقدم قصة النزاع بين مجلة روزا اليوسف وحزب الوفد مثالاً طيبًا لنفوذ عبيد لأنه كان صاحب القرار فى مسألة إنهاء العلاقة بين الوفد وأكثر المجلات فعالية فى تأييده وذكرت فاطمة اليوسف أن السبب كان مقالاً نشرته تحت عنوان « وليم الكذَّاب » . علقت فيه على قصة زائفة كتبها محام اسمه وليم الديوانى . فى « الجهاد » وهى صحيفة وفدية أخرى متهما فيها روز اليوسف بأنها تأخذ رشاوى . واعتبر عبيد اختيار عنوان مقال روز اليوسف . كتلميحة واضحة عليه . لأنه كان يحمل اسم وليم قبل انخراطه فى الحركة الوطنية . فانتهز فرصة هجوم روز اليوسف على حكومة نسيم ـ بدون تعليمات من زعامة الحزب واعتبره نوعا من الخروج على سياسة الوفد . واتخذت اللجنة العليا للوفد فى ٢٨ سبتمبر ١٩٣٥ قرارًا بألا تعتبر روز اليوسف ـ منذ ذلك الوقت ـ مجلة وفدية[٦] .

.. وجدير بالذكر أن مصر منذ بداية الحرب العالمية الثانية قد بدأت تشهد موجات من المتعاطفين مع المانيا الهتلرية . لا . لأنها كانت تعبيرًا عن افكارهم وآمالهم أو نتيجة قبولهم للمبادئ والأفكار النازية . ولكن لأنهم كانوا يعتقدون أن بانتصار المانيا يبدأ الطريق الى الحرية والاستقلال . لأن كلا من مصر والمانيا كانتا تعارضان بريطانيا كل لأسبابه ودوافعه[٧] .

---

(٣) انظر : أحمد شفيق . الحولية الرابعة (١٩٢٧) . القاهرة ـ ١٩٢٨ .

(٤) قبل انشقاق احمد ماهر والنقراشى سنة ١٩٣٧ كان هناك انشقاق آخر سنة ١٩٣٠ عندما انسحبت مجموعة وفديين من الحزب احتجاجًا على سياسة النحاس المعتدلة ونفوذ العناصر الجديدة فى الحزب . وسمى هؤلاء المنشقين بمجموعة السبعة والنصف . لأن احدهم (على الشمسى) كان قصير القامة .

انظر : محمد حشيش . حزب الوفد . رسالة ماجستير غ نشر ـ جامعة عين شمس ـ القاهرة ـ ١٩٧٠ .

(٥) فاطمة اليوسف . ذكريات . القاهرة . ١٩٥٣ . ص ـ ١٥٢ .

(٦) المرجع السابق ـ ص ـ ١٨٢ ـ ١٩٠ .

(٧) انظر : عبد العظيم رمضان . تطور الحركة الوطنية فى مصر ، ١٩٣٧ ـ ١٩٤٨ . المجلد الثانى ـ بيروت (بلا تاريخ) .

وقد واجهت حكومة سرى باشا صعابا متزايدة بسبب المشكلات الداخلية المتفاقمة[٨]. واضطر محصول القمح الضعيف عام ١٩٤١ الحكومة الى الحد من المساحة المخصصة لزراعة القطن . بهدف تحقيق زيادة فى مخزون الحبوب . كما قامت الحكومة . بالاضافة الى ذلك باتخاذ إجراءات لمنع تخزين الحبوب لدى المواطنين لمقاومة السوق السوداء والتحكم فى أقوات الشعب . ولما كان معظم أعضاء البرلمان من ملاك الأراضى والذين كان من الممكن أن يتأثروا ــ بصورة أو بأخرى ــ بتلك الاجراءات . أرغم سرى على اتباع حل وسط مما جعل سياسته عقيمة وعاجزة . وأدى الى زيادة مضطردة فى تكاليف المعيشة[٩] . وتميزت الفترة ما بين بداية الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر ١٩٣٩ و ٤ فبراير ١٩٤٢ بأحداثها السياسية المتلاحقة والتى يمكن أن نطلق عليها فترة القلاقل السياسية . وتولى ــ اثناء تلك الفترة ــ ثلاثة رؤساء رئاسة الحكومة . بدءا بعلى ماهر باشا أكثر الشخصيات المستقلة فعالية على مسرح السياسة المصرية الحديثة . والذى شكل أول مجلس وزراء له فى ١٨ أغسطس ١٩٣٩ فى ظروف حرجة . صاحبت بداية الحرب[١٠] . وقد بدأ على ماهر عهده فى السلطة . بأن أهتم ــ فى المقام الأول ــ بمصالح بريطانيا . الحليف . طبقا لبنود معاهدة ١٩٣٦ . وأعلن تعيينه ــ بصفته رئيسًا للوزراء ــ كحاكم عسكرى عام وأخضع الصحافة ووسائل الاعلام الأخرى للرقابة طبقًا للأحكام العرفية المفروضة .

وفى منتصف عام ١٩٤٠ تغيرت سياسة على ماهر بسبب تطور أنباء المعارك فى أوروبا . وكشف عن تعاطفه مع المحور عندما إنهارت فرنسا امام التقدم النازى . وكان السبب الرئيسى الذى وضع حكومة على ماهر فى موقف حرج ازاء البريطانيين هو نفوذ بعض أعضاء وزارته الذين اشتهروا بمشاعرهم المعادية للبريطانيين . مثل النقراشى . وعبد الرحمن عزام . بالاضافة الى آخرين كانوا مؤيدين للمحور بلا تحفظ . مثل صالح حرب وزير الحربية . وعزيز على المصرى . المفتش العام للجيش المصرى فى ذلك الوقت .

وأثناء وجود على ماهر فى السلطة لم يقم الوفد ــ الذى كان بعيدًا عن السلطة منذ ١٩٣٧ ــ بدور المعارضة المباشرة لسياسة على ماهر . وفى ابريل ١٩٤٠ تقدم النحاس باشا بمذكرة الى السفير

---

(٨) حسين سرى باشا . سياسى مصرى مستقل . شكل مجلس وزراء أكثر من مرة وكان قريبًا للملك فاروق بالمصاهرة .

(9) G. warburg, "**Lampson's Ultimatum to Faruq, 4 February 1942**" **Middle eastern Studies**, vol. 11, no. 1.london, january 1975, p.28.

(١٠) عصام سليمان . مرجع سابق . ص ــ ١٠١ .

البريطانى يطلب فيها الانسحاب الكامل للقوات البريطانية من مصر عقب انتهاء الحرب . وكانت نشاطات عبيد ـ فى تلك الفترة ـ جزءا مكملا لدور الوفد . لأنه كان السكرتير العام للحزب والقوة المؤثرة خلف زعيمه . ولم يتضح موقف الوفد بالنسبة لما اذا كان يتعين على مصر اعلان حالة الحرب الى جانب الحلفاء أم لا . لأنها كانت نقطة دقيقة أوقعت الشقاق فى صفوف السياسيين المصريين والرأى العام . وتركز الاهتمام الرئيسى للوفد وعبيد على ضرورة وجود حكومة شعبية عن طريق انتخابات ديمقراطية[١١] . وكانت السلطات البريطانية فى مصر على دراية تامة بالنزعة المؤيدة للنازى . التى كان يمثلها فى الأساس على ماهر وعزيز المصرى واحمد حسين زعيم مصر الفتاة . وأتباعهم فى دوائر الحكومة والجيش . ولعل ذلك الفهم البريطانى لدور العناصر المتعاطفة مع الألمان يعد من الأسباب المرتبطة بما يعرف فى التاريخ المصرى الحديث بحادث ٤ فبراير ١٩٤٢ . عندما قدم السفير البريطانى إنذارا إلى الملك يطالبه بدعوة النحاس لتشكيل الحكومة . وقد اضطرت ـ تطورات الحرب العالمية الثانية وسير المعارك فى الصحراء الغربية ـ البريطانيين للاعتماد على الوفد كحزب للأغلبية . لأن حكومة شعبية كانت البديل الوحيد لحكم مباشر تتولاه وتشرف عليه السفارة البريطانية فى القاهرة[١٢] .

وقد أصبح الإنذار الذى قدمه سير مايلز لامبسون (لورد كيلرن فيما بعد) السفير البريطانى فى مصر . الى الملك فاروق فى ٤ فبراير ١٩٤٢ بمثابة نقطة تحول فى التاريخ السياسى لمصر . اذ ألحق درجة من الاذلال بالقصر . وأعاد الوفد الى السلطة بعد أكثر من أربعة أعوام بعيدا عن الحكم . الا أن عودة الوفد تمت فى ظروف غير مناسبة . لأنه تولى الحكم عن طريق تهديد بريطانى بالتدخل . وليس بسبب هيبته وشعبيته . لذلك شهد العامان التاليان ـ اثناء وجود النحاس باشا رئيسا للوزراء على رأس حكومة وفدية ـ مزيدا من التدهور فى شعبية الوفد[١٣] . ومع أن النحاس باشا بدأ حكومته الجديدة بالافراج عن عزيز المصرى وزملائه[١٤] . الا انه اعتقل على ماهر بسبب

---

(١١) المرجع السابق . ص ـ ١٠٨ .

(١٢) ضياء بيبرس . صفحات من مذكرات النحاس . الأسبوع العربى ـ بيروت ـ ٣ فبراير ١٩٧٥ .

(13) C. warburg, Op. cit., Middle Eastern Studies, january 1975, p. 24

(١٣) انظر ايضا : محمد انيس ـ ٤ فبراير فى تاريخ مصر السياسى ـ بيروت ـ ١٩٧٢ .

(١٤) اعتقل عزيز المصرى للمرة الأولى فى نوفمبر ١٩٤١ . واعتقل مرة أخرى فى اغسطس ١٩٤٢ . فى ظل حكم الوفد عندما اتهم بالتورط فى قضية الجاسوسية التى كان انور السادات متهما فيها أيضا . وأفرج عن عزيز المصرى فى نوفمبر ١٩٤٤ . (انظر : محمد صبيح . بطل لا ننساه . عزيز المصرى وعصره . القاهرة ـ ١٩٧١)

أنشطته ضد الحلفاء . وكان هذا ما حدث . على الرغم من انكار النحاس باشا بأنه كان قد تلقى إيحاءا بذلك من السلطات البريطانية[١٥] . وحتى تكتمل الصورة لابد من نظرة سريعة على الأحداث خارج مصر .

يعتبر أول تلك الأحداث ثورة رشيد على الكيلانى فى العراق سنة ١٩٤١ التى خلقت إحساسا بالقلق والاضطراب فى مصر . وكانت ـ (وفقا لما ذكره أنور السادات الذى كان طرفًا فى ذلك الوقت فى محاولة مؤيدة للألمان نظمها فريق من الضباط بالاشتراك مع عزيز المصرى) ـ الاشارة الأولى لتحرر الدول العربية[١٦] . ثم جاءت الهزائم والنكسات العسكرية البريطانية على الجبهة الليبية . مع تصاعد التوقعات بحدوث غزو المانى لمصر وأخيرا ظهرت مشكلة عرفت فى التاريخ الدبلوماسى بـ « أزمة فيشى » التى أدت الى مظاهرات شعبية ضد الحكومة . وما أسماه المتظاهرون بأسيادها البريطانيين بتحريض من القصر ومستشاريه على ماهر والشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر . الذى توفى عام ١٩٤٥ . وأحد المخططين الرئيسيين للسياسة الإسلامية للملك فاروق .

وكان البريطانيون هم الذين أثاروا « أزمة فيشى » بإصرارهم على عدم اقدام مصر على عقد علاقات دبلوماسية مع حكومة فيشى . وتم إرجاء البت فى المسألة عدة أشهر بسبب رفض الملك فاروق ومستشاريه الإذعان لرغبات البريطانيين . وعندما اتخذ سرى باشا ـ فى النهاية ـ قرارا بالتصرف فى يناير ١٩٤٢ . فعل ذلك دون أن يستشير الملك فاروق مسبقا . ولذلك اتهمته المعارضة بالافتئات على سلطة الملك . وقد احجم الملك عن إقالة حكومة سرى لخوفه من حدوث مواجهة مباشرة بينه وبين السلطات البريطانية . وانتهت المشكلة باقالة صليب سامى . وزير الخارجية المصرية الذى ضحت به الوزارة ككبش فداء[١٧] . وقد لعب مكرم عبيد دورا كبيرا فى مجريات الأمور فى تلك الفترة . وكان قد انضم إلى النحاس فى رحلة قام بها إلى الصعيد عندما استدعى الملك فاروق زعماء الأحزاب المصرية . ورؤساء الوزراء السابقين . للتشاور معه فى شأن الإنذار البريطانى وعلى الرغم من أن مكرم عبيد لم يكن من الفئتين المدعوتين . إلا أن الدعوة شملته إستثناءا لأن الملك تلقى نصيحة بدعوته بسبب موقعه الحزبى وتأثيره على النحاس[١٨])

---

(١٥) عبد العظيم رمضان . ٤ فبراير . وثائق جديدة . الأهرام ـ القاهرة ـ ١٤ فبراير ١٩٧٥ ـ ص ـ ٢٨ .

(16) A.El- Sadat, **Revolt on the Nile,** New York,1957, P. 38.

(17) G. Warburg, **op. cit., Middle Eastern Studies,** January, 1975, p.28.

(١٨) د . محمد حسين هيكل . مرجع سابق . ص ـ ٢٢٩ .

وقد كان عبيد هو المهندس الحقيق لقرارات الوفد . وتحديد دوره فى السياسة الوطنية . ابتداء من معاهدة ١٩٣٦ . والإنذار البريطانى فى فبراير ١٩٤٢ . ومشاركته فى اعداد الرسائل المتبادلة بين النحاس ولا مبسون المندوب السامى عندما شكل النحاس وزارته لتفادى إنهيار العرش وسقوط الملكية فى ذلك الوقت . وقد عين عبيد ــ وزيرا للمالية . ووزيرا للتموين . وهما وزارتان تمثلان أكثر المسئوليات أهمية فى وقت الحرب . وذلك يعنى أنه كان على علاقات طيبة للغاية مع النحاس عند بداية مجلس الوزراء الجديد . على الرغم من أن نجيب الهلالى وزير المعارف فى تلك الوزارة قرر أنه كان يشعر بأن هناك خلافًا بين النحاس وعبيد . منذ الأيام الأولى للحكومة الجديدة . اذ لاحظ أن العلاقات الشخصية لم تكن وثيقة مثلما كانت من قبل . وانه لم يكن هناك نفس الانسجام السابق بينهما فى اتخاذ القرارات وتوجيه الأمور[١٩] .

والواقع أن الانشقاق بين النحاس وعبيد قد بدأ قبل ذلك . بل منذ أوائل عام ١٩٣٧ . عندما دفع على ماهر ــ رئيس الديوان الملكى للملك الشاب فاروق ــ بالشيخ المراغى . شيخ الأزهر لوضع الصعاب فى طريق حكومة النحاس عن طريق إثارة الادعاء بأن الوفد كان خاضعا لسيطرة الأقباط وتحكمهم تحت زعامة عبيد . لوضع النحاس فى موقف حرج . وتسميم علاقته مع عبيد . وأطلقوا تلميحات إلى القصر الملكى فى ذلك الوقت باضفاء الصبغة الاسلامية على الملك الجديد من أجل تشويه صورة النحاس وإظهاره كزعيم ضعيف خاضع للنفوذ القبطى فى حزبه . وقد بعث القائم بالأعمال البريطانى فى القاهرة بتقرير إلى وزارة الخارجية فى لندن جاء فيه :

فيما يتعلق بزيارة الشيخ المراغى للسكرتير الشرقى . يبدو واضحا أن هناك إنقلابا يتم الأعداد له بصورة جدية لإسقاط الحكومة . وأن موقفنا يعتبر عاملا هاما فى ذلك . وقد أخذ على ماهر وجهة نظرى قبل التحدث عن اقتراحاته . ثم أضاف أنه أوصى بمعارضة الاتجاهات الجديدة[٢٠] .

وأرسل تقريرا بعد يومين قال فيه :

اذا كنا قد أخبرنا على ماهر والشيخ المراغى . أن مسألة الحكومة . مسألة مصرية صرفة . وأن حكومة صاحبة الجلالة مستعدة للتعامل مع أية حكومة دستورية لكانا قد فسرا فى الغالب هذا

---

(١٩) الأهرام ــ القاهرة ــ ١٤ ديسمبر ١٩٥٣ (من شهادة احمد نجيب الهلالى التى ادلى بها فى محاكمة فؤاد سراج الدين)

(20) F.O. 371/ 20885, August 31. 1937, Kelly to Eden.

كإشارة للسير قدما[٢٠] . وبينما كانت سياسة فاروق الإسلامية ـ بتوجيه من على ماهر ـ تزعج الأقباط . كان الشيخ المراغى فى الجانب الآخر يبدى مخاوفه من تزايد النفوذ القبطى فى الوفد ـ كحزب وحكومة ـ وقد واصلت السفارة البريطانية القول :

لا يوجد أدنى شك فى أن المعارضة للنحاس تعتمد على إثارة العداء الكامن المستتر بين المسلمين والأقباط . بصفته أحد الأوراق الرابحة . والجزء الأكبر لما وصفته بأنه محادثتى العامة مع الشيخ المراغى . دار فى الواقع حول شجب الشيخ للنفوذ القبطى فى مصر . وذكر أسماء جمعيات مختلفة تغلغلت بين المسلمين المصريين . وقال أن الحكومة الحالية لمصر تعتمد على أقلية دينية لابد من إنهاء حكمها . وأكد أن الأقباط أقلية عنصرية أيضا لأن المسلمين من سلالة عربية فى الغالب . وأضاف أن النفوذ البريطانى فى وزارة الداخلية كان يتم استخدامه دائما للحيلولة دون أن يصبح الأقباط ضباطا فى البوليس . وعبر عن آماله فى أن يتم تسوية المسألة بارضاء المسلمين . إذ انه إذا لم يتم الحد من النفوذ القبطى . فإن ذلك سوف يؤدى إلى إذكاء روح التعصب الدينى فى مصر .

وقد خطط على ماهر سياسته لإسقاط حكومة النحاس . وتفتيت الوفد . بمحاولة تكوين هالة إسلامية حول فاروق فى مواجهة موقف النحاس العلمانى الذى يحتوى الأقباط فى إطار الوحدة الوطنية . وقد استخدم الأزهر فى حملته ضد الوفد تلك السياسة باستغلال الطابع الأسلامى الذى يضفيه على الملك الجديد . وهو الوضع الذى صاغه على ماهر بالاشتراك مع الشيخ المراغى حتى أن طلبة الأزهر الشريف فى انتخابات سنة ١٩٣٨ كانوا يهتفون (صوت للنحاس . صوت ضد الاسلام) . ولعل ذلك يلقى ضوءا على دور القصر الملكى ومستشاريه فى وضع الجذور الأولى للخلاف بين النحاس وعبيد التى ظهرت على السطح عام ١٩٤٢ . ذلك لأن الانتقادات الاسلامية ضد الوفد كانت موجهة فى الأساس الى العلاقة الوثيقة بين زعيمى الحزب . وكل محاولة لدراسة الخلاف بين النحاس وعبيد لابد وأن تضع عاملين رئيسين فى الاعتبار : يتعلق الأول بالقوى التى كانت موجودة على المسرح السياسى . ونعنى بها القصر الملكى والسفارة

---

(21) F.O. 371/ 20885, September 2, 1937, kelly to Eden.

(22) F.O. 407/ 222, May 17. 1938, Lampson to Halifax

(ولمزيد من المعلومات عن الحملة المعادية للأقباط . انظر : الكشكول ـ عدد فبراير ومارس ١٩٣٨ ـ القاهرة)

البريطانية والأحزاب السياسية الأخرى ، وعلاقاتها المتبادلة فى ضوء حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ . والعامل الآخر . هو المناخ السياسى المرتبط بظروف الحرب . والحالة الاقتصادية . بالاضافة الى بعض التغيرات التى حدثت داخل الوفد كحزب . وأثرت على سياسته . وجميعها أثرت فى الرأى العام المصرى .

وفيما يتعلق بمجموعة العوامل الأولى يمكن أن يميز بسهولة تأثير أحداث الرابع من فبراير عليها . فمما يتصل بالقصر الملكى . ولفهم موقف الملك ومستشاريه . فانه يصبح من الضرورى تقييم تأثير ونفوذ شخصية هامة فى تاريخ تلك الفترة وهى شخصية : احمد حسنين باشا ـ كبير الأمناء. والمسمى « رائد الملك » منذ صباه حين كان وليًا للعهد . ويعتبر احمد حسنين . شخصية متميزة ومتعددة القدرات . ولكنه كان يبدو ـ ظاهريا ـ رقيقا وعزوفا عن العمل السياسى العلنى . ويعتبر حسنين مناورا من طراز فريد ومراوغا بالطبيعة . وقد شعر أن حادث ٤ فبراير إهانة للملك والقصر . وأعتبر انها صفعة شخصية له لأن معناها فشل أسلوبه باعتباره الناصح الأول للملك بحكم قربه منه .

ففى ٧ فبراير ١٩٤٢ قال حسنين فى محادثة له مع الصحفى المصرى المعروف محمد التابعى . انه لن ينسى ابدًا ما حدث . وان جهود ثمانية أسابيع قد ضاعت هباءً وكان يعنى بذلك أن البريطانيين كانوا اسرع منه فى احتواء الوفد . وانه قد ساورته بعض الشكوك بشأن دور النحاس وعبيد وأمين عثمان . واحتمال تواطئهم مع السفارة البريطانية . الا أن حسنين كان يضيف أنه على الرغم مما يشعر به من مرارة . فانه مقتنع بأن النحاس وعبيد وعثمان لم يكن لديهم أى شئ يفعلونه . ولا علاقة لهم بمسار الأحداث فى ذلك اليوم . وكان انتقام حسنين هو محاولة تلقين الوفد درسًا كرد للطمة ٤ فبراير . وقد اكتشف أن الثغرة التى يمكن النفاذ منها هى العلاقة بين

---

(٢٣) ولد احمد محمد حسنين باشا سنة ١٨٨٥ . وكان والده شيخا ازهريًا . وقد انضم بعد دراسته فى جامعة اكسفورد الى هيئة مكتب الجنرال ماكسويل فى مصر كسكرتير عربى خاص أثناء الحرب العالمية الأولى . وتقلد عدة وظائف فى وزارة الخارجية المصرية . ثم أصبح ياورا للملك فؤاد . وبعد وفاة فؤاد . تمتع بنفوذ قوى فى القصر الملكى لشخصيته الجذابة . وقوة تأثيره التى امتدت إلى الملكة الأم (نازلى) كما كان حسنين رياضيًا ورحالة له اسهاماته فى اكتشاف اسرار الصحراء الغربية .

انظرا : كتاب التابعى « من اسرار الساسة والسياسة » ص ـ ١٤ ـ ٢١ .

النحاس وعبيد قطبي الوفد[٢٤] . ويتردد أن رأى حسنين فى مكرم عبيد أنه سياسى هزيل ولكنه سوف يستخدمه فى ضرب الوفد[٢٥] . وتوضح مشاعر حسنين ثم مخططاته . دور القصر الرئيسى فى الانشقاق الذى حدث فى صفوف الوفد . وتشجيع عبيد لتحقيق ذلك الهدف .

أما فيما يتعلق بالسفارة البريطانية . فالكتاب الغربيون يحللون موقفها على أساس أن الحافز الرئيسى للامبسون فى أحداث ٤ فبراير ١٩٤٢ . كان هو ضمان تنازل فاروق عن عرشه . وكان اقتراح دعوة النحاس لاستعادة السلطة . حلا وسطا قدمه الملك بناء على نصيحة حسنين باشا[٦٢] . الا أن السفارة البريطانية أبدت ـ بعد ذلك ـ مرونة وشعورا وديا تجاه الوفد . وتجاه القصر ـ الى حد ما أيضا ـ فى محاولة لتخفيف مضاعفات حادث ٤ فبراير . وتفادى أى رد فعل عنيف لها . وقد استهلت السفارة والوفد عهد المصالحة والوفاق هذا بتبادل خطابات المجاملة التى أحتوت مبدأ التعاون والعلاقات الطيبة . وأنشأ عبيد معهم لجنة انجليزية ـ مصرية مشتركة لدراسة الموقف الغذائى فى زمن الحرب . مع امكانيات متوقعة بمساعدة بريطانيا أو أى بديل آخر[٢٧] .

اما فيما يتعلق بالأحزاب السياسية الأخرى « أحزاب الأقلية » فقد وجهت انتقادات قوية للوفد لأنه جاء الى السلطة بقوة الدبابات البريطانية . وفى اجتماع الملك مع الزعماء السياسيين فى ليلة الرابع من فبراير . انتقد على ماهر وزعماء الأحزاب الأخرى النحاس بسبب رفضه تشكيل حكومة قومية . وتصميمه على تأليف مجلس وزراء وفدى صرف[٢٨] . وكانت فرصة لأحزاب الأقلية لمهاجمة الوفد من هذه الزاوية الجديدة . متهمة اياه بتغيير سياسته وبالتحالف مع البريطانيين .

كان هذا ـ فى ايجاز ـ هو وضع القوى السياسية الرئيسية فى مصر سنة ١٩٤٢ كانت هناك أزمة ثقة بين القصر والوفد . وأحزاب الأقلية تطلق الاتهامات على الوفد لأنه قد تحول عن خطه

---

(٢٤) محمد التابعى . من أسرار الساسة والسياسة . كتاب الهلال ـ فبراير ١٩٧٠ ـ ص ـ ٢٥٧ .
اعتاد امين عثمان القيام بالوساطة بين الوفد والسفارة البريطانية . وقد بدأ موظفا فى وزارة المالية الى أن اصبح وزيرا للمالية قبل اغتياله فى يناير ١٩٤٦ .

(٢٥) محمد حشيش . مرجع سابق . رسالة ماجستير لم تنشر جامعة عين شمس ـ القاهرة ـ ١٩٧٠ .

(26) G. Warburg. Op. cit., middle eastern studies, January, 1975, p. 31.

(27) F.O. 371 31568, February 12, 1942, Lampson to Eden.

(٢٨) محمد التابعى ـ مرجع سابق ـ ص ـ ٢٣٨ .
ود. محمد حسين هيكل ـ مرجع سابق ـ ص ـ ٢٣١ .

الوطنى . وقد حاول البريطانيون ـ من جانبهم ـ إستعادة ثقة الملك والرأى العام نظرًا لظروف الحرب وتطورات الموقف السياسى .

وكان العامل المسيطر على الجو السياسى عمومًا هو التهديد الذى كانت الحرب تشكله فى الصحراء الغربية . حيث كانت رحى المعارك تدور فى اتجاه متدهور بالنسبة للحلفاء . وانتشر جو من القلق فى صفوف قطاعات كبيرة من الشعب المصرى . وانتشرت الشائعات التى تتحدث عن قرب وصول القوات الألمانية الى أبواب الاسكندرية . مما دفع النحاس الى دعوة مجلس وزرائه لمناقشة مسألة اعلان حالة الطوارئ . وقرر المجلس أن يبعث برسالة الى قائد القوات الالمانية الظافرة . وكلف نجيب الهلالى ـ وزير المعارف بكتابة نصها ليوقع عليها النحاس وليسلمها محافظ الاسكندرية عبد الخالق حسونة باشا . إلى روميل[٢٩] .

وجاء فى الرسالة أن مصر كدولة ليست شريكا فى الحرب . وأن جميع الاجراءات العسكرية فى مصر تقررت من جانب السلطات العسكرية البريطانية ضد ارادة الحكومة المصرية . وأضافت الرسالة أن مصر حكومة وشعبًا تتطلع الى السلام والاستقرار . ومن أجل ذلك . اتخذت الاجراءات الضرورية لحفظ الأمن والاستعداد لمواجهة أية اضطرابات داخلية . وكانت الرسالة بمثابة محاولة لإجراء اتصال مباشر مع القائد العسكرى الالمانى لأن وصول قواته الى الاسكندرية كان أمرًا متوقعا تمامًا . ولا حاجة للقول بأن الرسالة لم تصل الى روميل قط لأنه كان من المتعذر وصول المبعوث المصرى اليه . كما أن أى مبعوث لم يكن مستعدًا للتضحية بحياته لتسليمها[٣٠] . كذلك كانت الحالة الاقتصادية متدهورة بصورة كبيرة . كما كان هناك خوف بشأن تناقص احتياطى المواد الغذائية التى زادها سوءًا ميل الشعب المتخوف الى التخزين . كما كان هناك أيضًا نقص حاد فى القمح خصوصًا فى المدن[٣١] . وأعلن النحاس أن مصر لديها من المواد الغذائية ما يكفيها لشهر واحد فقط . وسارع اليهود المصريون بمغادرة البلاد قبل وصول القوات النازية الى المدن المصرية[٣٢] .

فاذا عدنا الى التطورات داخل الوفد والتى أدت إلى انشقاق عبيد عنه . وهو انشقاق استولى

---

(٢٩) عبد الخالق حسونة ـ أمين عام جامعة الدول العربية بعد ذلك .

(30) Vatikiotes, Op. cit., pp. 351-352.

(31) F.O. 371/ 31572, May 28, 1942, Lampson to Eden.

(٣٢) محمد التابعى ـ مرجع سابق ـ ص ـ ٣١٥ .

على اهتمام الرأى العام المصرى . على الرغم من المد والجزر فى المعارك بين الحلفاء والمحور فى الصحراء الغربية . فانه يجدر أن نتطرق الى العامل الشخصى فى تركيب الوفد وبنيانه . فالنحاس نفسه كان قد تغير بمرور الأعوام خصوصًا بعد أن وقع معاهدة ١٩٣٦ . فلم يعد ذلك الرجل المتشدد فى سياسته . وكان قد أصبح ــ بالسن والخبرة ــ أكثر واقعية واستعدادًا للتعاون مع البريطانيين الى حد معين . وكان هناك عامل هام آخر فى التغيرات التى حدثت فى شخصية النحاس. وكان هذا العامل هو زوجته زينب الوكيل وكانت سيدة شابه وجميلة وذكية ولها تطلعات اجتماعية . وذات شخصية مسيطرة . وقد تعودت على التدخل فى العمل السياسى للنحاس وفى علاقاته مع أصدقائه وزملائه . وكان أحد أمثلة تدخلها المعروفة فى شئون زوجها هو اقتراحها المباشر لحسنين باشا رئيس الديوان الملكى . بمنح لقب الباشوية لعدد من الشخصيات الثرية لحثهم على منح تبرعات وهبات للجمعيات الخيرية التى كانت تشرف عليها[٣٣] . ثم كان هناك ظهور شخصية فؤاد سراج الدين فى الوفد . وهو شاب غنى ينتمى الى عائلة معروفة . ويبدو أن تدخل السيدة زينب الوكيل فى شئون زوجها الى جانب بروز دور سراج الدين وصعود نجمه فى الوفد. كان لهما تأثير كبير على شخصية النحاس . وفى الوقت نفسه أدى اختفاء كبار المثقفين من الحزب . الذى أصبح يجذب اليه كبار ملاك الأرض والأثرياء . فلم يعد الحزب يستقطب أهل الفكر والعناصر المثقفة التى كان فى مقدورها دفع الوفد فى اتجاه أكثر تقدمية . أدى كل ذلك الى مزيد من اضعاف الحزب . وجعله فريسة للانشقاق الداخلى .

كانت تلك هى الصورة العامة للموقف فى الأشهر القليلة الأولى بعد حادث ٤ فبراير وهو تاريخ عودة الوفد الى السلطة بعد طول غياب . وفى الواقع أية محاولة لأجراء دراسة كاملة للعلاقة بين النحاس وعبيد . والتوصل الى جذور الخلافات سوف تواجه بمجموعة معقدة من الأسباب والعوامل التى أدت الى الشقاق . وسوف يكون من الصعب اعتبار هذا السبب أو ذاك كأنه السبب الحقيقى للشقاق . ويحسن أن نأخذ جميع تلك الأسباب فى الاعتبار اذ أنه عند مناقشة تلك الأسباب واحدا بعد الآخر . سوف نجد أن كل واحد منها لا يمكن أن ينهض بمفرده كسبب كاف لتفسير ما حدث . ويمكن إيجاز الأسباب والعوامل التى تقف وراء الخلاف بين النحاس وعبيد فى

(٣٣) المرجع السابق ــ ص ٢٨٣
د . هيكل . مرجع سابق . ص ٢٦٥ .
د . محمد حشيش . مرجع سابق . ص ــ ٦ .

عدة نقاط رئيسية إزدياد نفوذ عبيد فى الحياة السياسية للبلاد بصورة عامة وداخل الحكومة بصفة خاصة ، الى درجة أن زوجة النحاس ، عابت على زوجها تساهله وايثاره لعبيد حتى أن الناس يعتقدون أن الأخير هو كل شئ فى الحزب والحكومة ، وأن زوجها مجرد واجهة(٣٤) ، كما أن النحاس فى الجانب الآخر كان قد أستوعب درس إنشقاق ١٩٣٧ عندما كان تزايد نفوذ عبيد من أسباب ضيق أحمد ماهر والنقراشى مما دفعه الى محاولة ايجاد توازن بين القيادات التاريخية من الجيل الوفدى القديم . فحاول النحاس توزيع الأهمية داخل الحزب بين عدد من الشخصيات الوفدية الأخرى مثل صبرى أبو علم باشا . ونجيب الهلالى باشا(٣٥) . ومن المؤكد أيضًا أن حرم النحاس كانت مستاءة من نفوذ عبيد وشعبيته . وقامت بصفتها سيدة ذات تطلعات اجتماعية بعقد مقارنة بين زوجها وعبيد . فاكتشفت أن الأخير كان يتمتع بدخل اضافى من عمله فى المحاماة أثناء وجود الوفد خارج السلطة . بينما لم يكن للنحاس الا معاشه فقط(٣٦) . وقد ذكر احمد حسنين للصحفى محمد التابعى الذى كان صديقًا له أن حرم النحاس قد ذكرت له بأنها تريد منه كسر شوكة عبيد . وعندما سألها عن مبرر ذلك . أخبرت حسنين المستشار الأول للقصر . بأن عبيد يكره الملك(٣٧) . ووجهت اللوم الى أحمد قاسم جوده . الصحفى ومن أنصار عبيد . لأن الصحافة كانت تولى عبيد اهتمامًا أكبر بنشرها أحاديثه واجتماعاته وأسفاره . بينما النحاس وغيره من الوزراء الآخرين لا ينالون اهتمامًا مماثلاً(٣٨) . ومرة أخرى . كان بروز فؤاد سراج الدين فى الوفد عاملاً لا ينكر فى الشقاق بين النحاس وعبيد . ومن سخريات القدر أن عبيد هو الذى قدم سراج الدين للنحاس فى انتخابات ١٩٣٦ . واقنع النحاس بالموافقة على شخص فؤاد سراج الدين كمرشح وفدى فى دائرته الانتخابية(٣٩) . وظلت العلاقة الشخصية بين عبيد وسراج الدين

---

(٣٤) د . محمد حسين هيكل . مرجع سابق . ص ــ ٢٦٥ .

(٣٥) صلاح الشاهد . ذكرياتى فى عهدين . القاهرة ــ ١٩٧٦ ــ ص ــ ٤٠

(٣٦) د . هيكل . مرجع سابق . ص ــ ٢٦٥ .

(٣٧) محمد التابعى . مرجع سابق . ص ــ ٢٨٥ .

(٣٨) محمد التابعى . مرجع سابق . ص ٢٩٤ .

(٣٩) رفض النحاس ــ فى أول الأمر ــ اختيار سراج الدين لخوض انتخابات ١٩٣٦ كوفدى لأن والده كان شخصية رئيسية فى حزب الشعب الذى كان مواليًا للقصر . وقد تخرج سراج الدين من كلية الحقوق . وبدأ حياته بالعمل فى النيابة . وعندما انضم للوفد كان فى الثلاثينات من عمره .
(من لقاء مع الاستاذ/ فكرى عبيد ــ ١٤ فبراير ١٩٧٥)

طبيعية . بينما كانت علاقة الأخير مع النحاس تزداد توثيقا . وشعر عبيد أن النحاس سوف يجد أن هذه العلاقة الجديدة يمكن أن تحل فى النهاية محل علاقته الخاصة . وصداقته الطويلة مع النحاس .[٤٠] وهذا يفسر معارضة عبيد . فى فبراير ١٩٤٢ . للاقتراح الذى تقدم به عبد الفتاح الطويل باشا وزير الصحة العمومية والشئون الاجتماعية بتأييد من النحاس نفسه ــ بتعيين فؤاد سراج الدين وكيلا لوزارة الداخلية[٤١] . ومن الواضح أن تعيين سراج الدين بعد ذلك وزيرًا للزراعة فى ٣١ مارس ١٩٤٢ كان له تأثيره على الوفد وسياسته[٤٢] . ولكن كان هناك أيضا دور القصر فى المسألة . إذ اعتزم أحمد حسنين تشويه سمعة الوفد . من أجل الانتقام لسيده ــ الملك ــ بسبب الإهانة التى لحقت به فى ٤ فبراير ١٩٤٢ . وعندما تم ارغامه على الموافقة على رئيس وزراء يتمتع بأغلبية شعبية والذى تجرأ على إثارة الهيبة الخاصة لحزبه ضد سلطة الملك[٤٣] .

وحاول القصر الملكى ــ عن طريق حسنين ــ استغلال عبيد . وتوسيع شقة الخلاف مع النحاس للنيل من وحدة وتماسك الوفد[٤٤] . وفى ١٢ مارس ١٩٤٢ . دعا حسنين مكرم عبيد لمقابلة الملك . وكان السبب الظاهرى لذلك هو استشارته فى مسائل اقتصادية . لكنها كانت مكيدة من حسنين لايقاع الشقاق فى صفوف الوفد . وأصدر عبيد بيانًا الى الصحف وصف فيه مقابلته الملكية. ممتدحًا الملك بشدة. وشارحًا أن هدف المقابلة كان عرض سياسته التموينية وشئون القطن على الملك[٤٥] . وكان رد فعل هذه المقابلة على النحاس سيئًا . وأبدى غضبه الشديد بشأنها وتعرض عبيد بسببها لانتقاد عنيف داخل الحزب[٤٦] . ويمكن أن نلاحظ أيضًا أن بعض الوفديين فى كل من الحكومة والحزب قد عملوا على توسيع شقة الخلاف بين النحاس وعبيد أيضًا . سعيا وراء أهداف شخصية . وكان لصبرى أبو علم وزير العدل . ونجيب الهلالى وزير

---

(٤٠) محمد التابعى . مرجع سابق . ص ٩٠
د. محمد صلاح الدين وزير الخارجية فى آخر مجلس وزراء وفدى)

(٤١) محمد حشيش . مرجع سابق . ص ــ ٩
نقلا عن لقاء مع سراج الدين فى ٦ ابريل ١٩٦٨ .

(٤٢) د. هيكل . مرجع سابق . ص ــ ٢٦٦
Vatikiotis. Op. cit., p. 353. [illegible]

(43) M. Colombe, L'evolution de L'egypte 1924-1950, Paris, p. 107. and vatikiotis, op. cit., p. 353.

(٤٤) صلاح الشاهد ، مرجع سابق . ص ــ ٤٠ .

(٤٥) الأهرام . ١٣ مارس ١٩٤٢ .

(٤٦) محمد التابعى . مرجع سابق . ص ــ ٢٦٢ ــ ٢٦٣ .

المعارف ، دور فى ذلك ، اذ كانا يشعران بشئ من الضيق تجاه نفوذ عبيد والذى ينتمى الى نفس جيلها فى الوفد[٤٧] ، كما كان محمود ابو الفتح رئيس تحرير المصرى ، صحيفة الوفد الرئيسية ، متأثرا بانطباع مؤداه أن عبيد لم يكن يميل اليه تمامًا . وانه قد عارض اختياره كوزير فى حكومة الوفد . لذلك لم يكن أبو الفتح ـ كصحفى كبير ـ ميالاً الى تسوية الخلاف خصوصًا على صفحات جريدته . لكنه كان على العكس لا يمانع فى توسيع شقته[٤٨] . كما أتهمت بعض المصادر أمين عثمان ايضًا بأنه كان يعزز الخلاف . وانه يتحمل بعض المسئولية فى فشل محاولة للتصالح والوفاق[٤٩] .

ثم كان هناك أخيرًا . عبيد نفسه . بدوافعه الشخصية . وتطلعاته وتقييمه لدوره السياسى فى الوفد . وإحساسه بشعبيته الكبيرة التى كان يحرص عليها منذ أيام سعد زغلول . لذلك فقد تكون لديه شعور ـ فى تلك الظروف ـ أن من حقه أن يتطلع الى منصب رئيس الوزراء باعتباره أكثر قدرة وكفاية من كثيرين تولوا ذلك المنصب . كما كان لديه اعتقاده الصادق فى أن قبطيته لا تشكل عائقًا بالنسبة لتحقيق مطمحه فى أن يصبح الرجل الأول فى الحكومة المصرية إذ كانت هناك سابقتان تاريخيتان لذلك فى تاريخ مصر الحديث[٥٠] . وقد ذكر مكرم عبيد للدكتور محمد حسين هيكل أكثر من مرة . انه لا يعتقد أن دينه يحول بينه وبين منصب رئيس الوزراء . وكان يرى أن له أسبقية على احمد ماهر والنقراشى . لانه بينما كان يشغل منصب السكرتير العام للوفد كان الاثنان عضوين فى الحزب . وقد ذكر لورد كيلرن فى مذكراته :

« سألت امين عثمان عن الشخصيات التى تقف فى الصف الثانى خلف النحاس فى الوفد ، فقال أنه كان يوجد ثلاثة رجال يتنازعون ذلك ، مكرم عبيد ، والنقراشى ، وشقيق على ماهر . لكن ـ مما لا شك فيه ـ أن مكرم عبيد من بين أولئك الثلاثة هو الأكثر ذكاء الى جانب انه خطيب متميز ومؤثر »[٥١] .

---

(٤٧) المرجع السابق ، ص ـ ٢٦٩ .

(٤٨) المرجع السابق ، ص ـ ٢٧٤ .

(49) F.O. 371/ 31572, May 31, 1942, Lampson to Eden.

(٥٠) بطرس غالى سنة ١٩٠٨ ويوسف وهبه سنة ١٩١٩ .

(51) Killearn Private Papers, Friday, May 25, 1934, p. 127. st. Antony's College, Oxford, Dngland.

ومن المحتمل أن عبيد كان قد تلقى وعدا من الملك . عن طريق احمد حسنين . انه اذا نجح فى احداث إنقسام واضح داخل الوفد . وفى استقطاب مجموعة مناسبة من الأعضاء حوله . فانه سوف يطلب منه تشكيل الوزارة . وكان ذلك أيضًا هو نوع العرض الذى قدمه القصر لأحمد ماهر من قبل . وقبل ذلك وفى سنة ١٩٣٧ . نظر القصر الملكى باهتمام زائد الى الاجتماع الحاسم الذى عقدته اللجنة العليا للوفد لمناقشة إنشقاق ماهر والنقراشى . بأمل أن يحدث ذلك انقسامًا كبيرًا فى صفوف الحزب . وأن يتبعها عدد لابأس به من أعضاء الوفد القادرين على تأييد احمد ماهر . اذا ما قال الملك النحاس . وطلب من ماهر تشكيل مجلس وزراء[٥٢] .

واذا كانت تلك هى البواعث الأساسية التى أدت الى الانشقاق داخل الوفد فانه توجد عوامل مباشرة كانت وراء سلسلة الأحداث المؤدية الى الإنهيار الكامل فى العلاقات بين رفيقى الكفاح اللذان عبرا امواج السياسة فى قارب واحد طوال ربع قرن تقريبًا . وأهم عامل فى ذلك هو ما عرف بالانتقاد الشديد الذى جاهر به عبيد ضد المحاباة والفساد داخل الحزب وفى الحكومة الوفدية . وكان من بين الأحداث التى أثارت العامل المباشر وحددت التوقيت للإنشقاق الكامل . أن حرم النحاس قدمت لعبيد ـ بصفته وزيرًا المالية والتموين ـ عدة مطالب . وكانت تلك المطالب تستلزم إجراء بعض التسهيلات غير القانونية لدعم وتعزيز المشروعات التجارية لعدد من أقاربها . فقد كانت تريد استغلال منصب النحاس كرئيس للوزراء لتحسين الأوضاع المالية لها ولأسرتها . كما كان النشاط التجارى لشقيق حرم النحاس فى مجال التصدير والاستيراد يخضع مباشرة لنظم وقوانين وزارتى المالية والتموين التى كان عبيد يتولى مهامها[٥٣] . وقيل انهما كانا يعملان كوسطاء تجاريين مستغلين علاقتهما بالنحاس للحصول على تسهيلات خاصة عن طريق بعض الوزارات . ثم تقاضى عمولات عن ذلك[٥٤] .

كما كانت هناك المسألة الحيوية الخاصة « بالاستثناءات والترقيات » . وتفاصيل ذلك أن

---

(٥٢) محمد حشيش ـ مرجع سابق ـ ص ـ ١١ .
ود . هيكل ـ مرجع سابق ـ ص ـ ٤٩ .
(٥٣) د . هيكل ـ مرجع سابق ـ ص ـ ٢٦٥ .
محمد التابعى ـ مرجع سابق ـ ص ـ ٢٦٧ .
محمد حشيش ـ مرجع سابق ـ ص ـ ١٣ .
(٥٤) جلال الدين الحمامصى . حوار وراء الأسوار . القاهرة ـ ١٩٧٦ ـ ص ـ ٥٢ .

حكومة النحاس ارادت إجراء بعض الترقيات الإستثنائية لموظفى الحكومة من انصار الوفد الذين عانوا فى ظل الحكومات غير الوفدية . وعارض عبيد الأقتراح وحوله الى اللجنة المالية الوزارية فى أول مايو ١٩٤٢ . ونشرت جريدة (الأهرام) خبرًا عن تلقى وزارة المالية لمذكرات عديدة من أعضاء الوزارة الوفدية يطلبون الموافقة على منح ترقيات إستثنائية لعدد من موظفى وزاراتهم . وكيف تحفظت الوزارة على هذا المطلب بدعوى ان الميزانية لا تجيز مثل تلك الاستثناءات(٥٥) .

واستطردت جريدة (الأهرام) قائلة :

« انه قد علم ـ من مصدر موثوق به ـ أن مذكرة اللجنة المالية المحولة من وزارة المالية الى مجلس الوزراء فى هذا الشأن قد رفضت من كل الوزارء باستثناء وزير المالية وحده(٥٦) ! . كما نشرت صحيفة (المصرى) مذكرة اللجنة المالية فى ٢٣ مايو . وهى المذكرة التى رفضت ايضًا جميع الحالات الأستثنائية(٥٧) .

وكان النحاس يتوقع أن يستخدم عبيد مسألة الإستثناءات فى خلافه معه ومع مجلس الوزراء وذلك يفسر لماذا كانت تلك المسألة بمثابة السهم القاتل الذى أدى الى القطعية الكاملة بين عبيد والنحاس(٥٨) .

وتطورت الأمور بسرعة . ولم يتطوع أى مسئول فى الحزب أو الحكومة للسعى نحو رأب الصدع . وبدأ عبيد فى التعامل مباشرة مع القصر . متجاهلا النحاس . وقدم فى تقريره السنوى عن الميزانية الوزارية ـ فى مجلس النواب ـ وعودا نيابة عن الحكومة دون أن يستشير الوزراء المختصين مسبقًا . وكان من أمثلة تلك الوعود بعض تعهدات من الحكومة . مثل قرار وقف قرار البيع الجبرى للممتلكات التى أشهر افلاسها . دون اجراء مشاورات مسبقة مع صبرى أبو علم باشا وزير العدل . مما تسبب فى حدوث نوع من التناقض فى سياسة الحكومة . وفى مايو ١٩٤٢ تم

---

(٥٥) الأهرام . ٢١ مايو ١٩٤٢

(٥٦) الأهرام . ٢٢ مايو ١٩٤٢

(٥٧) كانت الأسماء الرئيسية الثلاثة التى اقترح الوفد ترقيتها بقرار استثنائى : ابراهيم فرج مسيحه ـ وتوفيق القاضى ـ ومحمد عثمان المصرى

F.O. 371, 31572, May 27, 1942, From Lampson to Eden.

وقد نشر (المصرى) الأسماء نفسها فى ٢٣ مايو ١٩٤٢ .

(٥٨) محمد التابعى . مرجع سابق . ص ـ ٢٨٩ .

تعيين فؤاد سراج الدين ــ وزيرًا للزراعة ، رغم اعتراض عبيد على ذلك . وفى اليوم التالى ، استقبل النحاس ، احمد حسنين وعبيد ، كل على حده . وفى اليوم الثامن ، زار النحاس مديرية المنوفية مع صبرى أبو علم وفؤاد سراج الدين بدون عبيد ، الذى أرسل اليه النحاس برقية تهنئة بمناسبة عيد القيامة . وفى محاولة لكبح جماح عبيد ، أعفاه النحاس من وزارة التموين ، مبررًا ذلك أنه نتيجة لسياسة جديدة تم الاتفاق عليها بينه وبين الملك[٥٩] .

وتم تعيين أحمد حمزة وزيرا للتموين فى ١٥ مايو ١٩٤٢ . وقد ذكر عبيد ــ فيما بعد ــ للمستشار التجارى للسفارة البريطانية بأن مهام وزارتى المالية والتموين كانتا كثيرة مما لا يمكن لوزير واحد أن يتولاها ، ومما لا شك فيه أن هذه الملاحظة أملتها ــ الى حد ما ــ رغبته فى تغطية ما شعر به من إهانة[٦٠] . وفى النصف الثانى من شهر مايو ١٩٤٢ ازدادت المواقف بين النحاس وعبيد تدهورا ، وسعى كل منهما لعقد اجتماعات مع مؤيديه ليشرح لهم موقفه ويبرر تصرفاته . وفى تلك المرحلة بدأت بعض المحاولات لإنهاء الخلاف بينهما ، فاقترح فؤاد سراج الدين على عبيد أن يذهب معه الى قريته للراحة الى أن تهدأ الأمور . ولكن عبيد رفض ، مضيفًا انه لا يرغب فى الإبتعاد بينما المعركة السياسية محتدمة[٦١] . وكانت مواقف عبيد والنحاس متعارضة بحدة ، لدرجة أن احد زملائهما فى الوفد ، وهو عبد القوى احمد باشا قال : « اعتقد اننى اذا حملت القرآن فى يد ، والنجيل فى اليد الأخرى ، وتوجهت الى النحاس ومكرم كى يحلا خلافاتهما لرفض كلاهما ذلك[٦٢] » .

...واستقبل الملك عبيد فى ٢٦ مايو ١٩٤٢ ، والتقى بالنحاس فى وقت لاحق فى اليوم نفسه ، ولم يكن أيا منهما يدرى شيئًا عن مقابلة الآخر ، وقام النحاس بعرض تفاصيل النزاع على الملك ، وكان الملك من جانبه يؤدى دورًا مزدوجًا ، دبره حسنين ليفتت الوفد ، فما أن دعا الملك عبيد كى يسمع وجهة نظره ، حتى دعا النحاس فى اليوم نفسه ، كى يسمع الجانب الآخر من قصة

---

(٥٩) **مضبطة مجلس النواب** ــ جلسة رقم ٢ ، القاهرة ، ٣٠ مارس ١٩٤٢ ص ــ ١٤٩ .

«اعلن النحاس ذلك القرار فى خطاب العرش الذى القاه فى البرلمان كما لو كان ذلك بناء على تعليمات الملك» .

(60) F.O. 371/ 31572, May 21, 1942, From Lampson to Eden.

(٦١) محمد حشيش ــ مرجع سابق ــ ١٤ .

(٦٢) صبحى وحيده ــ مرجع سابق ــ ص ــ ١٩٣ .

الخلاف . وقد جاء على لسان محمود سليمان غنام ـ وهو وزير وفدى ـ انه عندما قام النحاس بشرح جذور الخلاف بينه وبين عبيد للملك . قال الملك للنحاس :

« لقد تحملت كثيرًا من عبيد . وكنت صبورًا عليه »[٦٣] .

وكان نفاق الملك . وازدواجيته . واضحين . عندما جاء على لسان عبيد وهو يصف استقبال الملك له قوله بأن جلالته كان وديا للغاية[٦٤] .

وقد طالب النحاس بطرد فورى لعبيد من الوزارة . لكن الملك رفض . قائلاً انه يرى أن يقدم النحاس استقالة حكومته . ثم يعيد تشكيل مجلس وزرائه بدون عبيد اذا أراد . وبالفعل استقال النحاس . وطلب منه الملك إعادة تشكيل حكومته . وهو ما فعله مع تعيين كامل صدقى باشا ـ وهو قبطى ـ فى منصب وزير المالية . بدلاً من مكرم عبيد[٦٥] . وصدر مرسوم ملكى فى اليوم نفسه . يعلن تعيين النحاس ـ بصفته رئيس الوزراء . حاكما عسكريًا لمصر . بسبب ظروف الحرب[٦٦] . وكان عبيد مازال رسميًا السكرتير العام للوفد . وعضوا فى البرلمان . بالاضافة الى مواصلته لدوره كنقيب للمحامين . وفى منتصف شهر يونيو ١٩٤٢ . حضر عبيد اجتماعًا للجنة التنفيذية للوفد حيث وافق الطرفان على تجميد النزاع لفترة من الوقت . والحيلولة دون حدوث تصاعد له الا أن ذلك الإتفاق لم يدم أكثر من عدة أيام .

واعلن النحاس فى اجتماع اللجنة البرلمانية للوفد أن عبيد لم يعد سكرتيرا عاما للوفد ، وأن الوفد يعارض ترشيحه لنقابة المحامين[٦٧] . ورد عليه عبيد فى خطاب . ذكرّ فيه النحاس بأنه قد تم انتخابه سكرتيرا عاما للوفد . بنفس الاسلوب . وفى نفس الوقت الذى تم فيه انتخاب النحاس رئيسا للوفد ، أما فيما يتعلق بانتخابات نقابة المحامين ، فقد ذكر عبيد للنحاس بأنه لا حق للحكومة أن تتدخل فيها .

---

(٦٣) محمد حشيش . مرجع سابق . ص ـ ١٤ .

(64) F.O. 371, 31572, May 27, 1942, From Lampson to Eden.

(٦٥) محمد التابعى . مرجع سابق . ص ـ ٢٩١ .

ود. هيكل . مرجع سابق . ص ـ ٢٦٤ .

(٦٦) الأهرام . ٢٧ مايو ١٩٤٢ .

(٦٧) المصرى . ١٩ يونيو ١٩٤٢ .

وعندما تجاهل النحاس خطاب عبيد ، بعث اليه الأخير بخطاب آخر فى يوم ٢٧ يونيو ١٩٤٢ ، وقع عليه هو وعشرون آخرون من أعضاء البرلمان الوفديين ، يطلب فيه من النحاس عقد اجتماع للجنة العليا للوفد فى ٢٩ يونيو ، لبحث ومناقشة الوضع العسكرى ، والاجراءات الاستثنائية التى اتخذتها الحكومة ، والتصريحات التى منحت لعدد من محاسيبها لتصدير بعض المواد الخام ، والمراقبة ـ غير القانونية ـ التى فرضتها الحكومة على منزل عبيد ، وتوضيح مركز عبيد فى الحزب بعد أن أعلن النحاس أن عبيدا لم يعد سكرتيرا عاما للوفد . وبعث النحاس برسالة شفهية عن طريق محمد صلاح الدين الى عبيد ، يخبره فيها بأنه يرغب فى الالتقاء بأولئك الذين وقعوا على هذه الرسالة ليشرحوا سبب رغبتهم فى عقد ذلك الاجتماع ، كما أنه ليس لديه أى شىء آخر يقوله عن الموقف العام أكثر مما اعلنه فى المجلس ، أما فيما يتعلق بمسألة الاستثناءات والترقيات . فقد أضاف النحاس أن عبيدا يمكنه اثارة ذلك الموضوع فى جلسة البرلمان يوم ٢٩ يونيو . ورفض ـ فى الوقت نفسه ـ كلا من الاتهامين المتعلقين بالتصريح الخاص بالتصدير . «والرقابة المزعومه» على منزل عبيد . ثم عاد النحاس وأكد أن عبيد لم يعد سكرتيرا عاما للوفد . ويبدو أن عبيد كان يتوقع مثل ذلك الرد ، لكنه كان يتعين عليه هو ومؤيدوه ارسال خطابهم ليرى مدى تصميم النحاس فى ذلك الشأن .

وقد تابعت السفارة البريطانية فى القاهرة النزاع ، ببعض الحماس لعبيد ، وبعثت السفارة بتقرير الى وزارة الخارجية البريطانية تقول فيه :

«ترجع جذور المسألة الى زواج النحاس باشا منذ عدة سنوات مضت . اذ كان عبيد يستحوذ على النحاس باشا تماما قبل ذلك ، ولم تكن حرم النحاس ، وهى السيده المستبدة التى تميل الى السيطرة على زوجها لتلعب دورا من المرتبة الثانية ، وقد ازداد التنافر منذ ذلك الوقت»[٦٨] ، وكان لا مبسون يثق فى كفاءة وقدرة عبيد فى مناصبه الوزارية ، وكتب لوزارة الخارجية البريطانية يقول :

«طبقا لما جاء على لسان امين عثمان ، كان الملك يلح باصرار على النحاس بأنه يتعين أن تضم الحكومة عضوا أو أكثر من الرجال ذوى المعرفة الحقيقية بالجهاز الحكومى التنفيذى ، والقدرة

---

(68) F.O. 371/ 31572, May 23, 1942, From Lampson to Eden.

الفنية والادارية ، وأشار جلالته الى أن الأمور لا يمكن أن تسير اذا ماكان هناك رجل بلا كفاءة كبيرة على رأس وزارة التموين ، أو رجل غير مؤهل فى وزارة المالية ، وقد اخبرت امين عثمان أننى أرى أن الملك فاروق على حق فى ذلك»[٦٩] ، كما أجرت السفارة ـ كعادتها الدورية ـ تقييما لشخصية النحاس ، فى الوقت الذى لم يعد فيه عبيد بجانبه سواء فى الحزب والحكومة ، فذكرت :

«أصبح الوفد الآن بدون منظم حزبى مقتدر ، ويوجد على رأسه زعيم مضطرب غير متوازن تتحكم فيه زوجة عنيدة غير مسئولة ، تعوزه القدرة على الادارة والتوجيه أو على التنظيم الحزبى ، كما انه تستبد به وتستحوذ عليه مسألة سيطرته وتحكمه فى جماهير الشعب حتى انه كثيرا ما يخفق فى ادراك الشراك والمكائد التى يديرها له خصومه الأذكياء الماكرين ، وأصبحت وزارة المالية ووزارة التموين ـ وهما اثنان من أهم الوزارت بالنسبة للشعب خصوصا فى وقت الحرب والنقص فى المواد التموينية ـ فى يد رجلين قد يثبت اذا واجها أزمات خطيرة انهما غير قادرين على معالجتها[٧٠] .

«وقد اعتقد النحاس وسراج الدين وآخرون أن الوقت المناسب قد حان لطرد عبيد من الوفد ، حيث انهم فى السلطة وفى امكانهم ممارسة الضغط عليه ، ومن الناحية الأخرى ، فانهم اذا ما اقدموا على التخلص منه ، وهو خارج السلطة ، فانها ستكون فرصة ذهبية بالنسبة لعبيد لمعارضتهم ، بتأييد من الحكومة المعادية للوفد[٧١] . ولهذا أعلن النحاس ـ رسميا ـ فى مجلس النواب فى ٢٩ يونيو ١٩٤٢ ، أن عبيد لم يعد سكرتيرا عاما للوفد ، وأخيرا عقد الوفد فى ٦ يوليو ١٩٤٢ ، اجتماعا طرد فيه عبيد ، وراغب حنا من عضوية الحزب[٧٢] .

وقد اتخذ قرار طرد عبيد وانصاره فى غيابهم اذ لم توجه الدعوه لهم للحضور ، وتضمن القرار أيضا أن الوفد سيقرر ـ فيما بعد ـ كيفيه التعامل مع أولئك الذين شاركوا فى التوقيع على رسالة عبيد إلى النحاس ، كما وقع سبعة عشر عضوا من مجلس الشيوخ والنواب خطاب استقالة جماعية

---

(69) F.O. 371, 31572, May 26, 1942, From Lampson to Eden.

(70) F.O. 371, 31572, June 3, 1942, From Lampson to Eden.

(٧١) محمد التابعى ـ مرجع سابق ـ ص ـ ٣٢٢ .

(72) F.O. 371, 31572, July 11, 1942, From Lampson to Eden.

(كان راغب حنا بك محاميا قبطيا ، ونائبا يمثل دائرة انتخابية فى مديرية المنيا ، وكان يؤيد عبيد فى خلافه مع النحاس ، وتبعه فى انفصاله عن الوفد ، وأصبح بعد ذلك وزيرا مع عبيد فى حكومتى احمد ماهر والنقراشى ، ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥) .

الى النحاس . احتجاجا على تصرفه العنيف وغير العادل الذى اتخذه ضد مكرم عبيد وراغب حنا . وقد كان من بين الأعضاء السبعة عشر . ثمانيه أقباط . كما كان عدد من الباقين نوابا عن دوائر مديريات الصعيد والتى ينتمى اليها عبيد . وقد أعلنوا فى خطاب استقالتهم بتاريخ ١٢ يوليو ١٩٤٢ انهم مقتنعون بأن النحاس قد ابتعد عن المبادئ العظيمة للوفد . كحزب وحكومة على السواء . لدرجة أن حقوق وطنهم وكرامه شعبهم أصبحت معرضة لخطر حقيقى (٧٣) . وقد تجاهل النحاس استقالاتهم وطردهم من الوفد بقرار من الهيئه العليا للوفد . ووجد عبيد نفسه فى ذلك الوقت معزولا تماما لأن النحاس وأغلبية الوفد كانوا ضده . وفى الوقت نفسه حالت ظروف

---

(٧٣) وقع على خطاب الاستقاله كل من :

١ ـ السيد سليم	(البوها)
٢ ـ محمد فريد زعلوك	(صندلا)
٣ ـ اسماعيل قواز	(عضو مجلس الشيوخ)
٤ ـ زكى ميشيل بشاره	(عضو مجلس الشيوخ)
٥ ـ عبد الله قواز	(أولاد حمزه)
٦ ـ ميشيل رزق	(عضو مجلس الشيوخ)
٧ ـ جلال الدين الحمامصى	(الصحراء الغربيه)
٨ ـ دكتور فهمى سليمان	(محله روح)
٩ ـ ابو المجد الناظر	(ارمنت)
١٠ ـ نجيب ميشيل بشاره	(قوص)
١١ ـ حسين الهرمل	(محله مرحوم)
١٢ ـ لبيب جريس	(سابنو)
١٣ ـ محمد عبد القادر	(ابو حمد)
١٤ ـ الفريد قيس	(المنصوره)
١٥ ـ ابو الغيث الأعور	(ابو جرج)
١٦ ـ مهنى القرص	(دبروط)
١٧ ـ جورج مكرم عبيد	(أولاد عمر)

المصدر : مكرم عبيد : الكتاب الأسود فى العهد الأسود
القاهرة ـ ١٩٤٢

الحرب دون مواصلة عرضه لآرائه وشرح وجهة نظره من خلال الصحافة لأنها كانت خاضعة للرقابة فى ظل حالة الطوارئ التى كان النحاس يوجهها بنفسه بصفته الحاكم العسكرى ورئيس وزراء البلاد[٧٤] .

وكان عبيد يواجه نفس الموقف الذى واجهه النقراشى واحمد ماهر سنة ١٩٣٧ وكانت الغالبيه فى الجانب الآخر المعادى له ، حتى أولئك الذين يؤمنون بصدقه وبحماسه وباخلاصه وأمانته ، لم يكن فى مقدورهم دعمه ومساندته علانيه ، بسبب تهديدات النحاس الانتقاميه ـ وهو الحاكم القوى فى ذلك الوقت ـ ضد مؤيدى عبيد[٧٥] . ووصف عبيد وزملاؤه الذين تم طردهم من الوفد أنفسهم « بمجموعه الوفديين المستقلين» . ورد النحاس على ذلك بسرعه بأن أصدر بيانا أعلن فيه أن هذا اللقب زائف ولا ينطبق عليهم[٧٦] ، ولعل الخلاف بين قضيه عبيد فى سنة ١٩٤٢ ، وقضيه ماهر والنقراشى سنة ١٩٣٧ هو أن طرد عبيد من الوفد كان له أصداء أكبر ، لأن هجومه على النحاس ، كان اقوى بكثير ، كما أن تشهيره بالمحسوبيه والاستثناءات قد جعله يقف على أرض صلبه ، لأن الجماهير تتحمس كثيرا لمن يكشف الانحرافات ، ومع ذلك ، فقد كان عليه ـ مثل ماهر والنقراشى ـ أن يقيم تنظيما سياسيا يمكنه من خلاله ممارسه نشاطه ، فأعلن ـ بعد ذلك ـ تكوين حزبه الخاص تحت اسم « الكتله الوفديه المستقله » والتى تضم مؤيديه الذين كان من بينهم بعض الكتاب والصحفيين مثل احمد قاسم جوده . وجلال الدين الحمامصى ، وقد واصل عبيد ممارسة نشاطه العام على الرغم من ذلك الموقف الصعب الذى كان يواجهه ولم يقصر مجهوده على توجيه النقد لحكومه النحاس وسياسة الوفد بل استمر يتصرف كشخصيه سياسيه قياديه معتمدا فقط على مكانته وسياسة حزبه الجديد . واشترك مع د . هيكل (الحر الدستورى) . واحمد ماهر (السعدى) فى كتابة عريضه للملك فاروق . وسلموا ـ فى الوقت نفسه ـ نسخه منها الى السكرتير الشرقى للسفارة البريطانيه فى القاهرة[٧٧] . وفيها أعلن الأقطاب الحزبيون الثلاثة

(٧٤) د . محمد حسين هيكل مرجع سابق ـ ص ٢٦٦ .

(٧٥) مثل . عبد الحميد عبد الحق . الذى كان يشعر بالذنب لبقائه وزيرا للشئون الاجتماعيه فى حكومه النحاس . على الرغم من صداقته لعبيد وتعاطفه معه .
انظر . التابعى . مرجع سابق . ص ـ ٣٥٣ ـ ٣٥٥ .

(76) F.O. 371 31573, July 26, 1942, Lampson to eden.

(77) F.O. 371/ 31575, November 14, 1942, Lampson to eden.

« أن الوزارة القائمة قد اختطت سياسة للمحسوبية والمحاباه لا تستند الى قواعد فى التعيين أو الترقية أو الفصل بالنسبة للموظفين العاملين . مما أدى إلى إصابة الأداة الحكومية بالفوضى ... الخ » .

وقد ذكر د . هيكل فى كتابه أن عبيد كان أكثر المعارضين عداء للنحاس ونقدا لسياسته[٧٨] ، والملاحظ أن عبيد كان قد بدأ يطعن فى اخلاص النحاس وامانته ونزاهته الشخصيه ، وليس فى مقدرته السياسيه ـ كما كان متبعا من هجوم خصوم النحاس ضده من قبل ـ اذ أصبح السبيل الوحيد الممكن بالنسبه لعبيد كى ينال من الحكومه ويهاجم النحاس امام الرأى العام هو أن يكشف النقاب عن أمثله كثيره من حالات المحسوبيه والفساد فى حكومه الوفد ، معتمدا فى ذلك على مؤيديه فى المعارضه ، وعلى كل المعارضين للوفد وحكومته ، وحيث منعت الحرب والقوانين العسكرية عبيد من النشر فى الصحف ، لم يكن هناك بديل آخر امامه سوى أن يسجل كل تلك الاتهامات فى كتاب يتم نشره فى الوقت المناسب ، وبهذه الطريقه ولدت فكرة نشر « الكتاب الأسود » كعريضه للملك ، تتضمن تفاصيل المخالفات وحالات المحسوبيه والفساد التى ارتكبتها حكومة الوفد . وقد بذل عبيد ـ وفريق صغير من اتباعه وأصدقائه ـ مجهودا كبيرا بصورة سرية ليتم نشر الكتاب . اذ أن حكومة الوفد كانت تضيق الخناق على عبيد ومعاونيه وترقب تصرفاتهم . فضلا عن إخضاع المطابع ودور النشر لرقابة صارمة . وقد قام جلال الدين الحمامصى ـ الصحفى المؤيد لعبيد . وكان وثيق الصلة به . كما أنه من بين اولئك الذين طردوا من الوفد . بعد توقيع خطاب الإحتجاج والاستقاله الى النحاس ـ قام بكتابه معظم نصوص (الكتاب الاسود) وجمع مادته والإشراف على طبعه وتوزيعه . وبناء على ما ذكره الحمامصى نفسه . فقد استغرقت عمليه الإعداد لنشر الكتاب ثمانيه أشهر . عندما رأت الكتله الوفديه أن ذلك هو السبيل الممكن للعمل ضد النحاس ونظام حكمه ، كما يتذكر الحمامصى انه سأل احمد حسنين باشا عما اذا كانت هناك وسيله لوقف الفساد المستشرى فى حكومه الوفد ، وأن حسنين اجابه انه لا يمكنه اتخاذ أى اجراء ما لم يتوفر لديه دليل مدعم بالوثائق وعندما سأله الحمامصى عما اذا كان بامكان الكتله الوفديه توفير ذلك ، أجابه حسنين أن الوقت ليس مناسبا ، لأن حكومه النحاس لا تزال فى مرحله شهر العسل مع السفاره البريطانيه ، ولكن الوقت المناسب لن يلبث أن يحين قريبا[٧٩] ، وهذا دليل آخر على

---

(٧٨) د . هيكل مرجع سابق ـ ص ـ ٢٧٦ .

(٧٩) حمصى . مرجع سابق . ص ـ ٣١ .

الصلة بين عبيد والقصر الملكى . من خلال الدور الذى لعبه حسنين لتشجيع نشر «الكتاب الأسود» ، والأكثر من ذلك ، هو أن الحمامصى ذكر فى الكتاب نفسه أن حسنين قد اقترح عليه فى مارس ١٩٤٣ ، أن يحتفظ بالكتاب الأسود والوثائق المدعمه له بالقصر الملكى كى يتفادى تحقيقات البوليس وحملاته التفتيشية التى كانت تزعج انصار عبيد وتحد من تحركاتهم فى ذلك الوقت[٨٠] ، ويواصل الحمامصى شرح الصعوبات التى واجهت عملية طبع الكتاب فى مكان سرى ، اذ انهم كانوا يريدون مفاجأه الحكومه باستلام الملك نسخه الكتاب فى نفس الوقت الذى يتم فيه توزيعه على الجمهور عن طريق أعضاء الحزب «الكتلة الوفدية» فى جميع المديريات .

وقد كتب «الكتاب الأسود» فى صوره عريضة الى الملك . ويحتوى على عده فصول عن أنواع مختلفة من الفساد والمحسوبيه . وقد صدرت النسخه الكاملة من «الكتاب الأسود» فى ٢٩ مارس ١٩٤٣ . فى حوالى ٥٠٠ صفحه . وكان عنوانه الرسمى «الكتاب الأسود فى العهد الأسود» ، فى صورة رسالة الى الملك . شارحا ظروف خلافات عبيد الوزاريه مع النحاس . وكيف انه قدم استقالته ثلاث مرات . لكن النحاس كان يرفضها فى كل مره . واعدا باتخاذ اجراءات فعليه ضد المحسوبيه . ولكن نتعرف على أسلوب «الكتاب الأسود» ، فاننا نختار بعض الفقرات منه لأنه يحتوى على قصص وأمثلة كثيرة للفساد فى الحياة السياسية والاقتصادية فى ذلك الوقت .

وقد جاء فى الفصل الأول (نظرة عامة) فى أسلوب يخاطب الملك :

«يدفعنا الواجب المرير ـ وهل من واجب أمر وأقسى من ذلك الذى يضطر الانسان الى أن يقتطع لصالح المجموع قطعة من نفسه . ولصالح اليوم والغد بضعة من أمه ـ يدفعنا ذلك الواجب العام أن نعرض على جلالتكم مساوئ الحكم الحاضر والقائمين به من رجاله . وما كنا علم الله لنجد من أنفسنا دافعا ضد قوم كانوا منا وكنا منهم لولا أن أداة الحكم فى البلاد قد فسدت على أيديهم الى مدى بعيد يكاد يبعث على اليأس من انتاجها ومن علاجها[٨١] .

---

(٨٠) المرجع السابق . ص ـ ٣٦

المعلومات نفسها تضمنها كتاب آخر للحمامصى (معركة نزاهه الحكم من فبراير ١٩٤٢ الى يوليو ١٩٥٢) ـ القاهرة ـ ١٩٥٧ ـ ص ـ ٣٠ .

(٨١) مكرم عبيد . **الكتاب الأسود** . القاهرة . ١٩٤٣ . ص ـ ١

ويضيف فى الفصل نفسه :

«ما من واحد من الوزراء يجرؤ أن يتكلم عن شأن من شؤون وزارته ـ مهما تكن تفاهته ـ الا ويقدم له بمقدمة فحواها انه لم يفكر أى تفكير ولم يدبر أى تدبير الا بناء على تعليمات الرئيس الجليل أو إرشاده ـ فيذهب البعض فى الملق الصغير الى حد القول بأنها أوامر صدرت من رئيس الوزارة الى معالى الوزير[٨٢] ! .

ثم يشرح عبيد ظروف طرده من الوفد مؤكدا أن الأسباب التى دفعت النحاس باشا الى إقالته من الوزارة هى نفسها التى دفعته الى طرده من الوفد[٨٢] .

وفى الجزء الثانى من (الكتاب الأسود) الذى يحمل عنوان «حقائق» كتب عبيد فصلين ـ الأول ـ عن مسألة المسئولية والسلطة ـ والثانى عن مسألة الحقوق الدستورية والسياسية ـ وفى الفصل الأول ـ تحدث عبيد عن مسألة نمو المحسوبية والفساد فى جميع المجالات ـ والترقيات الاستثنائية ـ مع تقديم أمثلة كثيرة وذكر أسماء عديدة .

ويتعين هنا أن نذكر نقطة هامة تؤكد حقيقه أن عبيد لم يكن مدفوعا فى نقده للنحاس وحكومته بأيه دوافع دينيه ـ فمثلا ـ عندما ذكر عبيد أسماء كثيرة لنماذج المحسوبية والمحاباة ـ نجد أن معظم الأسماء التى وردت كانت أسماء لأقباط ـ كى يتفادى إتهامه بأنه منحاز دينيا ـ وأن للخلاف أية خلفيه تتصل بدينه :

«دكتور خلاف حنا ـ وثابت رزق الله افندى ـ والياس رزق الله أفندى ودكتور عبد الملك رزق الله ـ وفؤاد رزق الله افندى ـ وسليمان بطرس أفندى»[٨٤] .

وتحت عنوان «آخر الفضائح الصارخه» ـ ذكر عبيد :

«أن برقيه بالشفره قد أرسلت الى سفيرنا فى لندن ليشترى فراء بثلاثة آلاف جنيه لحرم النحاس باشا»[٨٥] .

---

(٨٢) المرجع السابق ـ القاهرة ـ ١٩٤٣ ص ـ ١٥
(٨٣) المرجع السابق ـ القاهرة ـ ١٩٤٣ ـ ص ـ ٤٦
(٨٤) المرجع السابق ـ ص ـ ٤٥٥
(٨٥) المرجع السابق ـ ص ـ ٥٠٩

وفى الفصل الثانى يعالج الجزء الثانى الجانب السياسى للفساد الذى اتهم عبيد حكومه الوفد بأنها متورطه فيه ، مع مناقشه بعض الموضوعات الأخرى مثل «الاعتداء على الحريات الفرديه . والتدخل فى الانتخابات العامه ، والحد من حريه الأحزاب السياسيه[٨٦] .

وفى خاتمه (الكتاب الأسود) قدم عبيد توصياته الى الملك فيما يتعلق بأوجه العلاج الممكنه . وطلب من الملك فاروق أن يبعد حكومه الوفد بأسرع ما يمكن كى يصون الدستور . ويحفظ العدل والكرامه والشرف . ويقوم بالغاء الاجراءات الخاطئه المتصله بالتجاوزات فى قطاع التموين . وصور المحسوبية المختلفة .

وطلب أيضا أن يتم تعيين لجنة قضائيه خاصة لدراسة جميع الإتهامات المتصلة بالأمانة ونزاهة الحكم . كى يمكن معاقبة أولئك المسئولين بسرعة . اذ أن عقابهم سيكون بمثابة عبرة للآخرين . واقترح عبيد سن قانون يتم بموجبه سؤال الوزراء والمسئولين بشأن ما اكتسبوه أثناء وجودهم فى السلطة . وسن قانون آخر يضع حدا لكل الإجراءات التى تتخذ ضد الحريات والأفراد والأحزاب . واطلاق سراح المسجونين السياسيين . ودفع تعويضات لضحايا الحكومة الحاليه . لقاء ما عانوه من مظالم .

وفى التماسه إلى الملك . أخذ عبيد على عاتقه دعم الحكم البرلمانى وضمان الحريات الدستورية : حرية الصحافة . حرية الكلام . والاجتماع . حتى اذا اصبح من الضرورى ابقاء الاحكام العرفية . فان هذا القانون لن يتم استغلاله فى شئون لا تتعلق بمقتضيات الوضع العسكرى . ويستطرد ـ فى تقريره ـ مطالبا برفع الأحكام العرفية وإيقاف العمل بقانون الطوارئ واطلاق الحريات المختلفة[٨٧] . ولم يجد عبيد رد الفعل الذى كان يتوقعه من الملك أو مستشاريه . خاصه احمد حسنين . تجاه كتابه الأسود . ومن المؤكد أن ظروف الحرب والعلاقات المتوترة بين الملك والسفارة البريطانية ـ بعد ٤ فبراير ١٩٤٢ ـ أضعفت القصر إزاء الوفد . وهكذا فانه لم يكن من الممكن لرد فعل كتاب عبيد . الا أن يكون رد فعل سلبى . ولم يكن الملك قادرا أيضا على حماية عبيد من رد فعل النحاس العنيف . لكن من المؤكد أنه استخدمه كأداه لإرباك النحاس والوفد . كما انه ليس من المستبعد ايضا أن يكون النحاس قد حصل على موافقة مسبقة

---

(٨٦) المرجع السابق . ص ـ ٥١٢

(٨٧) المرجع السابق . ص ـ ٥٤٩

من القصر ومن البريطانيين ليواصل اسلوبه المتصلب والعنيف فى معالجة مسألة مكرم عبيد . منعا لأى اعتراضات من جانب الملك أو السلطات البريطانية فى وقت الحرب .

وكان رد فعل القصر الوحيد على الكتاب الأسود هو تحويله الى رئيس الوزراء فى ١٠ إبريل ١٩٤٣ مع رسالة تفسيرية مرفقة به . وكانت الرسالة تحتوى على تقرير لا يشو به أى لبس بأن الكتاب يحتوى على بعض التساؤلات والأحداث التى تستحق الإجابة عليها وتبريرها من جانب الحكومة[٨٨] . وعلى الرغم من أن رد فعل القصر على الكتاب الأسود كان حذرا ومعتدلا . فقد قيل أن الملك ـ سواء بنصيحة من حسنين أو غيره ـ كان يريد إستغلال ما تضمنه الكتاب كى يطرد وزارة النحاس . لكن حالة الحرب السائدة منعته من إتخاذ ذلك القرار الخطير[٨٩] .

وكان للكتاب الأسود أصداء كبيرة فى أنحاء البلاد . وعلى الرغم من أن الرقابة الصحفية منعت الصحف من ذكر أى شئ عنه . فإن أعضاء كل الأحزاب كانوا يحصلون على نسخ منه بأية وسيلة ممكنة [٩٠] . ووصلت نسخ منه الى السفارات الأجنبية . خاصة البريطانية والأمريكية[٩١] . «لقد أحدث اثارة كبيرة . بسبب الطبيعة الدقيقة للإتهامات التى يثيرها مع إحتوائه على اقتباسات وشواهد مدعمة بالوثائق[٩٢] .

واعتبر د . هيكل وزعماء المعارضة الآخرون . أن الحكومة كان لديها إختياران بالنسبة لمعالجة الموقف . اما أن تقدم عبيد للقضاء الذى يدرس محتويات الكتاب ويقرر ماهية الإجراءات الممكن اتخاذها ضد عبيد اذا ثبت عدم صحة محتويات الكتاب . أو الالتزام بالصمت . مما يعنى موافقتها على ما جاء فيه[٩٣] .

وقد فكر بعض النواب فى البرلمان فى رفع دعوى ضد عبيد فى المحكمة . لكن النحاس رفض ذلك . قائلاً ان موقف عبيد موقف سياسى . ومن أجل ذلك لابد من مناقشة المسألة فى البرلمان . وليس فى المحاكم[٩٤] . وكان هناك بديل آخر امام النحاس . أوصى به سير مايلز لامبسون .

---

(٨٨) الجماصى . مرجع سابق ص ـ ٢٩

(٨٩) حشيش . مرجع سابق . ص ـ ١٩

(٩٠) د . هيكل . مرجع سابق . ص ـ ٢٨٣

(91) **Colombe, Op. Cit., p. 108**

(92) **F.O. 371 35531, April 4, 1943, Lampson to Eden**

(٩٣) د . هيكل .مرجع سابق . ص ـ ٢٨٣

لأمين عثمان . في مجال تعليقه على ردود الفعل تجاه (الكتاب الأسود) :

« لست ادرى ما اذا كان النحاس باشا يرغب في الإحتكام للأمة . لكن يبدو لى أن ذلك التصرف عملية منطقية . وهو التصرف الطبيعى الوحيد في النظم الديمقراطية اذا ماكان يرغب في تبرئة ساحته في نظر الرأى العام . واذا كان لى أن أنصح الملك فاروق . فانه من المهم بمكان . إجراء انتخابات عادلة تدل على حقيقة الموقف[٩٥] .

وكان رد الفعل الرسمى للحكومة هو التزام الصمت لفترة من الوقت بإستثناء منع ذكر اسم (الكتاب الأسود) أو الاشارة اليه في الصحف المصرية . وبعد مرور عدة أسابيع من نشر (الكتاب الأسود) قدم أحد أعضاء مجلس الشيوخ الوفديين سؤالاً في المجلس . عما تعتزم الحكومة اتخاذه تجاه (الكتاب الأسود) وعبيد . وتأجلت الأجابة لعدة أسابيع عن عمد . بينما كانت الحكومة تتشاور في الطريقة التى ستتصرف بها . وبدأ عدد من النواب في اثارة أسئلة برلمانية بشأن محتويات (الكتاب الأسود) . وقدم الوزراء أجابات مفصلة فيما يتعلق بأسئلة كثيرة بطريقة تعطى الانطباع بأن البيانات الواردة في (الكتاب الأسود) مبالغ فيها بصورة كبيرة . وأن بعض أجزائه زائفة بصورة يمكن إثباتها . وتم تجميع إجابات الوزراء على تلك الأسئلة البرلمانية . بعد ذلك . في كتيب أصدره الوفد تحت عنوان (الكتاب الأبيض) وهاجمت تلك الإجابات عبيد . وفندت جميع إتهاماته .

وفى جلسة مجلس النواب في ٢١ ابريل ١٩٤٣ . وجه النائب عمر عمر سؤالاً الى النحاس بشأن النصوص الواردة في الكتاب الأسود المتعلقة بحياة الرفاهية التى يعيشها النحاس . والمتمثلة في السيارات والمنازل . بصفة خاصة . وبدأ النحاس برواية تاريخ شراء سيارته . وكيف استأجر منزله في جاردن سيتى وركز على قصة قطعة الفراء بالقول أن عبيد يدعى في (الكتاب الاسود) أن قيمتها ثلاثة آلاف جنيه . بينما كان ثمنها ثمانين جنيها فقط . وتبعه وزير المواصلات ليكمل الإجابات من الناحية الفنية والاقتصادية وأعقب الإجابات تصفيق مطول من النواب . وطلب من السيد سليم ــ أحد مؤيدى عبيد ــ ترك قاعة مجلس النواب بسبب ما أحدثه من إعتراضات[٩٦] .

---

(94) Colombe. op. cit., p. 108.
(95) F.O. 371 35533, May 6, 1943, Lampson to Eden.
(٩٦) مضبطة مجلس النواب . الجلسة ٣٢ القاهرة ــ ٢١ أبريل ١٩٤٣ ــ ص ــ ١٢٩٠ ــ ١٢٩٧ .

وحدثت فى الجلسة التالية مناقشة مستفيضة بين رئيس المجلس (وفدى) وبعض مؤيدى عبيد . فى حضور النحاس . حول سؤال برلمانى . كان عبيد قد أرسله الى مجلس النواب . يستفسر فيه من رئيسه عن كل الموضوعات التى وردت فى (الكتاب الأسود) . ورفض رئيس المجلس ـ المؤيد من الأغلبية ـ الموافقة على السؤال البرلمانى بدعوى انه يبدو عامًا وغامضًا . وتلا ذلك مناقشة مطولة حول الاجراءات البرلمانية . وحدود سلطة رئيس مجلس النواب . وكان واضحا أن غالبية النواب يؤيدون النحاس وحكومته ضد عبيد . الذى كان متغيبًا عن الجلسة[97] . وفى الإجتماعات الأخرى التى عقدت بعد ذلك . قدمت أسئلة برلمانية الى النحاس تتعلق ببعض الاتهامات الواردة فى (الكتاب الأسود) والى عدد من الوزراء بشأن حوادث معينه .

وحضر النحاس وأعضاء حكومته تلك الجلسات . لكن عبيدا كان متغيبًا . بينما كان مؤيدوه هناك . وكان الوفد قد قام بترتيب الأسئلة وتنسيقها مقدمًا . مع السماح لكل نائب بأن يدلى بتعليقه عقب إجابه كل وزير . موجهين المديح للحكومة ومنتقدين عبيد بصفته كاذبا ومخادعا . وقدم عبيد ـ بصفته الشخصية ـ سؤالا برلمانيًا فى جلسة مجلس النواب فى مايو ١٩٤٣[98] . وكان سؤاله حول وقائع الكتاب الأسود وموجها الى النحاس . وأحدث صدى عظيمًا . خاصة بين صفوف المعارضة . داخل البرلمان وخارجه . لأنه كان خطوة جريئة من عبيد خصوصًا فى ظل سلطات النحاس فى وقت الحرب[99] . وشرح عبيد سؤاله عن اتهاماته للنحاس وحكومته مثم وردت فى الكتاب الأسود . وتحدث فى ثلاث جلسات متتالية . بينما كان النحاس ووزراؤه موجودين فى قاعة المجلس . وأوقفه رئيس المجلس عن الكلام عدة مرات . وكان رئيس المجلس يتخذ خطا متشددًا من عبيد . وقد أعدت الغالبية العدة ـ مسبقًا ـ لخلق موقف ضد عبيد . وفى الجلسة الثالثة . وافق النواب ـ بناء على إقتراح من رئيس المجلس ـ على وقف عبيد من مواصلة حديثه . لأنه كان قد استغرق الوقت المناسب له . عندئذ . إنسحب عبيد من الجلسة . متبوعا بأعضاء المعارضة . بإستثناء أعضاء الحزب الوطنى[100] . واتخذ المجلس قرارًا بأغلبية الأصوات

---

(٩٧) مضبطة مجلس النواب ـ الجلسة الثالثة والثلاثون القاهرة ٢٧ إبريل ١٩٤٣ ص ١٣٣٦ ـ ١٣٤٣ .

(٩٨) مضبطة مجلس النواب ـ الجلسة الأربعون القاهرة ـ ١٨ / ١٩ مايو ١٩٤٣ ـ ص ـ ١٦٩٢ ـ ١٧٣٣

(٩٩) د . هيكل ـ مرجع سابق ـ ص ـ ٢٨٤

(١٠٠) مضبطة مجلس النواب ـ الجلسة الثانية والأربعين القاهرة ٢٢ / ٢٣ مايو ١٩٤٣ ـ ص ـ ١٧٦٠ ـ ١٨١٥

فى نهاية الجلسة بشجب عبيد وكتابه . وتجديد الثقة فى النحاس ومجلس وزرائه . وفى ١١ يوليو ١٩٤٣ قررت المجموعة البرلمانية الوفدية فى اجتماع لها تقديم اقتراح بطرد عبيد من عضوية مجلس النواب . وفى اليوم التالى بالتحديد . تقدم مكتب مجلس النواب . باقتراح بطرد عبيد من عضويته فى مجلس النواب .

وأعلن رئيس مجلس النواب . أن مكتب المجلس قد قرر بالفعل فى ٢٣ مايو ـ تطبيقًا للمادة (١١٢) من الدستور ـ حرمان عبيد من مقعده . ولكن الشاذلى باشا (نائب مستقل) أشار انه يتعين دراسة السوابق البرلمانية المماثلة أولاً . كما أن فكرى أباظة (نائب حزب وطنى) تحدث ايضا بضرورة تأجيل القرار لهذا الغرض . الا أن الأعضاء الوفديين طالبوا بقرار فورى . وتم استدعاء عبيد كى يدافع عن نفسه . وتضمن الإقتراح بطرد عبيد وصفه بأنه أسوأ مثل للنائب البرلمانى منذ سنة ١٩٢٤ . وفقد عبيد مقعده بأغلبية ٢٠٨ صوتًا ضد ١٧ صوتًا[١٠١] .

ولعله مما يثير السخرية أن عبيد هو صاحب الأقتراح بضرورة أن يكون للوفد ثلاثة أرباع أصوات المجلس على الأقل حتى يمكن للحزب طرد أى نائب واسقاط عضويته . وكان عبيد نفسه هو أول نائب يتم طرده طبقًا للأغلبية التى نادى بها من قبل[١٠٢] . كما تم طرد جميع مؤيدى عبيد من عضويتهم فى مجلس النواب لسبب أو لآخر . كعقاب لخروجهم على زعيم الوفد . وقد واصل عبيد نشاطه ضد النحاس وحكومته على الرغم من ذلك الموقف الصعب ـ بالتعاون مع زعماء المعارضة الآخرين ـ وأثبتت مجهوداته وجود تأييد قوى لمعارضته . لأنه كان سكرتير عام الوفد السابق . كما أصبح له حزبه الخاص « الكتلة الوفدية » . وجريدته الناطقة باسمه . ولم تكن « الكتلة » حزبًا سياسيًا كبيرًا لكنه كان حزبًا جيد التنظيم . وقد تمتع بتآلف وتجانس فى مواقف أعضائه . وكان معظمهم أعضاء سابقين فى حزب الوفد . وانتقدوا الأتجاهات والنزعات الجديدة للوفد فى السنوات القليلة الأخيرة . وعارضوا سياسات النحاس واتجاهاته المنفردة .

وكان أعضاء « الكتلة » إما اعضاء سابقين فى الوفد تبعوا عبيد فى إنقسامه عنه . أو أعضاء شبان من المديريات المختلفة كانوا يحسون بخيبة أمل تجاه زعامة الوفد . وكان من بين هؤلاء الآخرين . ضابط شاب ـ مطرود من الخدمة ـ هو محمد أنور السادات . الذى كان يفكر فى ترشيح نفسه عن حزب الكتلة فى انتخابات عام ١٩٤٥ عن إحدى الدوائر فى مديرية

---

(١٠١) مضبطة مجلس النواب ـ الجلسة ٤٧ القاهرة ـ ١٢ يوليو ١٩٤٣ ـ ص ـ ٢١٣

(١٠٢) د . هيكل ـ مرجع سابق ـ ص ـ ٢٨٧

المنوفية[١٠٣] . وظهرت صحيفة (الكتلة) الى الوجود فى سنة ١٩٤٤ . وقد حاول عبيد أن يجعلها جريدة رأى فى وقت كانت فيه صحافة الخبر هى التى تلعب دورًا مسيطرًا فى التأثير على الرأى العام[١٠٤] . ورحبت الكتلة بالصحفيين الشبان من الجيل الجديد . مثل جلال الدين الحمامصى . وطلعت يونان . وتوقفت عن الصدور سنة ١٩٤٩ . وكان احمد قاسم جودة رئيس تحريرها المسئول طوال فترة وجودها .

وأضاف عبيد جزءًا جديدًا الى الكتاب الأسود فى فبراير ١٩٤٤ . وكان أكثر عنفا هذه المرة فى انتقاده وهجومه على النحاس . لأنه تعلق بالجانب السياسى . وأتهم النحاس بأنه يعرض مصالح البلاد للخطر من أجل السعى لمباركة بريطانيا وطلب رضائها[١٠٥] . وبينما كان مشغولا فى نشاطاته ضد النحاس . وانتقاده للوضع العسكرى فى مصر أثناء الحرب . ألقى القبض عليه فى ٩ مايو ١٩٤٤ . وبأمر النحاس الحاكم العسكرى ـ وقضى الأيام القليلة الأولى من فترة اعتقاله فى سجن الأجانب ثم نقل بعد ذلك الى إستراحة الرى فى « السرو » الى أن اطلق سراحه بعد ذلك . ليصبح وزيرا للمالية فى وزارة أحمد ماهر فى ٧ اكتوبر ١٩٤٤ عندما أقيلت حكومة النحاس . وقد أوضح عبيد ـ فيما بعد ـ أن إلقاء القبض عليه كان بناء على رغبة البريطانيين . وبرهن على قوله هذا بأنه كان قد وجه دعوة للشعب المصرى لمواجهة سلطات الأحتلال . قبل ثمانية أيام فقط من قرار إعتقاله[١٠٦] . واصدرت الحكومة الوفدية بيانًا بعد اعتقاله . تشرح فيه انه كان قد أنذر قبل ذلك بستة أشهر بأن يوقف اجتماعاته التى كان يعقدها . لأنها كانت غير مشروعة فى ظل الأحكام العرفية القائمة[١٠٧] .

ولنا أن نتساءل الآن . هل كان انقسام عبيد عن الوفد واستقطابه مجموعة ضئيلة نسبيًا بمثابة خطأ فادح فى حياته السياسية ؟ ان الفصل التالى سيناقش نتائج انقسامه على الوفد فيما يتعلق به . مع محاولة إكتشاف أية جوانب أو آثار لخروج مكرم عبيد ـ السكرتير العام لحزب الوفد على الوحدة الوطنية المصرية ودور الأقباط داخل ذلك الحزب .

---

(١٠٣) من لقاء مع الاستاذ ـ فكرى مكرم عبيد فى ١٥ فبراير ١٩٧٥ .

(١٠٤) عبد اللطيف حمزه ـ مرجع سابق ـ ص ـ ١٥٦ .

(105) Colombe, Op. cit., p. 108.

(١٠٦) من شهادة عبيد فى محاكمة سراج الدين الأخبار ـ ١ يناير ١٩٥٤ .

(107) F.O. 371. 41329, May 11, 1944, Lord Killearn to Eden.

الفصل الخامس

تحليل وتقييم

تحليل وتقييم

ينظر كثير من المتخصصين فى التاريخ السياسى المصرى الحديث الى خروج عبيد من الوفد . ونشره « الكتاب الأسود » على انه الخطأ الرئيسى فى حياته السياسية . حتى أولئك الذين ساندوا عبيد وتضامنوا معه فى انفصاله عن الوفد . وعرفوا بموقفهم المعادى للنحاس . لاموا عبيدا على خطته الاستراتيجى . ومجموعة القرارات التى اتخذها واتسمت بغياب الحكمة والحنكة السياسية . فقد انتقد عبد الرحمن الرافعى ـ المؤرخ المعروف . والذى كان سكرتير عامًا للحزب الوطنى ـ السلوك المتهور لعبيد . واصداره الكتاب الأسود . على الرغم من أنه يعتقد أن عبيدا كان على حق من حيث المبدأ[1] . ويعتبر احمد بهاء الدين ـ الكاتب الصحفى المعروف ـ مكرم عبيد من أكثر الشخصيات شهرة وبروزا فى السياسة المصرية فى الفترة ما بين وفاة زغلول حتى سنة ١٩٥٢ . لكنه هو أيضًا . يعتبر **الكتاب الأسود** خطأه الوحيد[2] . كما أن الدكتور فؤاد زكريا ـ استاذ الفلسفة ـ يتمنى لو أن عبيدا لم يكن قد توج تاريخه الوطنى ونشاطه السياسى البارز بنشر الكتاب الأسود[3] . أما الدكتور محمد حسين هيكل ـ زعيم حزب الأحرار الدستوريين ـ والذى كان متعاطفًا مع عبيد فى خلافاته مع النحاس . فيعتقد أن عبيدا ارتكب خطأ كبيرًا باقدامه على نشر الكتاب الأسود . وفضح تلك القائمة الكبيرة من الأسماء والشخصيات . ويعتقد د . هيكل أن عبيد كان سيصبح أكثر ذكاء لو أنه كان قد أختار عددًا من الأمثلة الصارخة . وركز على تأثيرها الخطير . بدلاً من تقديم كل هذه الأمثلة ذات الأهمية المتفاوتة . والتى أثار كل منها نفس الدرجة من الأهتمام[4] .

(١) عبد الرحمن الرافعى . فى أعقاب الثورة المصرية . المجلد الثالث . القاهرة . ١٩٥١ ص ـ ١٢٠

(٢) أحمد بهاء الدين . مقال فى صحيفة الوطن . الكويت . ٨ فبراير ١٩٧٥ .

(٣) د . فؤاد زكريا . مقال فى مجلة روز اليوسف القاهرة . ٢١ أبريل ١٩٧٥ .

(٤) د . هيكل . مرجع سابق . ص ـ ٢٨٥ .

تلك هى بعض أمثلة لرد الفعل من موقف عبيد بين بعض معاصريه الذين كانوا قريبين منه ومن الأحداث وعلى صلة وثيقة بها . وقد شعر آخرون بأن عبيد قد بالغ فى تصوير حجم المحسوبية أثناء وجوده فى السلطة . وقد تساءل التابعى ـ بدهشة ـ عن سبب إقدام عبيد على مهاجمة حالات الإمتيازات الإستثنائية فى سنة ١٩٤٢ . فى حين أنه سبق له أن برزها سنة ١٩٣٧ . أى قبل ذلك بخمسة أعوام[٥] . وكان هناك انطباع سائد فى الدوائر السياسية بأن عبيدا قد دمر كل الجسور التى كانت تربطه بالنحاس . وانه عمل على تفاقم الوضع دون أى اعتبار أو مقابل ذى قيمة[٦] .

وبالاضافة للإنتقادات السابقة . كان هناك وجه آخر معقد للنزاع عندما أتهم النحاس عبيدا ومؤيديه بتورطهم فى مؤامرة مع القصر الملكى لتشويه سمعة النحاس ـ زعيم الأمة والمعروف بالأمانة وطهارة اليد[٧] ـ وقد استند الذين الصقوا بعبيد تلك التهمة على بعض شائعات حول تورطه فى محاباة بعض أقاربه وأصدقائه من اقباط ومسلمين من ابناء قنا[٨] . ولا يجب أخذ تلك الاتهامات ضد عبيد بجدية . لأنها أثيرت ضمن ادعاءات أخرى فى اطار الهجوم ضد الوفد والنحاس قبل انشقاق عبيد . ويشيد كثير من معاصرى عبيد بأمانته ونزاهته[٩] .

وقد احتوى « الكتاب الأبيض » الذى جاء ردًا على « الكتاب الأسود » بعض ادعاءات للنحاس والوفديين تطعن فى امانة عبيد . وقد كانت تلك الاتهامات لا تستحق الذكر . مثل قبوله لبعض هدايا صغيرة من بعض رجال الأعمال بمناسبة زفاف شقيقه[١٠] . والواقع أن عبيدا كان حريصًا على الإحتفاظ بشعبيته . ومن ثم كان مستعدًا لتقديم تسهيلات فى حدود مناسبة ـ خاصة أثناء فترة الأنتخابات ـ لكن امانته المالية ونزاهته الشخصية كانتا فوق الشبهات عمومًا .

ويتعين الآن مناقشة نتائج وأصداء انشقاق عبيد عن الوفد . فى محاولة لتقييم تلك الخطوة فى حياته السياسة . ولتقرير ما اذا كانت تكتيكا ناجحا فى مجرى حياته . أو انها كانت تشكل ـ طبقًا

---

(٥) محمد التابعى . مرجع سابق . ص ـ ٢٦٨ .
(٦) صلاح الشاهد . مرجع سابق . ص ـ ٤٠ .
(٧) د. رفعت السعيد . مصطفى النحاس السياسى والزعيم والمناضل . القاهرة ١٩٧٦ . ص ـ ٨٤ .
(٨) حسان أبو رحاب . المحسوبية فى عهد النحاس . القاهرة . ١٩٣٨ . ص ـ ٩٠ ـ ٩٤ .
(٩) صلاح الشاهد . مرجع سابق . ص ـ ٤٠ .
(١٠) مضبطة مجلس النواب . جلسة رقم ٤٢ . القاهرة ٢٢/٢٣ مايو ١٩٤٣ ـ ص ١٧٧٧ .

للرأى الذى كان سائدًا فى ذلك الوقت ـ نكسة حقيقية حيث انه قد قطع طرق التراجع جميعًا على نفسه الى حد اعتبار خطوته تلك انها تعنى النهاية الفعلية لدوره السياسى على مسرح الحياة العامة فى مصر . ولتحديد صحة ذلك الرأى يتعين علينا أن نحقق فى رد فعل مراكز القوى الرئيسية فى الحياة السياسية المصرية . تجاه انشقاق عبيد عن الوفد . وما تلا ذلك من نشر الكتاب الأسود . فكان رد فعل القصر الملكى ـ بالنسبة لموقف عبيد ـ متعاطفا جدًا . على أمل أن يؤدى ذلك الى النيل من شعبية النحاس والى تفتيت زعامة الوفد . وبذلك يفقد الوفد عناصر ديناميكية الأ أن القصر كان أكثر حذرًا فى رد فعله تجاه ظهور «الكتاب الأسود» لأن توازن القوى لم يكن فى صالح القصر فى ذلك الوقت . كما كانت العلاقة الودية والوثيقة بين البريطانيين والوفد . أثناء الحرب . وبعد حادث ٤ فبراير بصفة خاصة . بمثابة مركز ثقل قوى فى مواجهة القصر .

وكان الملك فاروق وحسنين مستعدين لتأييد عبيد ومساندته فقط اذا تمكن من إستقطاب قطاع كبير من الوفديين والرأى العام يتمكن به من إحداث معارضة قوية ضد النحاس بحيث تؤدى الى انقسام كبير فى الحزب . وعندئذ سوف يكون للقصر الملكى أسباب كافية وتبريرات قوية للتحرك علانية ضد النحاس وحكومته بدون الخوف من رد فعل السلطات البريطانية . طالما أن مطلبهم الأساسى كان هو وجود حكومة مستقرة فى وقت الحرب . الاّ أن مخطط القصر الملكى لم يكن قائما على أسباب موضوعية . ولكن كان قائما على المرارة التى تركها حادث ٤ فبراير وآثارها على هيبة القصر ومكانة الملك .

كما أن حسنين كان ينظر الى عبيد لا باعتباره رجل القصر . ولكن لأنه قد أصبح عدو النحاس . واتخذ البريطانيون موقفا وسطا بين النحاس وعبيد فى البداية . ولكن عندما اتبع الأخير خطا معاديا للنحاس . متهما اياه بتلقى التأييد والدعم من البريطانيين . وأنه كان لا يدخر وسعا ليفى بمطالبهم أثناء الحرب . نظروا الى هذه الاتهامات بجدية . بسبب تأثيرها المحتمل على جماهير الشعب فى تلك الفترة الحرجة ، ونجد فى الأوراق الخاصة للورد كيلرن «سيرمايلز لامبسون» قوله :

«لقد كررت القول بأننى أعتقد انه لم يكن يتعين ـ لمصلحة الموقف العسكرى ـ اقصاء مكرم عبيد عن وزارة التموين . اذ كان طبقا لتقارير المتعاونين معى يؤدى العمل بصورة طيبة وعلى نحو رائع . وله فكر واضح وعقل صاف . كما انه ذو قدرة على اتخاذ القرارات[11]» .

---

(11) KILLEARN PRIVATE PAPPERS, p. 122, TUESDAY, May 5, 1942, CAIRO.

وقد كان من أسباب تعاطف البريطنيين مع عبيد أنه لم يكن يتمتع بسلطة متعادلة مع سلطة النحاس ، زعيم الأغلبية ، ويشير تقرير من (لامبسون) الى ايدن الى تفسير خاص لضعف موقف عبيد حين يذكر :

«كان موقف عبيد ــ بوصفه قبطيا ــ ضعيفا . وتردد في البداية في الهجوم على الزعيم المسلم للوفد . طالما كان النحاس باشا يتفادى الهجوم عليه تفاديا للعداء العلني[12] » .

وقد تأثر رد فعل البريطانيين تجاه إنفصال عبيد بظروف الحرب أساسا وقد فضلوا عدم توريط أنفسهم في مسألة سياسية داخلية في ذلك الوقت العصيب . وكانت المسألة الوحيدة التي أثارت اهتمامهم في الخلاف هي اتهامات عبيد للنحاس المتعلقة بعلاقته مع البريطانيين . ويذكر لورد كيلرن في أوراقه :

«كنت قلقا للغاية من الموقف الذي كان مكرم يضع نفسه فيه . فقد كان في مقدوره أن يهاجم النحاس بالقدر الذي يريده منطلقا من دوافع شخصية لا تعنينا . ولكنه يتقدم حاليا باستجوابات سامة وجادة في البرلمان . منها رئيس الوزراء بأنه باع البلاد لنا . وكنت أعتقد أنه يتعين على عبيد أن يدرك انه اذا إستمر في ذلك الطريق فانه لن يمر وقت طويل قبل أن نضطر الى اعتباره معاديا لنا أو «طابورا خامسا» على الأقل[13] » .

ويمكن أن ندرك رد الفعل الشعبي لإنفصال عبيد عن الوفد . والتأييد المحدود الذي حظي به عند خروجه منه . إذا اخذنا في الاعتبار عاملا هاما . وهو أن الوفد كان في عام ١٩٤٢ مختلفا عما كان عليه في العشرينات . ولعل أبرز شواهد ذلك هو تطور علاقة الحزب بالبريطانيين والتي تبلورت بعد معاهدة ١٩٣٦ . وتأكدت من أحداث ١٩٤٢ التي جاءت به الى السلطة . وفيما يتعلق بالتغييرات في خصائص الوفد وسياساته . نجد إشارة الى ذلك في مذكرات الزعيم العمالي البريطاني رمزي ماكدونالد :

«ان الخلافات أو الانشقاقات عن الوفد لا يجب ــ في رأيي ــ أخذها بجدية . خاصة في وقت الأزمة الاقتصادية . وأن ما يثير دهشتي بالفعل هو أنه لم يحدث منها أكثر مما حدث من قبل .

---

(12) F.O. 371. 31573, june 21, 1942 from LAMPSON TO EDEN.

(13) KILLEARN PRIVATE PAPERS, p. 225, MONDAY JULY 27, 1942, CAIRO.

وأتذكر انه عامى ١٩٢٢.١٩٢١ ، كان المرحوم زغلول باشا يتلق يوميا خطابات للاستقالة وسحب التأييد[١٤] » .

وقد حدث اختفاء تدريجى ـ سواء عن طريق الاعتزال والتقاعد او الوفاة لكثير من الشخصيات المؤثرة ، من مسلمين وأقباط فى تاريخ الوفد . وبدت معاهدة سنة ١٩٣٦ كمرحلة أخيرة فى النضال الوطنى المصرى ، وبداية عصر جديد للعلاقات بين البريطانيين والوفد ، بصفته حزب الأغلبية المصرية ، الذى وقع المعاهدة . وفى ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٣٦ اقتبس ايدن ـ وزير خارجية بريطانيا فى مجلس العموم ، الملاحظات التى أوردها النحاس فى تقديمه المعاهدة لمجلس النواب فى القاهرة بقوله :

« لقد كان وضع الوفد ـ منذ البداية ـ كبرنامج له ، توقيع اتفاقية مع بريطانيا العظمى ، تحقق الاستقلال للبلاد ، وتصون المصالح البريطانية التى لا تتعارض مع ذلك الاستقلال[١٥] » .

والملاحظ هنا أنه بعد كل تلك التغيرات والتحولات فى الشخصية الوطنية للوفد من حركة النضال الوطنى من أجل الاستقلال ، الى حزب سياسى له تطلع مستمر إلى تولى الحكم ، الملاحظ أن تلك التغييرات قد أثرت على رد فعل الوفد تجاه انفصال عبيد ونشره « الكتاب الأسود » سنة ١٩٤٢ .

وهكذا ، فان اختفاء الزعامات المؤسسة للوفد قد اعطى النحاس السلطة الكاملة كزعيم وحيد ، وكانت زعامة الوفد هى فقط التى عالجت الشقاق الذى أحدثه انفصال عبيد ولم يتم إشراك لجان ومجموعات الحزب فى المدن والقرى وجماهير مؤيديه فى التعرف على أسباب النزاع أو فى اتخاذ القرار بطرد عبيد من الحزب[١٦] . ويرى كثير من معاصرى تلك الفترة أن عبيدا كان أقوى سندا للنحاس داخل الحزب منذ أن ارتبط كل منهما بالآخر بزمالة وصداقة لأكثر من عشرين عامًا ، والأكثر من ذلك أن الصحفى الأستاذ « التابعى » الذى كان وثيق الصلة بزعامة الوفد لمدة طويلة ، اعتبر ان عبيدا كان صاحب السيطرة فى الحكومة والحزب ، خاصة عندما

---

(14) JAMES RAMSAY MACDONALD PRIVATE PAPERS, p.r.o. 30169 (1. 227), january 1932.

(15) JAMES RAMSAY MACDONALD PRIVATE PAPERS, (1. 638) (ANGLO-EGYPTAIN TREATY, HAUSARD, DELATES ON NOVEMBER 1936).

(١٦) حشيش ، مرجع سابق ، ص ـ ١٨ .

أعطى السلطة للتصرف نيابة عن الوفد فى ترتيبات تتويج الملك فاروق سنة ١٩٣٧ [١٧] . وقد كان طرد عبيد ـ كسياسى له هذه السلطة والثقل الجماهيرى ـ تطورًا عنيفا فى تاريخ الوفد . وانعكاسًا للتغييرات التى حدثت فى الحزب عبر السنين . سواء فى زعامته أو فى سياسته . وكان من بين الأسلحة التى تم استخدامها ضد عبيد فى خلافاته مع الوفد . هو انه نفسه كان مسئولاً عن تكوين صورة النحاس أمام الشعب ووضع هالة حوله . فقد أغدق المديح على الزعيم فى خطبه ومقالاته وأعطاه ألقابا كثيرة مثل « الزعيم المقدس » . وتعود أن يتكلم ويكتب عن أمانة النحاس « الزعيم ذو اليد النظيفة » . لذلك نجد أن د . محمد صلاح الدين . آخر وزير خارجية للوفد ـ يعتبر أن عبيدا هو أسوأ الشخصيات التى حطت من قدر الحياة السياسية فى مصر [١٨] . وقد أستخدمت وجهة نظر عبيد فى احمد ماهر والنقراشى سنة ١٩٣٧ . ضده هو نفسه سنة ١٩٤٢ . ذلك أنه شرب من نفس الكأس التى سقى منها زملاءه من قبل . اذا أنه عندما كان كلا من النحاس وعبيد يتعرضان لاتهامات بالمحسوبية والفساد أثناء حكومة الوفد . كان عبيد يفند تلك الإدعاءات ويدحضها . ثم وجد نفسه أخيرًا فى الجانب الآخر سنة ١٩٤٢ .

واذا كانت تلك هى ردود فعل مراكز القوى الرئيسية الثلاثة فى سنة ١٩٤٢ : الملك والسلطات البريطانية والوفد . فانه من الممكن أن تدخل فى الإعتبار بالاضافة الى ذلك . مراكز قوى أخرى مثل البرلمان . وأحزاب الأقلية والرأى العام . وقد كان البرلمان يضم غالبية وفدية . لذلك كان رد فعلها تجاه عبيد ونشر الكتاب الأسود امتدادًا لرد فعل الوفد نفسه . ويبدو واضحًا ـ فى مضابط مجلس النواب ـ أن رئيس المجلس . عبد السلام فهمى جمعة [١٩] . قد اتخذ مواقف معادية لعبيد أثناء المناقشة البرلمانية للكتاب الأسود . وقد يكون سبب ذلك هو أن جمعة . الوفدى . شعر بأن عبيدا قد هاجمه هو شخصيًا فى الكتاب الأسود . متهمًا إياه بأنه كان منحازًا وغير ديمقراطى فى ادارته لجلسات المجلس . علاوة على ذلك فان عبيدا نشر « الكتاب الأسود » . كعريضة للملك . متجاهلا البرلمان . الذى يعتبر السلطة المناسبة لبحث شكواه والنظر فيها . وقد

---

(١٧) التابعى . مرجع سابق . ص ـ ٧٥ .

(١٨) حشيش . مرجع سابق . ص ـ ١٨ .

(١٩) عبد السلام فهمى جمعه . كان عضوا وفديا بمجلس النواب عن طنطا . وكان وزيرا وفديا . ثم أصبح رئيسًا لمجلس النواب سنة ١٩٤٢ وهو والد الدكتور عزيز فهمى من أقطاب الطليعة الوفدية (الشباب اليسارى بالحزب فى أواخر الأربعينات ومطلع الخمسينات) .

أثار هذا الاعتراض عددًا من الأعضاء فى البرلمان . مثل الرافعى . عضو مجلس الشيوخ . على أساس أن ذلك يعنى أن البرلمان عاجز عن اتخاذ اجراء تجاه تلك الإدعاءات . بطريقة عادلة ونزيهة[٢٠] .

أما فيما يتعلق بالأحزاب الأخرى ومواقفها من الإنقسام فى الوفد وصدور الكتاب الأسود . فمن المتصور أن آراء الأحرار الدستوريين يمكن استخلاصها من كتاب « الدكتور هيكل » وعلى الرغم من أنه كان متعاطفا بصورة عامة مع عبيد فقد كان يعتقد بأن قائمة الأمثلة والأسماء الكثيرة فى الكتاب الأسود تمثل خطأ فى استراتيجية عبيد . بينما يرى أعضاء الحزب الوطنى . من ناحية المبدأ . تعاطفًا مماثلاً مع عبيد . فى الوقت الذى لا يوافقونه فيه على أساليبه . وخاصة إقدامه على نشر (الكتاب الأسود) . وقد قام عبد الرحمن الرافعى بالتعبير عن آرائهم فى مجلس الشيوخ . وفكرى أباظة فى مجلس النواب . ولم يكن الأخير موافقًا اطلاقًا على إسقاط عضوية عبيد فى مجلس النواب[٢١] . أما اذا بحثنا فى موقف السعديين . بزعامة احمد ماهر والنقراشى . اللذين انفصلا عن الوفد سنة ١٩٣٧ بعد نزاع مع النحاس وعبيد . فقد كان من المتوقع أن يستغل السعديون الوضع الجديد لمهاجمة عبيد .٠الذى كان منافسهم السياسى لمدة طويلة . الا ان ذلك لم يحدث لأن النزاع بين عبيد والنحاس نشأ لأسباب مماثلة لتلك الاسباب التى أدت الى النزاع بين احمد ماهر والنقراشى من ناحية والنحاس من ناحية أخرى سنة ١٩٣٧ . وقد حاول عبيد التقارب منهما فى أوائل عام ١٩٤٢ . وعلقت « الاجيشيان جازيت » على ذلك قائلة :

« قام مكرم عبيد باشا ومندوب آخر عن النحاس باشا . بزيارة احمد ماهر باشا رئيس مجلس النواب وزعيم الحزب السعدى وأعلن بعض المعلقين انهم يرون فى ذلك تخفيفا لحدة الخلافات بين الزعماء السعديين والوفديين[٢٢] . ويمكن أن تعطى هذه الفقرة فى الاجيشيان جازيت . انطباعًا بأن عبيدا كان يحاول إقامة جسور مع الأحزاب الأخرى . لأنه كان قد تحسس دلائل خلافات جوهرية محتملة مع النحاس . ويتفق الهلالى مع هذه النتيجة بملاحظة قال فيها انه قد لاحظ روح الخلاف بين النحاس وعبيد من أول جلسة لمجلس وزراء الوفد سنة ١٩٤٢[٢٣] . ومن ناحية

---

(٢٠) الكتاب الأبيض ـ القاهرة ـ ١٩٤٣ ـ ص ٥٦٩ .

(٢١) مضبطة مجلس النواب . جلسة رقم ٤٧ . القاهرة . ١٢/ ١٣ يوليو ١٩٤٣ ص ـ ٢١٣٠ .

(22) EGYPTIAN GAZETTE, CAIRO, FEBRUARY 3, 1942, P. 3.

(٢٣) أنظر الفصل الرابع . هامش ١٩ .

أخرى . يمكن تناول ذلك الخبر الذى نشرته « الاجبشيان جازيت » من خلال الجو الذى أثاره حادث ٤ فبراير . كما يظهر من تاريخ الخبر .

وإذا تطرقنا الى الرأى العام المصرى . لوجدنا أن أصداء تصرف عبيد لم تكن مثلما كان متوقعًا . لأن الكتاب الأسود وزع فقط على الشخصيات الهامة فى الحكومة والأحزاب السياسية . ولم يكن ميسورًا الحصول عليه للمواطن العادى . كما أن الرقابة السائدة على الصحف عملت على تقييد توزيعه والحد من إنتشاره . كما منعت ذكر أى شئ عنه . أو عن المناقشات التى جرت فى مجلس النواب بشأنه . وقد أدت تلك العوامل الى تحويل النزاع بين النحاس وعبيد الى خلاف فى زعامة الوفد .

ويبدو واضحًا أن معظم ردود فعل مراكز القوى الرئيسية على المسرح السياسى المصرى فى ذلك الوقت كانت انتقادية بالنسبة لموقف عبيد وذلك لأسباب متعددة منها :

أولاً : أن مكرم عبيد لم يكن حكيما فى توقيت نشره الكتابَ الأسود . لأن جميع وسائل الإعلام فى وقت الحرب كانت خاضعة لرقابة مشددة . وخاصة الصحف . وقد منع ذلك عبيد وبصورة كبيرة من الوصول الى جميع قطاعات الشعب . وفى الوقت نفسه كان الشعب يولى – بسبب ظروف الحرب – معظم اهتمامه وانتباهه للمعركة الدائرة فى الصحراء الغربية . وصرفت هذه الظروف انتباه الرأى العام عن اتهامات عبيد للنحاس وقيادة الوفد .

ثانيًا : كان هناك الضعف النسبى لوضع الملك فى مواجهة البريطانيين والوفد بما لم يهيئ للقصر القدرة الكافية لتأييد عبيد ومساندته علنا . وكان ذلك بمثابة خيبة أمل حقيقية لعبيد لأنه كان يتوقع تأييدًا قويًا من القصر فى معركته السياسية ضد الوفد والنحاس .

ثالثًا : كانت آراء عبيد ومواقفه –داخل البرلمان وخارجه– فى غير صالحه شخصيًا. واستخدم النحاس تلك الآراء ضده فى الوقت الذى ساعدت فيه ظروف الحرب النحاس فى التضييق على عبيد واستعداء قوى كثيرة ضده مدعيًا أن تصرفاته تناقض بنود معاهدة ١٩٣٦ .

رابعًا : أن النتيجة النهائية لمعارك الصحراء الغربية حرمت عبيدا من مواصلة اتهامه للنحاس بأنه باع البلاد للبريطانيين . لأن هزيمة الحلفاء فى شمال أفريقيا والتى كانت متوقعة تمامًا .

قد دفعت عبيدا لمطالبة النحاس باعتبار القاهرة مدينة مفتوحة . على افتراض أن قوات المحور سوف تصل الى المدن المصرية . الا انه عندما حقق البريطانيون انتصارهم . أصبح مركز النحاس أكثر قوة . بينما أصبح مركز عبيد ضعيفًا لا يعززه تطور الأحداث [٢٤] .

خامسًا : كان من العقبات التي واجهت عبيدا في موقفه ضد النحاس عدم وجود ديمقراطية حقيقية في مصر . فقد امتلك النحاس كل مصادر القوة . بينما وقف عبيد مجردًا من سلطاته . وتصرف النحاس كديكتاتور ضده . حتى تم تجريد عبيد من عضويته في مجلس النواب . والقى القبض عليه بعد ذلك .

وقد وصف عبيد ذلك الجو الذى احاط به في « الكتاب الأسود » بقوله انه ظل في الوزارة لعدة شهور ينصح ويساعد . ثم قدم استقالته ثلاثة مرات . وحاول النحاس إهانته . ووضع رقابة على أية اشارة اليه في الصحف . كذلك على مكاتباته ومراسلاته . ثم يواصل عبيد الخطوات والاجراءات التي اتخذت ضده ومنها منع مجلس النواب من توجيه الشكر إليه على خدماته . ثم فصله هو ومجموعته من البرلمان والحزب . وتقييد حريتهم الشخصية وحرمانهم من حقوقهم السياسية [٢٥] .

وقد استغل النحاس مركزه وشعبيته . ليدفع بعبيد الى موقف صعب . الى درجة انه عندما قدم أحد مؤيدى مكرم عبيد في مجلس النواب اقتراحًا في أول يونيو ١٩٤٢ بتوجيه الشكر لعبيد على خدماته التي أداها في وزارة المالية ووزارة التموين . لم يسمح له رئيس المجلس بذلك [٢٦] . وعلى الرغم من كل ذلك . فقد واصل عبيد نشاطه في اطار حزبه . الكتلة الوفدية . وواصل اصدار جريدته (الكتلة) ومارس نشاطاته خارج حزب الأغلبية للمرة الأولى في حياته السياسية ، بعد أن كان عنصرًا فعالاً في الوفد لأكثر من عشرين عامًا . وفى ١٣ مايو ١٩٤٤ . نشر عبيد بيانًا باسم « الكتلة الوفدية المستقلة » ، اتهم فيه بريطانيا باعادة فرض الحماية على مصر ، منتهكة بذلك لا المعاهدة فقط بل أيضًا جوهر الخطابات المتبادلة بين البلدين في فبراير ١٩٤٢ . وروح ميثاق الأطلنطى ، وأعلن عبيد ـ في بيان حزبه ـ احتجاجه الشديد على تلك السلسلة من

---

(٢٤) من مقابلة مع الأستاذ ـ سعد فخرى عبد النور ، اطلس ، . ١٣ سبتمبر ١٩٧٤

(٢٥) الكتاب الأسود . ص ٦٢ .

(26) F.O. 371, 31572, JUNE 3, 1942, LAMPSON TO EDEN.

الاعتداءات على الحريات العامة ، وختم بيانه بقوله انه يوجه ذلك النداء الى صاحب الجلالة الملك ، ويرسل صورًا منه الى السفارة البريطانية ، وممثلى الدول الديمقراطية ، والدول العربية الشقيقة[٢٧] . ويعتبر ذلك البيان نموذجًا لآراء وتصرفات عبيد فى الفترة مابين طرده من الوفد والقاء القبض عليه . وقد تعاون عبيد مع السعديين والأحرار الدستوريين . وقيادات الحزب الوطنى فى تقديم عدة احتجاجات ضد المحاولات التى اتخذت للابقاء على حكومة النحاس فى السلطة . ومواصلة السياسة البريطانية فى مصر . والواقع أن عبيدا قد اتخذ خطا أكثر تشددًا ضد البريطانيين بعد خروجه من الوفد أكثر مما كان عليه حين كان عضوًا فيه . وكان سبب ذلك هو مزايدته على النحاس ورغبته فى الظهور أكثر وطنية من زعيم الوفد ذاته .

وقد أمضى عبيد خمسة شهور فى السجن الى أن اطلق سراحه فى ٨ اكتوبر ١٩٤٤ . ليعين وزيرًا للمالية فى حكومة جديدة يترأسها احمد ماهر . بالإضافة الى زملاء آخرين من حزبه . كما أعيد تعيينه بعد اغتيال احمد ماهر فى فبراير ١٩٤٥ . فى منصبه نفسه فى حكومة النقراشى . ولم يكن عبيد راضيًا تمامًا بالعمل فى حكومة يرأسها احمد ماهر أو النقراشى . وكان يشعر بأنه يستحق تولى رئاسة الحكومة أكثر منهما[٢٨] .

وفشل عبيد فى تحقيق حلمه فى أن يصبح رئيس وزراء لمصر فقد أنزله انفصاله عن الوفد الى مرتبة ثانية حتى بالنسبة لأحمد ماهر والنقراشى وقد كان عبيد على علاقة فاترة مع الأخير عندما كان رئيسًا للحكومة . ومع الدكتور عبد الحميد بدوى زميله فى الوزارة كذلك . وأصبح النزاع بين النقراشى ومكرم أكثر حدة فى مارس وإبريل ١٩٤٥ . مما يرجع بصورة جزئية إلى تشجيع مكرم للعمال . كما يرجع ـ الىحد ما ايضًا ـ الى الخلاف حول الإجراء المتعلق بتقرير لجنة التحقيق فى أخطاء النحاس باشا ووزرائه وأصبح النزاع بين مكرم وبدوى ـ فيما يتعلق بأسبقيتهما ـ أكثر حدة بسبب المأدبة التى أقيمت فى القصر الملكى لمؤتمر اقتصادى . وهو الحفل الذى وضع فيه القصر بدوى قبل عبيد . والملاحظ أن عبيدا فى ذلك الوقت كان يتودد الى العمال . ويبدى نزعة اشتراكية بصورة عامة[٢٩] .

---

(27) F.O. 371, 41328, MAY 12, 1944, LORD KITTEARN TO EDEN.

ولمزيد من التفاصيل عن أنشطة حزب الكتلة . أنظر تقرير البوليس السياسى المصرى رقم ٢٢٤٨ فى ٢٠ أكتوبر ١٩٤٣ .

(٢٨) أنظر الفصل الرابع . هامش ٥٠ .

(29) F.O. 371/45930, APRIL 8, 1945, LORD KILLEARN TO EDEN.

وقد هدأ الخلاف بين النقراشي وعبيد ولو مؤقتا بسبب تدخل القصر الذى كان يواصل تأييده ومساندته للإبقاء على عبيد فى مجلس الوزراء . ويبدو أن عبيدا تلقى توجيهًا ملكيًا ليحد من تشجيعه « الديماجوجي » للعمال والحد منه . كما يبدو أن محاولة محاكمة النحاس كانت قد بدأت تنسى وتختفى[٣٠] . وقد واصل عبيد فى الوقت نفسه هجماته على النحاس الذى كان خارج السلطة وأعلن أن :

« لجنة التحقيق قد توصلت الى أن النحاس باشا وزملاء له فى الوزارة مدينون بارتكاب جرائم تستحق العقاب طبقًا لقانون العقوبات القائم . وأضاف أن التهم سوف يتم تحويلها الى مجلس الوزراء فى وقت قريب »[٣١] .

وعلى الرغم من أن عبيدا شارك فى كل الأحداث الوطنية . وكان مستغرقا فى كل القضايا السياسية الهامة فى ذلك الوقت . الا أنه ــ ومنذ انفصل عن الوفد ــ فقد جانبًا كبيرا من رصيده الشعبى . لأنه لم يعد زعيما فى حزب الأغلبية كما كان لسنوات طويلة مضت . وقد اختير عضوا فى وفد مفاوضات صدقى ــ بيفن سنة ١٩٤٦ . لكنه رفض هو وستة من زملائه مسودة الاتفاقية الجديدة . حتى تفكك وفد المفاوضات وأنقسم على نفسه[٣٢] وقد تعود مكرم عبيد ــ منذ ترك الوفد ــ أن يكتب كلمة يومية فى صحيفة « الكتلة » . تحت أسم مستعار هو « حكيم » عاكسا بذلك خبراته فى المسائل الاجتماعية والقضايا السياسية . ولكن وفى الجانب الآخر كان لانشقاق عبيد تأثير كبير فى حزب الوفد لأن أحد زعمائه الكبار قد أتخذ موقفا عنيفا بصورة علنية ضد النحاس . ووجه انتقاده واتهاماته إلى رئيس الوفد الذى كان يعتبر ــ إلى حد كبير ــ رمز الوطنية وزعيم حزب الأغلبية . ولقد وصف بعض المعاصرين مؤخرًا حملة عبيد ضد النحاس والوفد سنة ١٩٤٢ . ومحتويات الكتاب الأسود والفضائح التى كشف عنها بأنها « ووتر جيت الوفد »[٣٣] .٠وأكدت تلك الحالة المتدهوره فى الوفد الفكرة التى كانت قائمة على نطاق كبير والقائله بأن النحاس ترك مقاليد أمور الحزب بعد سنة ١٩٣٦ لنخبة ملاك الأراضى والسياسيين المحترفين من ذوى المصالح

---

(30) F.O. 371/45930. April 15, 1945 Lord Killearn to Eden.

(٣١) الكتلة . القاهرة . ١٧ فبراير ١٩٤٥ .

(٣٢) ستة قراءة نحو السياسة المصرية . القاهرة (بلا تاريخ) ص ــ ٥٥٧

(٣٣) استخدم هذا التعبير الأستاذ سعد فخرى عبد النور فى اللقاء معه فى سبتمبر ١٩٧٤ .

حتى تحول الحزب عن شخصيته الأصلية وفلسفته التاريخية[٣٤] .

... وقد هيأ انشقاق عبيد عن الوفد عنصرا مثيرا للأحزاب الأخرى التى عللت ترحيبها بعبيد . على الرغم من خلافاتها السابقة معه حيث كان معروفا بأنه المؤيد الرئيسى والمساعد الأول للنحاس . وصانع القرار فى الحزب . وكان القصر الملكى أكثر الأطراف بهجة للتطورات كلها . فقد اعتبر الملك «الكتاب الأسود» سلاحه الملائم الذى يمكنه به مهاجمة الوفد والتضييق عليه[٣٥] . وأنه لمن الصعب تقييم تأثير انشقاق عبيد على التأييد الشعبى العام للوفد . فبصورة عامة . ظل خلاف عبيد ـ النحاس أزمة على مستوى الزعامة فقط دون أن تصل إلى جماهير الشعب من الفلاحين والعمال أو أبناء الطبقة الوسطى التى كانت تشكل الجزء الرئيسى لمؤيدى الوفد تحت زعامة نخبة ملاك الأراضى المصريين وفى أحد تقاريره إلى وزارة الخارجية . علّق لامبسون على هذه المسألة بقوله :

«أنه لمن الصعب تقدير إلى أى حد فقد الوفد التأييد فى البلاد . ومع ذلك فقد وفرت الانتخابات الأخيرة لرئاسة نقابة المحامين دلالة فى هذا المجال . اذ أنه دائما مايتم تعليق أهمية كبيرة على تلك الانتخابات فى ضوء الدور البارز الذى يلعبه المحامون فى الميدان السياسى . وقد كانوا دائما مصدر متاعب لحكومات الأقلية . التى كانت تلجأ إلى التحايل للحيلولة دون انتخاب نقيب وفدى . فقد كانت نقابة المحامين . ولا تزال معقلا وفديا . فكان على حكومة الوفد ـ فى انتخابات النقابة التى جاءت بعد خروج مكرم عبيد من الحزب ـ استخدام كل الأساليب كى تحول دون انتخاب مكرم عبيد باشا نقيبا . وعلى الرغم من الجهود الضخمة التى بذلها الوفديون فى انتخابات انقابة . فقد تم انتخاب محمود بسيونى بك . المرشح الوفدى . بأغلبية ضئيلة . وهى نتيجة أمكن اعتبارها انعكاسا لتحول هام ضد الوفد بين الطبقات المثقفة ذات الأهتمامات السياسية . ومع ذلك لم يتمكن معارضو الحكومة من استغلال ذلك التحول بطريقة مؤثرة[٣٦] » .

ولعل أكثر العوامل تعقيدا فى تحديد تأثير خلاف عبيد ـ النحاس . على انصار الحزب هو

---

(٣٤) من لقاء مع الأستاذ محمد حسنين هيكل . ٣٠ سبتمبر ١٩٧٥ .

(٣٥) طارق البشرى ـ الحركة السياسية فى مصر (١٩٤٥ ـ ١٩٥٢) القاهرة . ١٩٧٢ . ص ـ ٢١ .

(36) F.O. 371/35529, January 31, 1943, LAMPSON TO EDEN.

حقيقة أن الوفد كان قد بنى جزءا من مكانته السياسية وشعبيته على أساس أنه حزب الطائفتين الرئيسيتين فى الأمة المصرية المسلمين والأقباط . وقد كان معروفا أن الوفد يجمع شمل المصريين سواء كبار ملاك الأراضى أو الفلاحين أو المثقفين وحتى أولئك المتخصصين فى أثارة مشاعر الجماهير . إلى جانب المسلمين المتدينين والمسيحيين من كل طوائفهم والعلمانيين . وقد دار الصراع السياسى الكبير فى مصر بين أولئك الذين كانوا ينتمون يوما إلى الوفد وأولئك الذين ظلوا على ولائهم له ولا نكاد نجد من السياسيين المصريين من لم ينضم يوما للوفد(٣٧) .

كما أن وزارتى الخارجية والمالية . فى بعض الحكومات الوفدية . كان يتولاهما قبطيان هما : واصف بطرس . ومكرم عبيد . على التوالى . مما جعل بعض أعداء الوفد يتهمون الحزب بأنه «وفد الأقباط المتعصبين» الذين يحاولون تحقيق تفوقهم على المسلمين . وقد أظهر الوفد مهارة وسعوا فى تجاهل الخلافات الدينية . ومن الممكن أيضا تفسير تأثير الأقباط ونفوذهم فى الوفد ـ الذى كان فى ذلك الوقت حزب محامين وملاك أراض ـ عن طريق مواهبهم المهنية وتزايد الثروة لدى الوجهاء الأقباط(٣٨) . وقد كان الوفد ـ لهذا السبب ـ حركة سياسية على درجة عالية من الأهمية . أمكن للأقباط فى نطاقها وللمرة الأولى منذ القرن السابع . أن يمارسوا مشاعرهم الوطنية ويلعبوا دورا حاسما فى الكفاح الوطنى من أجل الحرية والاستقلال(٣٩) . «فلقد تشابكت أيدى المسلمين والأقباط فى الوفد . وعلى الرغم من أن الوحدة الوطنية كانت تمر بحالات صحوة أحيانا وفتور أحيانا أخرى . فان تلك الوحدة ظلت ذات طابع خاص حتى سنة ١٩٤٢ . عندما اهتزت أثر نزاع علنى بين زعيم الوفد المسلم وساعده الأمين القبطى»(٤٠) .

ومهما يكن الأمر فان انفصال عبيد ـ القبطى البارز ـ من الحزب قد غير إلى حد ما من الصورة التى عرف بها الحزب منذ أيام زغلول كحزب للوحدة الوطنية . فقد كان وجود قبطى على مستوى القمة فى زعامة الوفد رمزًا له معناه ومغزاه . وكان يعطى دائما الحزب شخصية متميزة . وقد كان خروج عبيد من الحزب نهاية لجيل المؤسسين من الأقباط فى الوفد من أولئك الذين بدأوا مع زغلول . مثل واصف ويصا . وسينوت حنا . وواصف غالى ثم مكرم عبيد . وكأن فصلا أخيرا فى المشاركة الواقعية للأقباط فى الحياة السياسية من خلال حزب الوفد قد بدأ . وهى المشاركة التى

---

(37) J & S. LACOUTURE. op. c.t, p. 91.

(38) Ibid., p. 95.

(39) P.F. MEINARDUS op. c.t., p. 14.

(40) E. WAKIN, op. c.t., p. 14.

بدأت فى وقت كانت فيه الحركة الوطنية المصرية لا تزال فى ربيعها . وفى وقت كان فيه الأقباط ـ كما أكدت وقتها صحفهم ـ ينزعون إلى التعاطف مع الرأى المعارض للاحتلال[٤١] . وقد كان النحاس نفسه . يضع فى اعتباره هذه المسألة عندما عين كامل صدقى باشا ـ وهو قبطى ـ وزيرا للمالية خلفا لعبيد . وكان مدركا للأصداء ذات الصبغة الدينية المحتملة لانفصال عبيد . وقد أبرق «لامبسون» إلى الخارجية البريطانية بأنه «من سوء الحظ . أن كامل صدقى باشا وزير المالية . غير كفء لمعالجة المشكلات الراهنة . لكن النحاس باشا كان يخشى التخلص من الوزير القبطى الوحيد المتبقى . مما يزيد من دعم المعارضة القبطية التى يدبرها مكرم ضد حكومته»[٤٢] . ولقد كان النحاس مهتما بضرورة الحفاظ على شعبية الوفد بين الأقباط بعد انفصال عبيد لاحلال أحدهم محل عبيد . وركَّز النحاس على إبراهيم رج محاولا أن تكون علاقته به مماثلة لتلك التى قامت بين زغلول وعبيد[٤٣] .

يبقى بعد ذلك أن نبحث فى ما اذا كانت هناك دوافع دينية تكمن خلف الخطوات التى اتخذها النحاس والوفد ضد عبيد . الواقع أنه لا يوجد هناك دليل مقنع لتأييد ذلك الإعتقاد . فاذا قارنا بين انفصال عبيد فى سنة ١٩٤٢ . وانفصال احمد ماهر والنقراشى . فانه يصعب العثور على أى رد فعل شعبى مختلف . فقد كان الإختلاف فقط فى رد فعل النحاس . الذى كان أكثر عنفا مع عبيد لأن معارضته الأخيره لسياسة النحاس كانت أقوى . ولأن طبيعة الأنفصالين وظروفهما كانت مختلفة .

والنقطة الوحيدة ذات المغزى هى حجم التأييد الذى أرتبط بالانشقاقين اذ كان التأييد لعبيد بين الوفديين أقل إلى حد ما مما كان عليه فى حالة أحمد ماهر والنقراشى . لكن هذا يمكن تبريره بحقيقة أن النحاس كان أكثر قوة فى سنة ١٩٤٢ مدعما فى ذلك الوقت من البريطانيين الذين كانوا يسعون إلى اقرار الأستقرار السياسى فى مصر فى وقت الحرب . كما لا يوجد أى دليل على أن عبيد . كقبطى . كان عاجزا عن استقطاب عدد كبير من مؤيديه من بين المسلمين . ومع ذلك . فأن الواقع يؤكد أن أكثر من نصف مؤيدى عبيد الرئيسيين كانوا من الوفديين الأقباط فى

---

(41) S.M. SEIKALY, op. cit., p. 345.

(42) F.O. 371/35529, January 31, 1943, LAMPSON TO EDEN.

(٤٣) إبراهيم فرج مسيحه . قبطى من سمنود . بلدة النحاس باشا . كان وزيرا للشئون البلدية والقروية فى آخر حكومة وفدية سنة ١٩٥٢ .

البرلمان[٤٤] . وأنه لمن الطبيعي أن بعض الأقباط فزعوا من طرد العضو القبطي القيادي في حزب الأغلبية . ولكن من ناحية أخرى كان هناك كثير من الأقباط في الوفد لم يكونوا مؤيدين لعبيد . وبقوا على ولائهم للنحاس . مثل كامل صدقي . وابراهيم فرج . اللذيْن أصبح كل منهما وزيرا في الحكومات الوفدية بعد ذلك . بينما تبع مسلمون وفديون آخرون عبيدا . وعارضوا النحاس بقوة . مثل سيد سليم . وطه السباعي . اللذين اصبح كل منهما وزيرا مع عبيد في حكومات أحمد ماهر . والنقراشي . في ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥ . وبينما كان النحاس مهتما بشعبية الوفد بين الأقباط . كان عبيد ـ من ناحية أخرى ـ شديد الاهتمام بإظهار احترامه للمسلمين . وذلك عن طريق ابراز أمثله للتصرفات الجائرة للوفد تجاه الأزهر والأخوان المسلمين . وقد كتب عن ذلك في الكتاب الأسود . فذكر :

«لقد اغلقت الحكومة فرع جمعية الأخوان المسلمين في قنا بأمر عسكرى . فقلت لعل النحاس باشا قصر أمره على قنا لأنها قنا (بلد مكرم عبيد) . ولكنى علمت أن الحاكم العسكرى قد أصدر أمره ـ والأمر لله ـ باغلاق عدد كبير من فروع الجمعية وهى تربو على الخمسين في شتى بلاد المملكة المصرية . ويتحدث الناس جميعا عن حوادث الأزهر الشريف . وعن التنكيل بطلبته الأبرياء حينما كانوا يهتفون لملك البلاد في طريقهم إلى القصر العامر . بينما يسمح النحاس باشا بالمظاهرات الصاخبة لمصلحة حكمه»[٤٥] .

وفي برقية بعث بها إلى شيخ الأزهر سنة ١٩٤٣ يهنئه فيها بالذكرى الألفية للأزهر . كتب عبيد :

«لعل أصدق ما يهنأ به الأزهر الشريف في عيده الألفي . أن رسالته التي صمدت للزمان ألف سنة . إن هي الا رسالة حق لن يطويها بل سينميها تعاقب آلاف أخرى من السنين . واذا كان لي ـ كمصرى له عقيدته الوطنية ـ أن أفخر بالأزهر الشريف معهدا مصريا . فان لي كرجل له عقيدته الروحية أن أشيد به معهدا دينيا . ذلك لأن الله ـ الذي شاء للناس أن يختلفوا على الأديان ـ لن يسمح لهم بالاختلاف على الدين . ولقد أدى الأزهر رسالة للدين والدنيا معا . مدركا قبل غيره أن العلم البشرى لن يكتب له البقاء الا اذا اقترنت فيه المادة الخامدة بالروح الخالدة ...[٤٦]» .

---

(٤٤) أنظر الفصل الرابع . هامش ٧٣ .

(٤٥) الكتاب الأسود . ص ـ ٢٦٣ .

(٤٦) أحمد قاسم جوده ـ مرجع سابق ـ ص ١٦١ ـ ١٦٢ .

وعندما اطلق سراحه من السجن . فى أكتوبر ١٩٤٤ . وعين وزيرا المالية فى حكومة أحمد ماهر . ألقى عبيد خطبة رائعة فى قاعة الوزارة . بأسلوب فيه ابتهال . مخلص لله . تحدث فيه عن الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط . وأعاد تأكيدها . وكان الشيخ المراغى موجودا هناك . وعلقّ على ما أتسم به خطاب عبيد من بلاغه . بأنه «حديث شبيه بكلام المتصوفه»[٤٧] .

وعلى أية حال . فقد كان عبيد حريصا دائما على تأكيد أحترامه للإسلام . وكان دائما ما يولى اهتمامه السياسى للأعياد الإسلامية . ومشاركة الأغلبية مشاعرها فى المناسبات الدينية من منطلق الانصهار القومى والوحدة الوطنية . وكان مكرم عبيد ـ فى علاقته مع طائفته ـ يحجم متعمدا عن القيام بدور زعيم طائفى على نطاق محدود . وكان بعكس رجل مثل بطرس غالى باشا . الذى كان يعتبر زعيما للطائفة القبطية قبل أى صفة أخرى . وكان عبيد شخصية عامة من نوع مختلف . كانت تتحدث وتسلك وتتصرف كمصرى . فى المرتبة الأولى . وكقبطى . فى المرتبة الثانية .

وفى ضوء ما حققه عبيد من نجاح يمكن القول أنه كان يعكس (روح زغلول الوطنية) ويمكن تفسير ذلك بأنه كان يتفادى دائما أن يعتبر زعيما طائفيا. وهى مفتاح معرفة طبيعة علاقاته مع الطائفة القبطية . لم يكن عضوا نشطا فى الهيئات أو الجمعيات القبطية . ولم يشترك قط فى النزاع المتصل داخل الطائفة القبطية بين المجلس الملى والكنيسة فقد كان البعض يعتبر المجلس الملى كهيئة تابعة للبطريركية . ومعاونة لها . ولا تتنازع ـ بالضروة ـ مع القانون الروحى للكنيسة القبطية . بينما كان آخرون ينبذون هذه الفكرة . ويتمسكون بأن مثل هذا المجلس يشكل تدخلا من العامة فى السلطة المخولة لرجال الدين أو البطريركية[٤٨] .

ولم يبرز عبيد وسط دعاة أى من الرأيين ولم يشترك فى هذه المناقشات . مما يفسر السبب الذى من أجله اعتبر كثير من الأقباط عبيد أنه متفرج فقط على شئون الطائفة . واعتبروه مجرد قبطى طموح فى الميدان السياسى المصرى . وليس ممثلا لمصالحهم فى السياسة الوطنية . وفى الوقت نفسه . كان عبيد يعتقد دائما أن الوفد والنحاس كانوا يعتبرونه ـ بطريقة ما ـ ممثلاً للأقباط فى حزب الأغلبية . ولم يهئ عبيد ـ ربما بسبب هذا التصور ـ أية فرصة لأى سياسى قبطى آخر بأن

---

(٤٧) المرجع السابق ـ وذكر ذلك أيضا الأستاذ سعد فخرى عبد النور فى لقائنا معه (يمكن أن تعتبر العلاقة العدائية بين المراغى الذى كان شيخا للأزهر من جانب والنحاس والوفد من جانب أخر دافعا وراء قوله الذى امتدح فيه مكرم عبيد) .

(48) F.O. MEINARDUS, op. cit., p. 21.

يتولى مركزا بارزا فى الوفد وأبقى فقط على فهمى ويصا وهو قبطى آخر فى اللجنة
يكن شخصا مرموقا . ومن ثم لم يكن يشكل تهديدا لمركزه القيادى فى الحـ

وسجل لورد كيلرن ــ فى أوراقه الخاصة ــ محادثة دارت بينه وبين الدكتور نجـ
فى أغسطس ١٩٤٢ تبين رأى كثيرين من الأقباط فى عبيد ونزاعه مع النحاس
«اخبرت محفوظ أن عبيدا بكراهيته للنحاس وهجماته العنيفة عليه فى البرلمان .
موقف حرج . اذا تم استدراجه إلى سؤال خاص بالمعاهدة ومدى التزام النحاـ
أرجو من محفوظ أن يحذر مكرم بجدية . لأننى سأكون ــ شخصيًا ــ غير سعيد
علينا اتخاذ اجراء ضد رجل أعتقد أنه ما يزال ــ فى قرارة نفسه ــ مؤيدا لبريطانيـ
أنه يوافق كلية على أن عبيدا كان أحمقا للغاية . وتحدث محفوظ أيضا عن التأثير
على الأقباط عامة . اذ كان الأقباط ينظرون إلى الانجليز دائما بوصفهم المدافعيـ
محفوظ على حماقة عبيد . ووعد بالتحدث معه فى غضون اليومين القادمين .
مخلصا ــ أن يكون لهذا التحذير تأثير ما فكرم فرد عنيف وليس من السهل
معه[٥١] » .

ويلقى تحذير كيلرن الجاد بعض الضوء على دور البريطانيين فى القرار الذى ا
ذلك بالقاء القبض على عبيد سنة ١٩٤٤ . والطريف أن عبيد قد عومل ــ بصفـ
مجتمع الأقلية ــ ببعض التحفظات والشكوك من ناحية المنافسين السياسيين الـ
ناحية أخرى . كان محل اتهامات من الأقباط بأنه كان منافقا للأغلبية المـ
لسانه قوله أنه اذا كان «قبطيا بالدين فإنه مسلم بالوطن»[٥٢] .

ولا يوجد دليل واضح يبرهن على أن شعبية عبيد المتناقصة بعد انفصـ

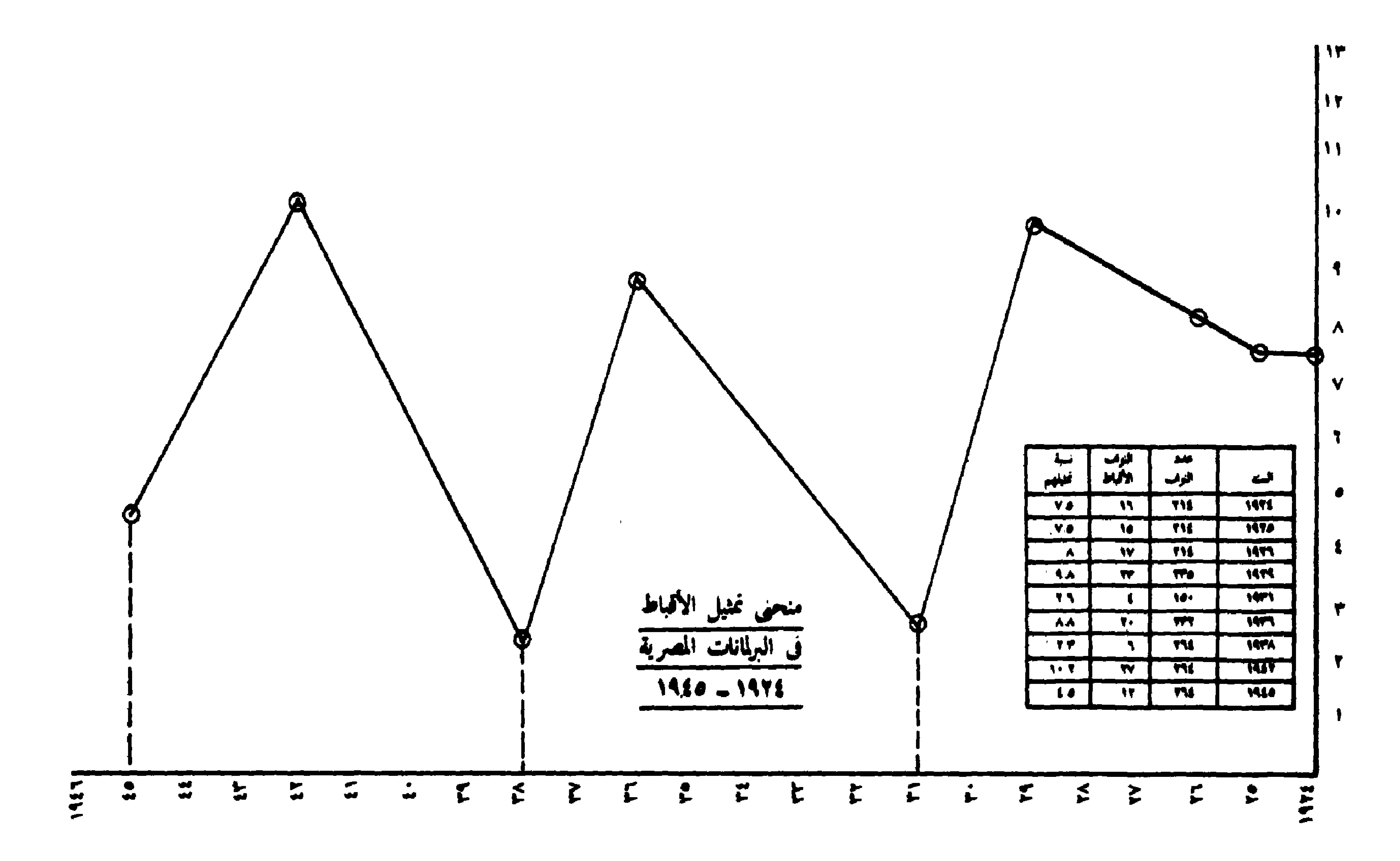
---

(٤٩) عبد العظيم رمضان ــ تطور الحركة الوطنية فى مصر ــ المجلد الثالث ــ بيروت ١٩٧٣ ــ

(٥٠) د . نجيب محفوظ باشا يعد من الرواد فى الطب المصرى الحديث وهو أب طب أمراض
قريب لمكرم باشا عبيد بالمصاهرة .

Papers. p.225 (Cairo. Monder July 27. 1942)

(٥٢) من مقابلة مع الأستاذ فكرى مكرم عبيد ، الذى أضاف أن النحاس ، ولأحمد ماهر . و
عبيد ، فى فترات مختلفة من حياته ، ولكنهم لم يستخدموا أسلوب الطعن فى دين عبيد أو ـ
كتاباتهم ضده .



السنة	عدد النواب	النواب الأقباط	نسبة تمثيلهم
١٩٢٤	٢١٤	١٦	٧.٥
١٩٢٥	٢١٤	١٥	٧.٥
١٩٢٦	٢١٤	١٧	٨
١٩٢٩	٢٣٥	٢٣	٩.٨
١٩٣١	١٥٠	٤	٢.٦
١٩٣٦	٢٣٢	٢٠	٨.٨
١٩٣٨	٢٦٤	٦	٢.٣
١٩٤٢	٢٦٤	٢٧	١٠.٢
١٩٤٥	٢٦٤	١٢	٤.٥

عوامل دينية . بل أن تدهور شعبية عبيد من الممكن أن نرجعه إلى معارضته لحزب الأغلبية والزعيم الشعبي للبلاد . ويلاحظ أن نسبة تمثيل الأقباط فى البرلمان المصرى كانت منذ أيام زغلول . مرتبطة مباشرة بتمثيل الوفد ككل[٥٣] . أى أن نسبتهم كانت تعتمد على القوة الانتخابية لحزب الوفد .

ويوضح الجدول السابق منحنى التمثيل القبطى فى البرلمانات المصرية والعلاقة الطردية بين نسبة الأقباط ومستوى تمثيل الوفد . فنى انتخابات عامى ١٩٣١ و ١٩٤٥ كانت نسبة الأقباط فى البرلمان منخفضة لأن الوفد قاطع تلك الانتخابات . كما كانت النسبة فى انتخابات سنة ١٩٣٨ منخفضة أيضا . لأن الوفد هبطت شعبيته نسبيًا فى أعقاب انفصال أحمد ماهر . والنقراشى . ويرى الأستاذ طارق البشرى أن إنفصال عبيد من الوفد اثبت أنه لم يكن يتمتع بنفوذ أو تأثير خاص على الأقباط فى الوفد لأنه كان يمثل مركز ثقل على المسرح السياسى وليس فى المجال الدينى[٥٤] .

.. وفى الجانب الآخر نجد كاتبا مثل "WAKIN" يصل فى كتابه إلى استنتاج مختلف عندما يقول :

«... فى الاربعينات حدث انفصال بين النحاس المسلم ومكرم عبيد القبطى وترك على أثره معظم الأقباط الوفد»[٥٥] . ولكن الدلائل تشير إلى أن تأييد الوفديين الأقباط لم يتأثر بانفصال عبيد . ومن الممكن أن يكون قد تأثر إلى حد ما بما يمكن أن نطلق عليه بعصبية الصعيد . اذ أن معظم أعضاء مجلس الشيوخ وأعضاء مجلس النواب الأقباط والمسلمين . الذين تبعوا عبيد قد جاءوا من مديريات الوجة القبلى وقد كان النحاس نفسه يقظا بشأن هذه المسألة . وحدد سياسته ـ فى معالجة الخلاف ـ طبقا لذلك .

ونلاحظ أيضا أن انفصال عبيد من الوفد لم يؤثر ـ فى الوقت ذاته ـ على تأييده وشعبيته بين المسلمين الذين وقف كثيرون منهم إلى جانبه ضد النحاس . ويذكر WAKIN أيضا أن «مكرم عبيد ربما كان سيصبح رئيسا للوزارة اذا لم يكن قبطيا»[٥٦] . والواقع أن القصر الملكى هو الذى اهتم بهذه المسألة فى وقت كان الملك فيه مهتما بمركزه الدينى . وربما كانت هذه النقطة عاملا مؤثرا

---

(٥٣) طارق البشرى ـ الكاتب ـ عدد ١٢١ ـ القاهرة ـ ١٩٧١ .

(٥٤) طارق البشرى ـ المرجع السابق .

(55) E. WAKIN, op. cit., p. 17.

(٥٦) المرجع السابق ـ ص ـ ١٧ .

فى اختيار أحمد ماهر . لرئاسة الوزارة بعد النحاس فى ١٩٤٤ وليس مكرم عبيد الذى كان يمكن أن يكون اختيارا طبيعيا فى تلك الظروف . اذ كان منطقيا أن يختار عبيد فى ذلك الوقت كرئيس للوزارء . خاصه بعد معارضته للنحاس . وهجومه القوى ضد حكومته والتى كان الملك قد أضطر إلى قبولها سنة ١٩٤٢ . والواقع أن كفاءات عبيد الشخصية كانت تؤهله لرئاسة الوزارة ربما قبل أحمد ماهر والنقراشى . بالإضافة إلى أنه لم يكن يشعر بأن ديانته يمكن أن تكون حائلا بينه وبين ذلك المنصب الرفيع بمنطق السوابق من ناحية ولشعبيته وكفاءته من ناحية أخرى . لذلك كان عبيد يشعر بمرارة تجاه القصر الذى تخطاه . وقد شارك هو وزعماء الأحزاب الأخرى فى توقيع بيان سنة ١٩٥٠ . ينتقدون فيه فساد الحياة السياسية بصفة عامة . وانحرافات حاشية القصر ومستشارى الملك بصفة خاصة . ويعبر البيان عن الأسف للتصرفات والاجراءات التى تشكل نقضا للدستور[٥٧] .

ورغم نشاط عبيد السياسى ــ بعد خروجه من الوفد ــ فإنه أصبح واضحا أن نفوذه السياسى قد تضاءل . ولم يعد ذلك السياسى المرموق مثلما كان لسنوات يحتل منصبا كبيرا فى حزب الأغلبية . ويعتبر انشقاقه عن الحزب بداية مرحلة انحسار اهمية السياسية ورصيده الشعبى عموما . وعلى الرغم من أنه كان زعيم حزب سياسى له جريدته الخاصه به . لكنه كان حزبا صغيرا ومحدودا بمقارنته بالوفد . كما كان معظم أولئك الذين صوتوا لصالح « الكتلة فى سنة ١٩٤٥ من بين المثقفين الذين كانت لهم تحفظات على سياسة النحاس والوفد عموما[٥٨] .

وهناك روايات كثيرة عن أن مكرم عبيد قد عبر عن أسفه لانفصاله عن الوفد والاحداث التى احاطت بذلك. وقد شوهد عبيد وهو يعانق النحاس فى جنازة محمد صبرى أبو علم باشا فى أبريل سنة ١٩٤٧ . وقد كان أبو علم هو الذى خلف عبيد كسكرتير عام للوفد . ويرى الذين شهدوا عناق عبيد للنحاس بأنه بدا كنوع من الاعتذار من جانبه وأمل جديد فى استعادة علاقاته الطيبة مع النحاس . وربما مركزه القديم فى الوفد كذلك[٥٩] . ويذكر صلاح الشاهد فى كتابه أن عبيد

---

(٥٧) د. هيكل ــ مرجع سابق ــ ص ــ ٣٥٨ ــ ٣٦٠ .

(٥٨) كان لحزب الكتلة الوفدية ٢٩ عضوا فقط من بين أعضاء مجلس النواب فى البرلمان وكان عددهم ٢٦٤ عضوا سنة ١٩٤٥ .

(٥٩) من لقاء مع الأستاذ الدكتور رفعت المحجوب فى ١٨ يوليو ١٩٧٤ . وقد كان من بين الذين حضروا جنازة أبو علم . وقد أكد الأستاذ فكرى عبيد المطومه ذاتها . وأضاف أن المهاصى استقال من الكتلة الوفدية احتجاجا على ذلك التصرف من عبيد .

قال ــ بعد انتخابات سنة ١٩٤٥ ، التى لم يحصل فيها حزبه الا على مقاعد قليلة بالمقارنة بالسعديين والأحرار الدستوريين الذين كانوا حلفاءه فى الانتخابات ــ « لقد صنعت هذا الوضع ، وعلىّ أن أحطمه[٦٠] » . ولقد كان من بين نتائج إنفصال عبيد عن الوفد أن تضاءل دوره كممثل للأقباط فى الحركة الوطنية . ونسوق هنا مثالا لغياب دوره . فقد وقع فى يناير ١٩٥٢ حادث خطير فى مدينة السويس ، شكل تهديدا للوحدة الوطنية فى ذلك الوقت اذ اشتعلت النيران فى كنيسة بالسويس ، ولقى خمسة من الأقباط مصرعهم على يد بعض المتطرفين ممن لا يتصفون بالمسئولية وتقدير المواقف . فقد كانوا خاضعين لانطباع خاطئ بأن ضحاياهم كانوا جواسيس للانجليز فى منطقة قناة السويس فى تلك الفترة العصبية من العلاقات البريطانية ــ المصرية . وقد كان لذلك الحادث أصداء عنيفة بين الأقباط ، خصوصا أبناء مدينة السويس وبعض مدن الوجه القبلى . ويتصور الدكتور محمد أنيس ــ المؤرخ المعاصر ــ أن هذا النزاع الطائفى العارض كان يمكن أن يؤدى إلى إنسحاب الأقباط من الحركة الوطنية المصرية[٦١] . وقد كانت خطورة رد الفعل القبطى واضحة فى برقياتهم إلى رئيس الوزراء النحاس باشا وإلى بطريرك الأقباط (يوساب الثانى) وإلى جميع الصحف اليومية ، الا أن أهم برقية هى تلك التى أرسلها بعضُ الأقباط إلى إبراهيم فرج باشا ــ الوزير القبطى فى الحكومة الوفدية ــ وطالبوه فيها بتقديم استقالته فورا من الحكومة ، والا وقع تحت طائلة العقاب بالحرمان من بركات الكنيسة القبطية ، وطلبوا علاوة على ذلك من جميع السياسيين الأقباط الامتناع عن المشاركة فى أية حكومة حتى تتم الموافقة على مطالبهم ، وكان من بين أعنف الاحتجاجات وأكثرها صخبا احتجاج باسيليوس اسحاق ــ القسيس القبطى لمنطقة غبريال بالاسكندرية ــ والذى بعث ببرقيات نيابة عن طائفته إلى رئيس الديوان الملكى ورئيس الوزراء ووزير الداخلية والصحف القبطية ، يطالبهم فيها بأن تقوم لجنة حكومية بتحقيق فورى فى الجريمة بحضور ممثلين للأقباط كما كان من أعنف ردود الفعل القبطية للحادث ما حدث فى مديرية سوهاج عندما عقد الأقباط اجتماعا فى الكنيسة الرئيسية بالمدينة حيث القت بعض الشخصيات القبطية البارزة خطب احتجاج غاضبة ، وبعثوا ببرقيات إلى النحاس باشا ، وإبراهيم فرج باشا ، والبطريرك القبطى ، وجميع الصحف المصرية ، يطالبونهم فيها بالمساواة الكاملة بين الأقباط والمسلمين ، وأعلنوا رفضهم لأية مساعدة حكومية لأسر الضحايا ، أو أية مساعدة حكومية فى

---

(٦٠) الشاهد ــ مرجع سابق ــ ص ــ ٤٠ .

(٦١) د. محمد أنيس ، حريق القاهرة ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، بيروت ١٩٧٢ صـ ــ ٢٢ ــ ٢٥ ، ص ١٤٥ ــ ١٤٧ .

أعادة بناء كنيسة السويس . وطالبوا أيضا باستقالة إبراهيم فرج باشا من منصبه كوزير قبطى . وطالبوا ـ علاوة على ذلك ـ جميع الشخصيات القيادية القبطية البارزة برفض تعيينهم فى المناصب الوزارية . ووقع على البرقيات عدد من كبار الأعيان والمحامين الأقباط . مثل فايز عبد النور . وفؤاد نجيب . وكامل زكى . ورياض بشاى . وعزيز عازر ... الخ[٦٢] .

وتعكس تلك الحادثة فى سنة ١٩٥٢ ـ قبل حريق القاهرة الشهير فى ٢٦ يناير بعدة أسابيع ـ الفتور الذى أصاب الزعامة الوفدية بعد انفصال عبيد . واختفاء دوره الفعّال كممثل رئيسى للأقباط فى الحزب وفى الحركة الوطنية . ولنا أن نتصور لو كانت حادثة السويس قد وقعت بينما كان عبيد ما يزال الرجل الثانى فى الوفد . ومهندس الوحدة الوطنية . لكان قد لعب أكثر الأدوار فعالية وديناميكية . ربما فى حياته السياسية كلها . لأنه كان بصفته ـ سياسيا قبطيا وزعيما وفديا ـ سوف يستخدم مكانته وشعبيته لدى المسلمين والأقباط لتفادى ردود الفعل الغاضبة واحتواء آثار الحادث المريب .

وفى الجانب الآخر نجد أن الوفد قد فقد قدرا من الثقة التى تمتع بها . واهتز مركزه كحزب الوحدة الوطنية بانفصال عبيد واختفاء الشخصيات القبطية ذات الفعالية من زعامة الحزب . وقد كتبت صحيفة (مصر) تعلق على وضع حزب الوفد قبيل تجديد عضوية مجلس الشيوخ بقولها :

« يبدو أن حزب الوفد قد نسى أن هناك أقباطا يصلحون للترشيح[٦٣] . وأن الأمة مكونة من عنصريها : المسلمون والأقباط . اذ أن ثلاثة ملايين قبطى لا يجب أن يمروا على قوائم الترشيح فى صمت وهدوء »[٦٤] .

ولقد كان المسرح السياسى فى مصر ـ فى نهاية الأربعينات ـ مهيئا لموجات من العنف التى تعيد إلى الأذهان الوضع فى ١٩١٩ ومطلع العشرينات حيث كان المزاج العام متوترا إلى جانب المظاهرات الضخمة وأعمال العنف ضد قوات الاحتلال البريطانى . وقد بدأت المظاهرات ضد البريطانيين هذه المرة . كرد فعل لمفاوضات صدقى ـ بيفن فى سنة ١٩٤٦ . وأرغمت المظاهرات وأعمال العنف الحكومة على التخلى عن الاتفاقية المقترحة ثم الاستقالة . لكن السخط الشعبى كان

---

(٦٢) مصر ـ القاهرة . ١٠/ ١١ يناير ١٩٥٢ .

(٦٣) الترشيح لمجلس الشيوخ المصرى .

(٦٤) مصر . القاهرة ٢٣ مارس ١٩٥١ .

قد بلغ ذورته إلى حد أن سلسلة أعمال القتال والعنف تعاقبت فى الأعوام القليلة التالية . ويمكن تفسير جانب من الإحباط العام . بالتدهور الذى طرأ على شخصية حزب الوفد وشعبيته .

وقد كان الوفد يمر فى سنوات أفوله بسلسلة من الانتقادات وكثير من اللوم والمرارة ففى سنة ١٩٣٦ خسر الوفد تأييد الجماعات الوطنية المتطرفة عندما وقع معاهدة ١٩٣٦ . وبعد ذلك فى سنة ١٩٤٢ خسر قطاعًا ضخما من مؤيديه بسبب تأثير دعاية القصر وأحزاب الأقلية الذين قدموا حادث ٤ فبراير للجماهير بصورة تهبط بشعبية الوفد بحيث أصبح هذان التاريخان ١٩٣٦ . ١٩٤٢ علامتين أساسيتين فى منحنى تدهور شعبية الوفد . كما كان لخسارة شخصيات مثل أحمد ماهر . والنقراشى ثم عبيد بعد ذلك . رد فعلها على بنية وشعبية الحزب[٦٥] .

وقد كان الوفد بوصفه تنظيما جماهيريا ــ وليس حزبا بالمفهوم الغربى للتعبير ــ فى حاجة إلى نموذج من الزعامة التى تكون لديها القدرة دائما على تبسيط التفسيرات للمواقف السياسية . والقيام بالدعاية ذات التأثير . وقد كان اختفاء عبيد ــ خطيب الوفد ــ ذا تأثير ضار على الحزب . لأن الخطابة السياسية كانت إحدى وسائل التأثير الرئيسية المستخدمة . كما كانت ذات شأن عظيم فى الحياة السياسية المصرية فى ذلك الوقت .

وكان هناك سبب رئيسى لانحدار الوفد وأفوله فيما بين ١٩٤٢ ــ ١٩٥٢ ، اذ ان العناصر الجديدة فى الحزب من ملاك الأراضى كانت عاجزة عن استيعاب التغييرات الأجتماعية التى حدثت فى بنية المجتمع المصرى[٦٦] . وكرد فعل لذلك . برز اتجاه إصلاحى اشتراكى بين الشباب من الجيل الجديد للحزب . واطلقوا على أنفسهم «الطليعة الوفدية» . وأعلنوا برنامجهم الخاص بالتغييرات الإجتماعية . كما قدموا بعض الأفكار التقدمية . فى أطار أصلاحى لا يخلو من نزعة اشتراكية . وكان من زعمائهم أسماء مثل : دكتور عزيز فهمى ــ المحامى[٦٧] ودكتور محمد مندور ــ الكاتب . وإبراهيم طلعت ــ النائب بمجلس النواب عن دائرة بالإسكندرية . وقد أبدى بعض الصحفيين الوفديين تعاطفا مع المجموعة . مثل أحمد أبو الفتح ــ رئيس تحرير المصرى .

---

(٦٥) محمد زكى عبد القادر . مرجع سابق . ص ١٣٢ ــ ١٣٥ .

(٦٦) طارق البشرى ــ الحركة السياسية فى مصر ١٩٤٥ ــ ١٩٥٢ ص ــ ٣٢٦ .

(٦٧) عزيز فهمى بك هو ابن عبد السلام فهمى جمعه باشا رئيس مجلس النواب وسكرتير عام الوفد قبل سراج الدين . وقد كان للدكتور عزيز فهمى المحامى شعبية كبيرة فى أوساط المثقفين المصريين فى بداية خمسينيات . وقد توفى فى حادث سيارة غامض عام ١٩٥٢ .

وفى ٨ أكتوبر ١٩٥١ ، ألغت حكومة الوفد معاهدة سنة ١٩٣٦ ، التى كانت تفاخر قبل ذلك بسنوات بتوقيعها وبلغت موجة العنف ذروتها فى مظاهرات ٢٦ يناير ١٩٥٢ التى اقترن بها احراق كثير من المبانى الهامة والفنادق والمحال التجارية فى العاصمة فى جو متوتر ومكفهر للغاية ، مما أدى إلى إقالة آخر حكومة وفدية . اعتمادا على أن الحزب كان منقسما على نفسه . كما لم تكن له سيطرة فعّالة على الجيش أو البوليس . الا أن الرغبة الشعبية فى اصلاحات داخلية . ورفع مستويات المعيشة قد أحبطت عندما تركت الشئون الداخلية للبلاد لشخصيات محافظة مثل فؤاد سراج الدين الذى كان فى وقت واحد سكرتير الحزب . ووزير الداخلية ، كما كانت له مصالح واهتمامات ملاك الأراضى[٦٨] .

وكان هناك ـ علاوة على ذلك ـ عامل جديد برز فى الميدان السياسى المصرى ـ وهو مسألة الوجود الصهيونى فى فلسطين ، والذى حوّل اهتمام الشعب من المظالم الداخلية إلى المشكلات الخارجية التى كانت قد صنعت منذ سنة ١٩٤٨ شعورا بالمرارة داخل صفوف الجيش المصرى[٦٩] .

وقد استغل حزب «الكتلة» بزعامة عبيد حالة الانقسام داخل الوفد . وانضم إلى الحملة المعادية له . موجها لومه ـ فى الأساس ـ إلى النحاس وسراج الدين لفشلهما فى زعامة حزبهم القديم والذى كان من قبل المعبر الحقيقى عن الحركة الوطنية ورغم أن «الكتلة» كان حزبا صغيرا . الا أنه كان حسن التنظيم . وكان يدّعى دائما أنه يعبر عن الخط الأصلى للوفد بدون التورط فى أخطائه .

وبقيام ثورة يوليو ١٩٥٢ . انتهى ـ فعليا ـ الدور السياسى للزعامات التقليدية . واقتصر دور عبيد على القيام بجهود محدودة بعد سنة ١٩٥٢ . كما تم اختياره عضوا فى لجنة محدودة لوضع دستور جديد فى سنة ١٩٥٣[٧٠] . والواقع أن مكرم عبيد يمثل الشخصية المصرية العامة . فقد كان نابضا بالحيوية الفكرية متمتعا بقدرات سياسية متنوعة . إلى جانب اهتماماته بالدراسات النظرية كذلك . ولا زال البعض يذكرون له اسهامه فى إقامة جسور فقهيه بين الشريعة الإسلامية والقانون الفرنسى[٧١] .

---

(68) J.M. LANDAU. op. cit., pp. 189 - 190.

(٦٩) طارق البشرى ـ مرجع سابق ـ ص ـ ٣٢٨ .

(٧٠) روز اليوسف ـ القاهرة ، ٢٩ نوفبر ١٩٧٦ ص ـ ٢٧ .

(٧١) الأهرام ـ القاهرة ـ ١٥ ديسمبر ١٩٧٥ (من حديث للرئيس الفرنسى جيسكار ديستان فى جامعة القاهرة) .

ويرسم ـ WAKIN في كتابه خطوط صورة كئيبة لنهاية دور الأقباط في الحركة الوطنية المصرية بقوله :

« يجسد القسيس سرجيوس [٧٢] العجوز . والسياسي القديم مكرم عبيد الخبرة القبطية في هذا القرن . ويبرزان داخل المحيط القبطي كشخصيتين بطوليتين أحدهما زعيم للطائفة . والآخر وطني كانت له شعبية واسعة . وتوفي السياسي القديم مغمورا وأهملت انجازات حياته . وظل القسيس حيا . وبقيت روحه حبيسة جسد ضعيف [٧٣] » .

وقد توفي مكرم عبيد في ٥ يونيو سنة ١٩٦١ . وألقى أنور السادات ـ الذي كان رئيسا لمجلس الأمة في ذلك الوقت خطابا في تأبينه بالكنيسة المرقسية مشيدا بالنضال الوطني لعبيد من أجل الاستقلال منذ سنة ١٩١٩ . ومضيفا أن أبطال ٥٢ يعدون أبطال ١٩ . أن يمضوا على طريق النضال . الذي بدأه أبطال ١٩١٩ وضحوا من أجله [٧٤] .

---

(٧٢) **القمص سرجيوس** قسيس . له دور بارز في النضال المصري من أجل الاستقلال . وكان له نشاط فعال في ترسيخ الوحدة الوطنية في أيام زغلول . وصعد منبر جامع الأزهر كتعبير عن الأخوة الإسلامية ـ القبطية . وخطب فيه . وتوفي سنة ١٩٦٤ .

(73) E. WAKIN, op. cit., p. 20.

(٧٤) **الأهرام** ـ القاهرة ـ ٧ يونيو ١٩٦١ .

خاتمة

الأقباط فى مصر طائفة فريدة اذا قورنت بالأقليات الأخرى فى العالم إذ أن جذورهم العميقة وأصولهم الواضحة فى دولة لها تاريخ طويل معروف جعلتهم جزءا لا يتجزأ من نسيج الشعب المصرى ـ بأغلبيته المسلمة ـ إجتماعيا وديموغرافيا . ويوضح استقراء التاريخ ان أوضاعهم تأثرت تاريخيا بالسياسات التى ينتهجها الحكام وفقا لأسلوب كل منهم خصوصا وأن الأقباط كانوا مصدر دخل لخزانة الولاة فى بعض الأحيان عن طريق الجزية أو الضرائب التى كانت تثقل كاهل السكان أقباطا ومسلمين . وقد ظل الأقباط لعدة قرون بمنأى عن الحياة العامة فى مصر . لكن مشاركتهم بدأت تتزايد تدريجيا فى قطاعات معينة بالإدارة الحكومية مع ميلاد مصر الحديثة . فقد أصبح الأقباط ـ منذ الحملة الفرنسية وحكم محمد على ـ عنصرا فعّالا وهاما فى الحكومة خاصة فى الشئون المالية والإدارية .

وقد مرت العلاقة بين المسلمين والأقباط بمرحلة عصبية بعد وفاة مصطفى كامل بفترة قصيرة . اذ أن الحزب الوطنى الذى أسسه قد شهد تحولا ذا طابع دينى بعد رحيله . وكان حادث اغتيال بطرس غالى ـ رئيس الوزراء القبطى ـ السبب المباشر لبدء تلك الفترة العصبية . اذ عقد مؤتمر قبطى ليقدم مطالب الطائفة إلى الخديوى والحكومة . ولم يلق المؤتمر تشجيعا من السلطات البريطانية . كما لم يتحمس له كثير من الأقباط . وتلا ذلك عقد مؤتمر إسلامى ـ كرد فعل للمؤتمر الأول ـ ولكن العناصر الأكثر اتزانا من المسلمين والأقباط نجحت فى الحيلولة دون تدهور أكثر فى الموقف .

وقد مرت الحركة الوطنية المصرية بعد ذلك بفترة هدوء نسبى لتأتى بعدها أحداث ملتهبة تمثل ريعان الحركة الوطنية بزعامة سعد زغلول . حيث بلغت مشاركة الأقباط فى الحركة الوطنية والحياة السياسية المصرية أعلى درجاتها .

ويرتبط دور الأقباط فى الميدان السياسى بالحركة الوطنية المصرية قبيل عشرينيات هذا

القرن . اذ هيأت الشخصية العلمانية لثورة ١٩١٩ . ومزاجها المصرى الخالص للأقباط فرصة حقيقية للاسهام بقوة فى المواقف الوطنية ، وتبديد أية شكوك كانت تتردد حول شعورهم الحقيق تجاه الحكم البريطانى . وشجعت السياسة الزغلولية التى ترفض التفرقة الدينية العنصر القبطى على أن يصبح أكثر فعالية فى الحركة الوطنية المصرية ، وواصل حزب الوفد بعد ذلك اتباع الاستراتيجية الزغلولية لاحتواء الأقباط حتى صار الحزب ـ لفترة غير قصيره ـ تعبيرا عن الوحدة الوطنية المصرية فى الوقت الذى اعتبره فيه الأقباط بوتقة الحياة السياسية . ويمكن هنا مقارنة وضع حزب الوفد فى تلك الفترة بحزب المؤتمر الهندى وهو حزب كان يضم كل طوائف واتجاهات الهند الحديثة فى سعيها نحو الاستقلال . والملاحظ أن كلا من حزب الوفد المصرى . وحزب المؤتمر الهندى . قد بدأ نشاطها السياسى فى وقت واحد تقريبا . وكان الولاء للحزب يعلو على كل الولاءات الطائفية . وتلك كانت فلسفة الحزب فى احتواء الطوائف وتمثيل الأقليات .

وليس من شك فى أن مكرم عبيد هو الوحيد من بين السياسيين الأقباط الذى عبر حاجز الأقلية ، ليصبح شخصية عامة ، متمتعا بشعبية واسعة بين المسلمين قبل الأقباط . كما كان أول قبطى يتولى مسئولية رئيسية فى حزب الأغلبية . وقد نجح عبيد فى أن يصنع جسورا قوية مع الرأى العام المصرى لسنوات طويلة . وعلى الرغم من أن عبيد لم يصبح رئيسا لوزراء مصر . فإن اسهامه فى السياسة المصرية الرسمية أعظم من اسهام كثيرين تولوا مسئولية ذلك المنصب . وقد ركز عبيد على دوره الديناميكى فى الوفد . وانهمك فى الحياة السياسية داخليا وخارجيا . فقد كان ممثل الوفد ومبعوثه إلى الخارج . والمتحدث الرسمى الناطق باسم الحزب فى المناسبات الوطنية والأحداث الهامة . وتمثل شخصية عبيد مزيجا متميزا من المشاعر والطموحات التى دفعت به طوال حياته السياسية للسعى نحو اكتساب الشعبية واستقطاب الرأى العام .

ويلاحظ المهتمون بدراسة «سيكولوجية» الأقليات عموما أن هناك بعض الخصائص المشتركة بين افرادها من بينها القلق والخوف من المستقبل . إلى جانب نظرة متحفظة تجاه الشئون العامة . وحساسية مفرطة تجاة الأغلبية فى بعض الأحيان . ومما يلفت النظر أنه يصعب اكتشاف تلك الخصائص النفسية فى شخصية مكرم عبيد . اذ يمثل دوره فى الحياة العامة درجة عالية من الإيجابية . فلم يركن إلى المزاج السلبى العزوف عن المشاركة السياسية . بل كان عنصرا فعّالا ومؤثر فى الحياة من حوله . كما لم يكن عبيد زعيما طائفيا متعصبا . بل كان دائما ما يتفادى الانغماس الشديد فى شئون الطائفة القبطية . سواء المرتبطه منها بالكنيسة أو تلك المرتبطة «بالمجلس الملى

يحاول ـ بوعى تام ـ التغلب على السمات المرتبطة بابن الاقلية ، فكان الدين بالنسبة وليس مبررا للانعزال أو التقوقع ، ولذلك لم يكن قبطيا متعصبا . بل كان مصريا لى . ولاشك أن سيرة عبيد ودوره فى الحياة السياسية المصرية تقدم نموذجا رائعا الافتراض بأن الانتماء لأحدى الأقليات ـ مع التسليم بأن الأقباط أقلية بالمفهوم مة فقط ـ لا يحول دون المشاركة الواسعة والتأثير الايجابى فى الحياة العامة بجوانبها

منا آراء ومواقف مكرم عبيد تجاه القضايا التى تهم الأغلبية فى مصر كقضايا العروبة لوجدنا أنه قد اختار مسلكا ايجابيا فى التعامل معها بحيث أوجد . أرضية مشتركة مع أبناء مصر. ولاشك أن الذى ساعد عبيد فى ذلك هو المناخ العام الذى تجسد فى قدر لديمقراطية الليبرالية التى تقوم على أسس علمانية تفصل بين القرار السياسى والموقف رة كان حزب الوفد فيها أفضل تعبير عن ذلك الفكر بما مكن لسياسى قبطى مرموق أن شعبية ما بلغه مكرم عبيد وذلك استنادا إلى عدة أسباب هى :

الوفد ذاته كان حزب الأغلبية لأسباب تاريخية معروفه .
ية الحزب كانت مصرية خالصة دون ارتباطات تتعارض مع ذلك .
يكن الحزب تعبيرا عن فكر دينى ولم تحط به ظلال يمكن أن تخشاها الأقليات .
مشاركة الأقباط فى دور الحزب بدأت مع ميلاد الحزب ذاته .

شهد مكرم عبيد أكثر أيامه فعالية ونشاطا . كما عاش أروع فترات حياته حين كان عاما لحزب الوفد حيث كان هو رسميا الرجل الثانى فى حزب الأغلبية . بالإضافة إلى . من نفوذ عظيم وشعبية كبيره لأنه كان يمثل القوة المؤثرة خلف النحاس الزعيم الشعبى ين لأكثر من خمسة وعشرين عاما . كما كان عبيد هو العنصر الفعّال فى اتصالات الوفد الملكى والبريطانيين والأحزاب السياسية الأخرى .

لك فإننا نتفق مع الآراء التى تعتبر انفصال عبيد عن الوفد واحده من الخطوات التى تدهور خزب والتى يتحدد بها بدء مرحلة أفول نجم عبيد سياسيا فى الوقت ذاته . إلا أنه يبدو حا . أنه لم يكن هناك أمام عبيد أى اختيار آخر . لأن البديل كان هو السكوت عما لا يقبله مظاهر المحسوبية والفساد . ولكن الملاحظ أن عبيد قد بنى موقفه فى نزاعه من النحاس ، وفى

انفصاله عن الحزب ، على افتراضات خاطئة وغير دقيقة لذلك لم يحقق النتائج التى كان يتوقعها . كما أن القول بأن القصر هو الذى شجّع عبيد على الانفصال عن الحزب . وفى نشر الكتاب الأسود محاولا استخدامه كأداة لتفتيت الوفد خصوصا بعد لطمة ٤ فبراير ١٩٤٢ . قول مقبول مع تحفظ مؤداه أن عبيد شعر أن فى امكانه استغلال موقف القصر لخدمة أهدافه وتحقيق طموحاته . ولم يكن يتوقع ردود فعل النحاس التى كانت عنيفة للغاية . وليس من شك فى أن عبيدا كان مثالا للزعيم الواضح الصريح الذى نجد له نماذج مشابهة فى بعض السياسيين من العالم الثالث حيث يتميزون بما يمكن تسميته «بالديماجوجية» والقدرة على اثارة الحماس وتحريك الجماهير . كما أن طموح عبيد لأن يكون رئيس وزراء مصر كان طموحا ملموسا وله ما يبرره . فقد كان وبكل تأكيد أكثر قدرة من آخرين شغلوا ذلك المنصب فى عصره . ويعكس عبيد بطموحه ذلك . آمال الأقلية فى أن تلعب دورا مؤثرا وفعّالا بين الأغلبية من بنى وطنهم .

لقد حرر عبيد نفسه من القلق والأحساس بافتقاد الأمان . ونزل إلى معترك الحياة السياسية كمواطن مصرى يسعى إلى ممارسة دور فعّال فى رسم مستقبل بلاده . وكان الخط المتطرف الذى انتهجه فى حياته السياسية وانتقاده الشديد للسياسة البريطانية فى مناسبات كثيرة انعكاسا لشعوره بأنه لا ينتمى لدين الأغلبية . فقد كانت الأقباط متهمين ـ من بعض المتطرفين ـ بالتعاطف المستتر مع الاحتلال البريطانى . ويبدوأن الذى ينتمى إلى أقلية قد يضطر إلى أتخاذ مواقف أكثر تطرفا من مواقف الأغلبية ذاتها خصوصا اذا كان يتطلع إلى ممارسة دور سياسى فعّال .

أن تدقيق النظر فى دور الأقباط فى التاريخ السياسى لمصر الحديثة يوضح أنهم قد لعبوا دورا محسوسا فى المجتمع . وأهتموا بالتجانس السياسى والانصهار الكامل فى الحياة السياسية . ولم تختلف أفكارهم وآمالهم عن أفكار وآمال بقية المصريين . فلم يكن للأقباط أحياء خاصة بهم طوال تاريخ مصر . كما كانت ظروفهم الأجتماعية تتحدد وفقا لنزعة الحاكم وميوله . فعندما كان الحكام يحسنون معاملتهم ويتميزون بالسماحة تجاه معتقداتهم كان الأقباط يقومون بدور فعال اجتماعيا وسياسيا . ولكن حين كان الحكام غير ذلك ـ فى بعض مراحل تاريخ مصر الإسلامية ـ كان الأقباط ينسحبون من الحياة العامة . ويتحولون إلى طائفة منكمشة . ويصبحون سلبيين على الصعيدين الأجتماعى والسياسى .

وتمثل الثورة الشعبية عام ١٩١٩ بداية العصر الذهبى للمشاركة القبطية فى الحياة السياسية تحت رايات الوحدة الوطنية . ولعله لا يغيب عن الذهن أنه من الممكن لنموذج عتيد أن يتكرر اذا ما أمكن توفير مناخ ديمقراطى وليبرالى مماثل لذلك الذى شهدته مصر عبر سنوات طويلة هذا القرن حين ادرك المصريون أن الدين لله وأن الوطن للجميع .

الفهـــرس

صفحة

رقم الإيداع ٣٨٦٩ / ٨٥ الترقيم الدولي ٩ ـ ٠٣٥ ـ ١٩٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف: ٧٧٤٨١٤ ـ ٧٧٤٥٧٨ ـ برقيا: شروق ـ تلكس: SHROK UN 93091

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣ ـ برقيا: داشروق ـ تلكس: SHOROK 20175 LE





الأقباط
فى السياسة المصرية

- هذا الكتاب هو خلاصة دراسة علمية وبحث متميز يضع قضية الوحدة الوطنية المصرية فى إطارها الموضوعى السليم ، وسياقها التاريخى الحقيق ، وقد جاء مدعمًا بالوثائق الأصلية ، مرتكزًا على المصادر الجادة .. ليقدم التجربة الفريدة التى عرفتها مصر على امتداد القرون للتعايش القائم على المشاركة بين أبناء الشعب الواحد فى مسيرة تاريخ طويل ، مبرزًا دور الأقباط كجزء من نسيج مصر من خلال متابعة الدور الوطنى لواحد من أبرز الشخصيات فى التاريخ السياسى المصرى الحديث قبل عام ١٩٥٢ .

- إن هذا الكتاب يرد على مزاعم دعاة الطائفية السوداء . ويرد ع[illegible] ينساقون وراء تيار التعصب الأعمى . ويؤكد أن مصر العريقة [illegible] ذاكرتها الوطنية أرحب تجارب الإنسان منذ التقت على أرضها [illegible] وامتزجت فوقها الثقافات ..

